آلان دُو بُوتُون

سقراط
أبيقور
سينيكا
مونتين
نيتشه
شوبنهاور

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

عَزاءَات الفَلسفة

كيف تساعدنا الفلسفة في الحياة

ترجمة: يزن الحَاج

التنوير

الكتاب: عزاءات الفلسفة
المؤلف: ألان دو بوتون
ترجمة: يزن الحاج

عدد الصفحات: 320 صفحة

الترقيم الدولي: 978-977-6483-54-5

رقم الإيداع: 2015/21791

الطبعة الأولى: 2016

العنوان الأصليّ للكتاب
Alain de Botton,
Consolations of Philosophy
New York, Vintage Books, 2001 [2000]

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن
سنتر كريستال - الطابق الأول - هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة-وسط البلد -19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)-الدور 8-شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

twitter @baghdad_library

آلان دو بوتون

عزاءات الفلسفة

كيف تساعدنا الفلسفة في الحياة

ترجمة

يزن الحاج

twitter @baghdad_library

I

العزاء

بشأن مخالفة الآراء السّائدة

twitter @baghdad_library

1

منذ سنوات عدة، في خلال ظهيرة يوم شتاءٍ نيويوركيٍّ قاسٍ، كانت أمامي قبل موعد إقلاع طائرتي إلى لندن، وجدتُ نفسي في غاليري مقفر في الطابق العلويّ من متحف متروبوليتان للفنون. كانت الإضاءة قويّة. وباستثناء الهدير الخفيض لجهاز التدفئة تحت الأرضيّة، كان الصمت مطبقًا. بعد أن وصلتُ إلى مجموعة ضخمة من اللوحات في الأقسام الانطباعيّة، كنتُ أبحث عن لافتةٍ تشير إلى مكان الكافيتيريا - حيث كنتُ أتوق لشراء كأس من صنفٍ أميركيٍّ معيّنٍ من الحليب بالشوكولا كنتُ مغرمًا به بشدّة آنذاك - لكن انجذبت عيناي إلى لوحةٍ تشير القصاصة تحتها إلى أنّها رُسمت في باريس، خريف عام 1786، على يد جاك-لوي دافيد حين كان في الثامنة والثلاثين من عمره.

سقراط، المحكوم بالموت على يد حكّام أثينا، يتهيّأ لشرب سمّ الشوكران، محاطًا بأصدقاء مكتئبين. في ربيع عام 399 ق. م. بدأ ثلاثة مواطنين أثينيّين بإجراءات قانونيّة ضد الفيلسوف. كانوا قد اتّهموه بامتناعه عن عبادة آلهة المدينة، وباختلاق بدع دينيّة، وبإفساد شأن أثينا - وتبعًا لخطورة اتّهاماتهم، طالبوا بإعدامه.

تصرّف سقراط ببسالةٍ أسطوريّة. وبرغم إتاحة فرصةٍ له للتبرّؤ من فلسفته في المحكمة، اختار الوقوف مع ما كان يؤمن أنه صحيح، لا مع ما كان يعلم أنه سيكون سائدًا. وبحسب توصيف أفلاطون، كان قد خاطب المحكمة بجرأة:

> طالما أنّني أتنفّس وأملك القوة، لن أتوقّف عن ممارسة الفلسفة وإسداء النّصح لكم وتوضيح الحقيقة لكلّ من أصادفه... وبذلك أيها السادة ... سواء برّأتموني أم لا، أنتم مدركون أنني لن أغيّر سلوكي، حتى لو متّ مئة مرة.

وهكذا، اقتيد لمواجهة مصيره في سجن أثينيّ، ليشكّل موته علامةً فارقةً في تاريخ الفلسفة.

وقد يكون تكرار تصوير هذه اللحظة إشارةً إلى مغزاها. عام 1650م، رسم الفنّان الفرنسيّ شارل-ألفونس دوفريزنوي لوحة موت سقراط، المعروضة حاليًا في غاليري بالاتينا في فلورنسا (الذي لا يضم كافيتيريا).

twitter @baghdad_library

شهد القرن الثامن عشر ذروة الاهتمام بموت سقراط، بخاصة بعد أن قام «ديدرو» بلفت الانتباه إلى إمكانيّات تجسيدها الفنيّ في مقطع من كتابه رسالة في الشعر الدراميّ.

جاك فيليب جوزيف دو سان-كينتان، 1762

إيتيان دو لافاليه-بوسان، حوالى عام 1760

بيير بيرون، 1790

twitter @baghdad_library

تسلّم جاك-لوي دافيد تفويضه في ربيع عام 1786 من شارل-ميشيل ترودين دو لا سابلييه، وهو عضوٌ ثريٌّ في البرلمان وباحثٌ موهوب في الشؤون اليونانيّة. كانت الشروط سخيّة، 6000 ليفر مقدّمًا، و3000 ليفر أخرى عند التسليم[1] (كان لويس السادس عشر قد دفع 6000 ليفر فقط من أجل اللوحة الأكبر حجمًا: قَسَم هوراتي). وعندما عُرضت اللوحة في الصالون عام 1787، سرى مباشرةً تأكيدٌ أنها أفضل لوحة صوّرت النهاية السقراطيّة. واعتبرها سير جوشوا رينولدز «الجهد الفنيّ الأروع والأكثر إتقانًا منذ لوحتَيْ كابيلا سستينا والستانزا\ الرافائيل. وكانت اللوحة ستشرّف أثينا في عصر بيركليس».

اشتريت خمس بطاقات بريديّة من لوحة دافيد في متجر الهدايا الملحق بالمتحف، لأقوم لاحقًا، وأنا أحلّق فوق حقول نيوفاوندلاند المتجمّدة (التي تتحوّل إلى أخضر برّاق تحت ضوء البدر في سماء صافية)، بتأمّلها وأنا أتسلّى بلقيمات من وجبة مسائيّة باهتة كانت قد تركَتْها المضيفة على الطاولة أمامي أثناء غفوةٍ عابرة.

كشاهدٍ صامت على جور الدولة، يجلس أفلاطون عند نهاية السرير، وثمة قلم ولفافة ورق بجانبه. كان في التاسعة والعشرين عند وفاة سقراط، ولكنّ دافيد حوّله إلى عجوز وقور أشيب. نرى في الممر زوجة سقراط، زنتيب، يرافقها الحرّاس إلى خارج الزنزانة. سبعة أصدقاء في حالات متنوّعة من التفجّع. رفيق سقراط المقرّب، كريتون، الجالس بقربه، يحدّق في المعلم بإخلاص وقلق.

---

(1) الليفر: عملة فرنسيّة قديمة كانت متداولةً بين عامي 781 و1794. [المترجم]

ولكنّ الفيلسوف، منتصب الجسد بجذع ممشوق وعضلات بارزة، لا يُظهر خوفًا أو ندمًا. إذ إنّ اتّهام عددٍ كبير من الأثينيّين له بكونه أحمق، لم يهزّ معتقداته. كان دافيد قد خطّط لرسم سقراط أثناء تجرّعه السمّ، ولكن اقترح الشاعر أندريه شينييه أن جرعةً أكبر من التوتّر الدراميّ ستنتج لو تم تصوير الفيلسوف وقد انتهى من طرح نقطةٍ فلسفيّة في اللحظة ذاتها التي يمدّ فيها يده بهدوء إلى السمّ الذي سيُنهي حياته، حيث ستمثّل تلك اللحظة خضوعه لقوانين أثينا وولاءه لمبدئه في آن. إننا نشهد اللحظات التثقيفيّة الأخيرة لكائن متسام.

ولعل السّبب الذي جعل البطاقة تمسُّني بهذه القوّة يعود إلى أنّ السلوك الذي تُصوِّره كان متناقضًا بحدّة مع سلوكي. في الأحاديث، كانت أولوّيتي هي أن أُحَبّ، لا أن أجهر بالحقيقة. وقد قادتني الرغبة بالإسعاد إلى الضحك على نكت باهتة مثل والدٍ في الليلة الافتتاحيّة لمسرحيّةٍ مدرسيّة. مع الغرباء، اعتنقتُ الطريقة المتذلّلة لعاملٍ في فندق في الترحيب بالزبائن الأثرياء - حماسٌ شديدٌ نابعٌ من رغبةٍ مُشوَّشةٍ مَرَضيّةٍ بالحب. لم أكن أشكّك علنًا بالأفكار التي تعتنقها الأغلبيّة. بل كنتُ أسعى إلى رضى أناس السُّلطة، وأشعر بقلق كبير، بعد الجدالات معهم، ما إذا كانوا لا يزالون يعتبرونني مقبولًا. وعندما كنتُ أعبر بجانبِ أيّ موظّفٍ في سلك رسميّ، أو أقود السيارة قرب سيارات الشرطة، كنت أُضمر أمنيةً مضطربة أن تكون صورتي جيّدة لدى الموظّفين بالبزّات الرسميّة. ولكنّ الفيلسوف لم يُذعن خوفًا من مخالفة الرأي السائد، أو أمام إدانة الدولة له. لم يتنازل عن أفكاره لمجرّد تذمّر الآخرين. وعلاوةً على

twitter @baghdad_library

ذلك، كانت ثقته نابعةً من مصدر أشدّ عمقًا من العناد أو التهوّر. لقد كانت متجذّرة في الفلسفة. إذ منحَت الفلسفةُ سقراط قناعاتٍ مكّنَتْه من امتلاك ثقة مبنية على العقل، وليست هستيريّة، حين كان يواجه الرفض.

تلك الليلة، فوق تلك الأراضي المتجمّدة، كانت استقلاليّة الذهن تلك مصدرًا للإلهام والتحريض. كانت تبشّر بوزنٍ معادلٍ لنزعةٍ متبلّدةٍ لاتّباع الممارسات والأفكار المفروضة مجتمعيًا. في حياة سقراط وموته، ثمة دعوةٌ إلى الشكوكية المتسمة بالذكاء.

وعلى نحو أشدّ عموميّة، فإنّ الموضوع الذي كان الفيلسوفُ اليونانيُّ رمزَه الأعظم بدا وكأنّه يقدّم دعوةً للاضطلاع بواجبٍ يكون عميقًا ومثيرًا للضحك في آن: أن تصبح حكيمًا من خلال الفلسفة. وبالرغم من التباينات الهائلة بين المفكّرين الكثيرين الذين يُعتبَرون فلاسفة عبر الزمن (أناس شديدو التباين فعليًا إلى حدّ أنّهم لو اجتمعوا في حفلة كوكتيل كبيرة، لن يعجزوا عن تبادل أحاديث في ما بينهم فحسب، بل على الأرجح أنهم سيدخلون في شجارات بعد عدة كؤوس)، بدا أن من الممكن تمييز جماعة صغيرة من البشر، تفصل قرون في ما بينهم، يتشاركون ولاءً فضفاضًا لرؤيةٍ عن الفلسفة يقترحها الأصل اللغويّ اليونانيّ للكلمة – فيلو، حبّ؛ صوفيا، حكمة – جماعة يوحّدهم اهتمام مشترك بقول عدة أشياء معزّية وعمليّة بشأن القضايا المتعلقة بمَواطن بؤسنا الكبرى. إلى هؤلاء الناس، سألجأ.

2

يمتلك كلّ مجتمعٍ أفكارًا عمّا ينبغي أن يؤمن به المرء، وعن كيفيّة تصرّفه بحيث يتجنّب التشكيك ومخالفة الآراء السائدة. تُقدَّم بعض هذه المعتقدات المجتمعيّة بصيغةٍ واضحة في منظومة قوانين رسميّة، فيما تكون أخرى مُتضمَّنةً على نحو كامن في مجموعة هائلة من الأحكام الأخلاقيّة والعمليّة تُوصَف بكونها «الفهم السّائد»، تقرّر ما ينبغي على المرء ارتداؤه، والقيم الماليّة التي ينبغي تبنّيها، والأشخاص الذين ينبغي احترامهم، والإتيكيت الذي ينبغي اتّباعه، والحياة الأهليّة التي ينبغي أن نعيشها. وسيبدو الشروع بمساءلة هذه المعتقدات غريبًا، بل وعدوانيًا. إذ عندما يكون الفهم السائد متحررًا من المساءلة، فإنّ هذا يعود إلى أنّ أحكامه شديدة الوضوح والمعقوليّة بحيث لا تكون هدفًا للتشكيك.

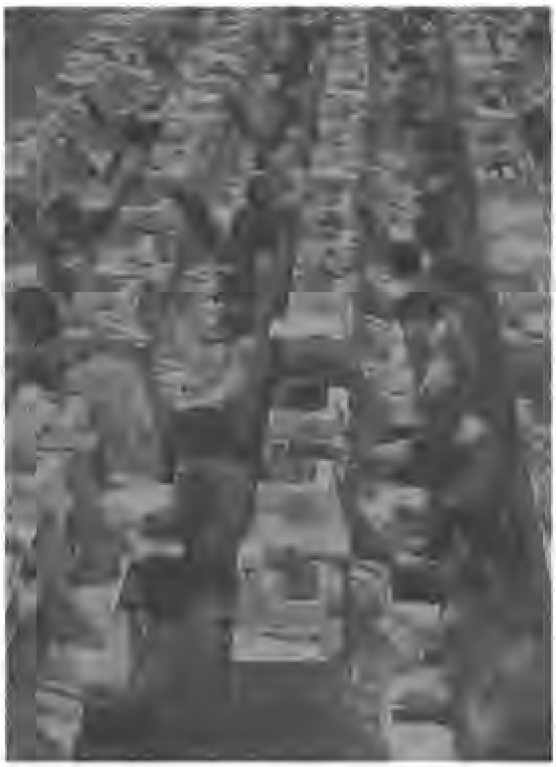

twitter @baghdad_library

وبالكاد يكون مقبولًا، مثلًا، التساؤل خلال حديث عاديّ عن الأمر الذي يعتبره مجتمعنا هدف العمل.

أو أن نطلب من زوجين ارتبطا حديثًا أن يفسّرا بالتفصيل الأسباب التي تقف وراء قرارهما. أو أن نطلب ممّن خرجوا في نزهة أن يتحدّثوا بالتفصيل عن الاعتبارات التي كانت دفعتهم للقيام بنزهتهم.

كان لليونانيين القدماء الكثير من معتقدات الفهم السائد، وكانت تُفرَض عليهم بتصلّب. في إحدى عطل نهاية الأسبوع، وبينما كنتُ أتصفّح الكتب في مكتبة للكتب المستعملة في بلومزبري، عثرت على سلسلةٍ من الكتب التاريخيّة الموجَّهة أساسًا للأطفال، تضم عددًا كبيرًا من الصور والرسومات التوضيحيّة الجميلة. كانت السلسلة

تضمّ انظر داخل بلدةٍ مصريّة، وانظر داخل قلعة، ومجلّدًا اشتريته مع موسوعة عن النباتات السامّة، انظر داخل بلدة يونانيّة قديمة.

كان ثمة معلومة تشير إلى أنّ التزيّن في اللباس في الدول-المدن في اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد كان أمرًا طبيعيًا.

كان الكتاب يشرح أنّ اليونانيين كانوا يؤمنون بآلهة كثيرة، آلهة للحب والصيد والحرب، آلهة مسؤولة عن الحصاد والنار والبحر. وقبل شروعهم بأيّ عمل كانوا يصلّون لتلك الآلهة إما في المعبد أو في مقام مقدّس صغير في المنزل، ويذبحون حيوانات كأُضحيات في سبيلها. وقد كان هذا باهظًا: أثينا تكلّف بقرةً، أرتميس وأفروديت عنزةً؛ أسقليبيوس دجاجةً أو ديكًا.

كان اليونانيّون يشعرون بالتفاؤل بسبب امتلاكهم العبيد. في القرن الخامس قبل الميلاد، في أثينا وحدها، كان يوجد ما بين 80 و100 ألف عبد، بحيث كانت النسبة تقارب عبدًا واحدًا لكلّ ثلاثة أحرار.

twitter @baghdad_library

كما كان اليونانيّون ميّالين للنزعة العسكريّة، ويقدّسون الشجاعة في المعارك. وكي يُعتبَر المرء رجلًا حقيقيًا، كان عليه أن يتقن كيفيّة حزّ رؤوس الأعداء. وقد كان الفعل الذي يتمّ فيه إنهاء حياة فارسيٍّ على يد يونانيّ (كان هذا منقوشًا على لوحة أثناء الحرب الفارسيّة الثانية) يعد هو السلوك الملائم.

وكانت النساء خاضعات كليًا لسلطة أزواجهنّ وآبائهن. لم يكن لهنّ أدنى دور في السياسة أو الحياة العامة، بل كنّ محرومات من الميراث أو من امتلاك المال. وقد كنّ يتزوّجنَ عادةً في سنّ الثالثة عشرة، حيث يتم اختيار أزواجهن عن طريق آبائهنّ بصرف النّظر عن التوافق العاطفيّ.

لم تكن أيٌّ من هذه الأفعال جديرةً بملاحظة معاصري سقراط. كانوا سيشعرون بالإهانة والغضب لو تم سؤالهم عن سبب تقديمهم الدِّيَكة كأضحيات لأسقليبيوس، أو عن السبب الذي يحتاج فيه الرجال أن يَقْتُلوا كي يكونوا ذوي قيمة. كان سيبدو هذا التساؤل بليدًا كما لو أنّك تتساءل عن السبب الذي يكون فيه الربيع بعد الشتاء، أو سبب كَوْن الثّلج باردًا.

twitter @baghdad_library

ولكنّ عدائيّة الآخرين ليست هي وحدها السبب الذي يمنعنا من مساءلة الوضع القائم. إذ قد يتم إضعاف إرادة التشكيك الخاصة بنا على نحو كبير بفعل إحساس داخليّ أن المعتقدات المجتمعيّة تمتلك أساسًا منطقيًا حتمًا، حتى لو لم نكن واثقين تمامًا من ماهيّته، لأنها نُقلت إلينا عبر عدد كبير جدًا من البشر خلال زمن طويل. وسيبدو من غير المعقول أن يكون مجتمعنا مخطئًا على نحو فادح في معتقداته، وأن نكون نحن – في الوقت ذاته – الوحيدين الذين أدركوا الحقيقة. إننا نُخمد شكوكنا ونتبع القطيع لأننا عاجزون عن اعتبار أنفسنا روّادًا في اكتشاف حقائق لا تزال صعبة ومجهولة حتى الآن.

من أجل المساعدة في تجاوز خنوعنا، نلجأ إلى الفيلسوف.

3

1. الحياة

ولد في أثينا عام 469 ق. م. ويُعتقَد أن والده سوفرونيسكوس كان نحّاتًا، وأمّه فايناريت كانت قابلةً. في فتوّته، كان سقراط طالبًا لدى الفيلسوف أرخلاوس، ثم مارس الفلسفة بعد ذلك من دون تدوين. لم يكن يتقاضى مالًا مقابل دروسه فانزلق نحو الفاقة؛ ولم يكن لديه أدنى تعلُّقٍ بالممتلكات الماديّة. كان يرتدي العباءة ذاتها خلال العام، ويكاد يمشي حافيًا طوال الوقت (يُقال إنّه وُلِد ليكون نكايةً بصانعي الأحذية). عندما مات كان متزوّجًا وأبًا لثلاثة أبناء. كانت زوجته، زنتيب، سيئة الطّباع (عندما سُئل عن سبب زواجه بها،

أجاب أنّ على مروّضي الخيول تجربة أكثر الحيوانات جموحًا).
كان يقضي معظم وقته خارج المنزل، يتحدث إلى أصدقائه في الأماكن العامة في أثينا. كانوا يقدّرون حكمته وحسّ فكاهته. وقلّة منهم كانت راضيةً عن مظهره. كان قصيرًا، ملتحيًا، أصلع، ذا مشيةٍ مترنّحةٍ غريبة، ووجهٍ منفّر. كان يشبّهه معارفه برأس سرطان، أو إله الغابات ساتير. كان أنفه أفطس، وشفتاه غليظتين، فيما كانت عيناه جاحظتين على الدوام أسفل حاجبين عنيدَيْن.

ولكنّ سِمَتهُ الأشدّ غرابةً كانت عادة التقارب من الأثينيين من جميع الطبقات والأعمار والمهن، ليمطرهم بالأسئلة من دون أدنى شعور بالقلق من أن يعتبروه غريب الأطوار أو مُسببًا للغيظ، وذلك كي يفسّر لهم سبب اعتناقهم معتقدات سائدة، وما يعتبرونه مغزى حياتهم - إذ عبَّرَ أحد هؤلاء الناس العاديين بالقول:

twitter @baghdad_library

كلّما كان أحدنا يواجه سقراط ويتحدث إليه، فإنّ ما يحدث - بصيغ متعددة - هو أنّ سقراط برغم انطلاقه من بدايةٍ مختلفةٍ كليًا كل مرة، فإنّه يستدرج محدّثه بالكلام إلى أن يقع في فخ توصيف حياته الحاليّة، وكيف عاش حياته في الماضي. وما إن يقع في الفخ، لا يتركه سقراط بسلام قبل أن يكون قد تمحّص فيه من كل زاوية وعلى نحو كليّ.

كان المناخ والتخطيط المدينيّ عونًا له في عادته تلك. إذ كانت أثينا دافئة لنصف العام، ما يزيد من فرص التحدث إلى الناس خارج المنازل. والنشاطات، في الشمال، التي كانت مستترةً بالجدران الطينيّة للأكواخ المعتمة المختنقة بالدخان، لم تكن تحتاج إلى أيّ ملجأ تحت السماوات الإغريقيّة الصافية. وكان من المعتاد التسكّع في الأغورا [الساحة العامة] في المدينة، تحت أعمدة الأروقة الإغريقيّة المزخرفة، أو رواق زيوس إليوثيريوس، وتبادل الأحاديث مع الغرباء في فترة العصر، في الساعات المتاحة بين قسوة شمس الظهيرة، وغموض الليالي.

وكان حجم المدينة يسمح بهذا الأنس. إذ كان هناك ما يقارب 240 ألف نسمة يعيشون داخل أثينا ومينائها. ولم يكن المرء بحاجة إلى أكثر من ساعة لقطع المدينة من أقصاها إلى أقصاها، من بيرايوس إلى بوّابة أيغيوس. وكان السكّان يبدون كتلاميذ في مدرسة أو ضيوفًا في عرس. لم يكن غرباء الأطوار والسكّيرون وحدهم من يتبادلون الأحاديث مع الغرباء في العلن.

يعود إحجامنا عن مساءلة الوضع القائم، إلى كوننا على نحو أساسيّ - بمعزل عن الطقس وحجم مدننا - نقرن ما هو سائد بما هو صحيح. ولكنّ الفيلسوف الحافي طرح مجموعةً كبيرة من الأسئلة ليحدّد ما إذا كان السائد يحمل أيّ مغزى أساسًا.

2. سُلطة الفهم السّائد

كثيرون اعتبروا الأسئلة جنونيّة. واضطهده البعض. وأرادت قلّةٌ قتله. في مسرحيّة السُّحب، التي عُرضت للمرة الأولى على مسرح ديونيسوس ربيع عام 423 ق. م. عرض أريستوفانيس أمام الأثينيين صورةً كاريكاتوريّة للفيلسوف الذي بينهم، الذي رفض قبول الفهم السائد من دون التمحيص في منطقه على نحو مفصّل. ظهر الممثل الذي يلعب دور سقراط على الخشبة في سلّة معلّقةٍ برافعة، إذ كان يدّعي أنّ ذهنه يعمل على نحو أفضل في مكانٍ مرتفع. كان مشغولًا بهذه الأفكار المهمّة إلى حدّ عدم امتلاك وقتٍ للاغتسال أو ممارسة

twitter @baghdad_library

الأعمال المنزليّة، ولذا كانت عباءته كريهة الرائحة، ومنزله يعجّ بالحشرات، ولكنّه - على الأقل - كان قادرًا على مقاربة مسائل الحياة المحوريّة. وكانت تتضمّن: ما المدى الذي يمكن أن تصل إليه وثبة البرغوث مقارنةً بطوله؟ وهل تُطلق الصراصير صريرها من رؤوسها أم مؤخّراتها؟

وبالرغم من أنّ أريستوفانيس لم يتوسّع بشأن نتائج أسئلة سقراط، لا بدّ وأن يكون الجمهور قد غادر مع إحساس بأن تلك الأسئلة تعنيهم.

كان أريستوفانيس يبيّن نقدًا مألوفًا للمثقّفين: إنهم، عبر أسئلتهم، يشطّون عن الآراء المنطقيّة أكثر ممَنْ لم يعمد أبدًا إلى تحليل المسائل بطريقةٍ منهجيّة. وكان التمييز بين المسرحيّ والفيلسوف تقييمًا حاسمًا لملاءمة التفسيرات الاعتياديّة. وبينما كان الناس العقلاء قادرين، في أعين أريستوفانيس، على الركون إلى معرفة أنّ البراغيث تثب مسافةً هائلةً مقارنةً بطولها، وأن الصراصير تُصرّ من مكانٍ ما في جسدها، كان سقراط في موقع المتَّهم بالتشكيك الجنونيّ بالفهم السائد، وبترسيخ نهمٍ منحرفٍ للبدائل المجنونة المعقّدة.

وكان سقراط سيجيب على هذا بقوله إنّه في حالات محدَّدة، قد لا تشمل البراغيث، يمكن للفهم السائد أن يطرح تساؤلات أعمق. إذ بعد أحاديث وجيزة مع كثير من الأثينيّين، قامت الآراء السائدة بشأن كيفيّة عيش الحياة الجيّدة، وهي آراء وُصفت بكونها طبيعيّة وبعيدةً - بالتالي - عن مساءلة الأغلبيّة، بالكشف عن تنافرات صاعقة لم تكن طريقة الحديث الواثقة لأنصارها تومئ إلى أيٍّ منها.

وعلى النقيض مما أمل به أريستوفانيس، تبيَّنَ أنّ من تحدّث إليهم سقراط كانوا بالكاد يعرفون ما يتحدثون عنه.

3. محادثتان

في إحدى ظهيرات أثينا، بحسب محاورة لاخيس لأفلاطون، التقى الفيلسوف صدفةً بجنرالَيْن بارزَيْن، نيكياس ولاخيس. كان الجنرالان قد حاربا الجيوش الإسبارطية في الحرب البيلوبونيسيّة، وكسبا احترام كبار أثينا وتبجيل شبابها. كان كلاهما سيموت جنديًا: لاخيس في معركة مانتينيا عام 418 ق. م، ونيكياس في الحملة المشؤومة على صقلية عام 413 ق. م. ليس ثمة صور لهما، ومع ذلك بوسع المرء تخيُّل أنهما كانا في المعركة يشبهان خيّالَيْن على قسمٍ من إفريز البارثينيون.

twitter @baghdad_library

كان الجنرالان مرتبطين بفكرةٍ سائدة واحدة. كانا يؤمنان أن على المرء، لو أراد أن يوصَف بالشجاعة، أن ينتمي إلى الجيش، ويتقدّم في المعركة ليقتل الأعداء. ولكن عند مواجهتهما تحت السماء المفتوحة، شعر سقراطٍ بميلٍ لطرح عدة أسئلة عليهما:

سقراط: لنحاول تعريف الشجاعة يا لاخيس.

لاخيس: بحق الآلهة يا سقراط، هذا ليس صعبًا! لو كان الرجل مُهيَّأً للانضمام إلى الجيش، ومواجهة العدوّ من دون أن يهرب، بوسعك أن تثق بكونه شجاعًا.

ولكنْ تذكّرَ سقراط معركة بلاتيا عام 479 ق. م، عندما تراجعتْ كتيبةٌ يونانيّةٌ بقيادة الوصيّ على العرش الإسبارطيّ باوسانياس، ثم هزمت الجيش الفارسيّ الذي كان تحت قيادة مردونيوس ببسالةٍ:

سقراط: في معركة بلاتيا، كما تقول الروايات، هجم الإسبارطيّون [على الفُرس]، ولكنّهم كانوا عاجزين عن الصمود، فانسحبوا. أصبح السَّبَق للفُرس؛ ولكنّ الإسبارطيّين عادوا إلى القتال بقوّة، وبهذا ربحوا ذلك الجزء من المعركة.

مرغَمًا على التفكير مجددًا، طرح لاخيس فكرةً سائدةً أخرى: إنّ الشجاعة ضربٌ من الجَلَد. ولكن يمكن للجلَد، كما أشار سقراط، أن يُدفَعَ إلى نهايات طائشة. ولتمييز الشجاعة الحقّة عن التهوّر، لا بدّ من عنصر مميِّزٍ آخر. قام نيكياس، رفيق لاخيس، بتوجيه من سقراط، بطرح أنّ الشجاعة لا بدّ أن تتضمّن المعرفة، أي الوعي بالخير والشرّ، ولا يمكن أن تكون محصورةً بالصّلاح.

في محادثة خارجيّة وجيزة فحسب، تمّ اكتشاف تنافرات كبيرة

في التعريف النموذجيّ لفضيلةٍ أثينيّةٍ مبجَّلة. بيّنتْ عدم الأخذ بالاعتبار احتمال وجود شجاعةٍ خارج ميدان المعركة أو أهميّة تقرن المعرفة بالجلَد. قد تبدو المسألة تافهةً ولكنّ تضميناتها كثيرة. لو تم تلقين الجنرال من قبل أنّ إصداره أوامر لجيشه بالانسحاب يعني الجُبن، حتى لو بدا هذا هو الإجراء المنطقيّ الوحيد، ستُسهم إعادة التعريف في توسيع خياراته، وتجعله أكثر مناعةً تجاه النّقد.

في محاورة مينو لأفلاطون، انخرط سقراط مرةً أخرى في محادثة مع شخص شديد الثقة بحقيقةِ فكرةٍ سائدةٍ. كان مينو أرستقراطيًا متغطرسًا جاء من مدينته ثيسالي في زيارةٍ إلى أتيكا، متمسّكًا بفكرةٍ عن علاقة المال بالفضيلة. كي يكون المرء فاضلًا، كما فسَّرَ لسقراط، لا بدّ أن يكون شديد الثراء، إذ إنّ الفقر إخفاقٌ شخصيٌّ للإنسان وليس أمرًا عارضًا.

twitter @baghdad_library

نفتقر إلى توصيفٍ لمينو أيضًا، ولكن أثناء تصفّح مجلّة رجاليّة يونانيّة في لوبي فندق أثينيّ، تصوّرتُ أنه قد يشبه رجلًا يشرب الشمبانيا في حوض سباحةٍ ذي إضاءة صارخة.

الرجل الفضيل، كما أكّد مينو لسقراط، ذو ثروةٍ عظيمة وقادرٌ على شراء أشياء جيّدة. بدأ سقراط بطرح عدة أسئلة:

سقراط: هل تعني بالأشياء الجيّدة أمورًا كالصحة أو الثروة؟

مينو: كما أُدخِلُ هنا امتلاك الذهب والفضة، ومنصبًا عاليًا محترمًا في الدولة.

سقراط: هل هذه هي الأشياء الجيّدة الوحيدة التي تعرفها؟

مينو: نعم، أعني وكلّ ما إلى ذلك من أشياء.

سقراط: ... هل تضيف «العادل والمُحقّ» لكلمة «الامتلاك»، أم أنّ هذا لا يشكّل أدنى اختلاف بالنسبة إليك؟ هل تعتبرها فضيلةً حتى لو تمّ اكتسابها على نحو مجحف؟

مينو: لا، بالتأكيد.

سقراط: إذًا يبدو أنّ العدالة أو ضبط النفس أو الوَرَع، أو أيّ ضربٍ آخر من الفضيلة لا بد أن يرتبط بامتلاك [الذهب والفضة] في الواقع، إنّ الافتقار إلى الذهب والفضة، لو كان ناجمًا عن إخفاقٍ في اكتسابهما في ظروفٍ يكون فيها اكتسابهما مُجحفًا، فضيلةٌ بحدّ ذاته.

مينو: يبدو الأمر كذلك.

سقراط: إذًا، امتلاك أمور كهذه ليس فضيلةً على نحو

أكبر من الافتقار إليها...

مينو: تبدو خُلاصتك مُفحمةً.

خلال عدة لحظات، تمّ التبيان لمينو أنّ المال والتأثير ليسا سمتين لازمتين وكافيتين للفضيلة. قد يكون الأثرياء جديرين بالاحترام، ولكنّ هذا يعتمد على كيفيّة اكتسابهم لثروتهم، كما لا يمكن للفقر، بذاته، أن يكشف عن القيمة الأخلاقيّة للفرد. ليس ثمّة سببٌ موجبٌ للشخص الثريّ كي يفترض أنّ أمواله تضمن فضيلته؛ وليس ثمّة سببٌ موجبٌ للفقير كي يتصوّر أنّ عَوَزَه دليلٌ على فسقه.

4. سبب جهل الآخرين

قد تبدو المواضيع منتهية الصلاحيّة، ولكنّ الأخلاقيّات المتضمَّنة ليست كذلك: قد يكون الآخرون على خطأ حتى لو كانوا في مواقع مهمّة، وحتى لو كانوا يتبنّون معتقداتٍ راسخةً لقرون عند الغالبيّة العظمى. والسبب بسيط: هم لم يعمدوا إلى التمحيص في معتقداتهم على نحو منطقيّ.

كان مينو والجنرالان يعتنقون أفكارًا لا منطقيّة لأنّهم كانوا قد تبنّوا الأفكار السائدة من دون اختبار منطقها. ولتبيان خصوصيّة سلبيّتها، عمد سقراط إلى مقابلة العيش من دون تفكير منهجيّ بممارسة نشاطٍ كصناعة الخزف أو الأحذية. ومن دون اتّباع، أو حتّى معرفة، الإجراءات التقنيّة. لا يمكن للمرء أنّ يتصوّر أن الإناء الخزفيّ أو الحذاء الجيّد قد نتجا من الحدس وحده أبدًا؛ لمَ إذًا ينبغي الافتراض أن الواجب الأكثر تعقيدًا المتعلّق بإدارة المرء لحياته يمكن الاضطلاع به من دون تأمّل دقيق مستندٍ إلى فرضيّات أو أهداف؟

twitter @baghdad_library

ربما يعود هذا إلى أنّنا لا نعتبر أن إدارة حيواتنا فعلٌ معقّدٌ في الواقع. إذ ثمّة نشاطاتٌ صعبةٌ بذاتها تبدو شديدة التعقيد من الخارج، فيما تبدو نشاطات أخرى، بالقدر ذاته من الصعوبة، بسيطةً جدًا. ويندرج التوصّل إلى آراء منطقيّة بشأن كيفيّة العيش ضمن التصنيف الثاني، فيما تندرج صناعة الخزف أو الأحذية ضمن التصنيف الأول.

إنّ صناعة هذه الآنية كان عملًا هائلًا بكل تأكيد. كان ينبغي بدايةً جلب الصلصال إلى أثينا، حيث كان يتم هذا عادةً من منجمٍ كبيرٍ في كيب كولياس على بعد سبعة أميال جنوب المدينة، ثم وضعه على العجلة، وتدويره بمعدّل يتراوح بين 50 و150 دورة في الدقيقة، حيث تتناسب السرعة بدقّة مع قطر الجزء المُراد صنعه (كلّما كانت الآنية أضيق، زادت سرعة العجلة). ثم يأتي دور التنظيف، والكشط، والمسح، والرتوش اليدويّة الأخيرة.

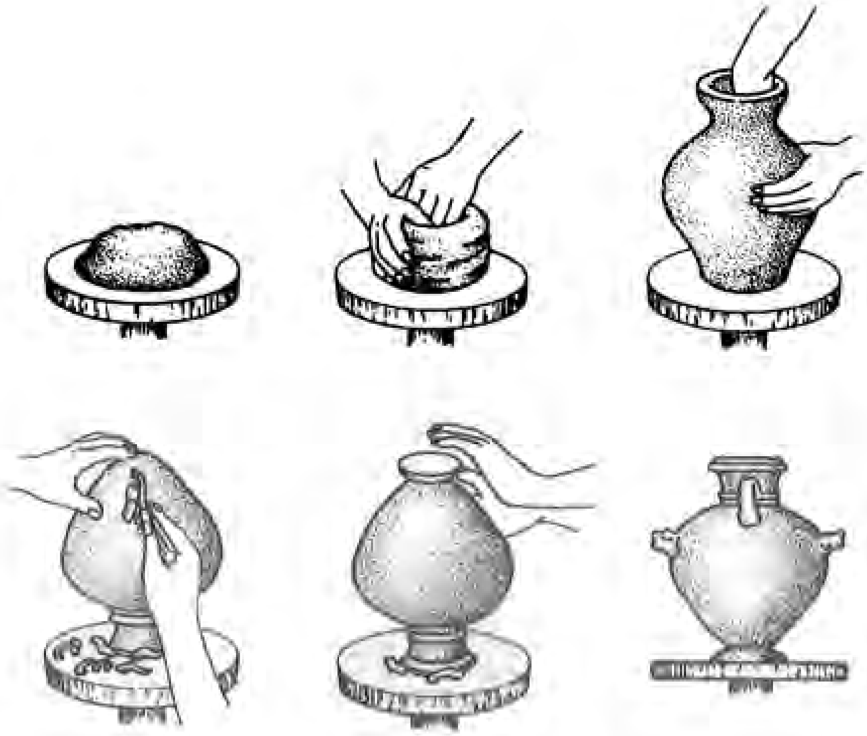

من ثم لا بد من تغطية المزهريّة بمينا سوداء مصنوعةٍ من صلصال مرصوص جيّد ممزوجٍ بملح البوتاس. وبعد جفاف المينا، ستُوضع المزهريّة في فرنٍ تصلُ حرارته إلى 800 درجة مع إبقاء فتحة التهوية مفتوحة. ستتحوّل إلى لونٍ أحمر غامق، فيما سيتصلّب الصلصال ليصبح أوكسيد الحديد (Fe_2O_3). بعدها، يُشوى في درجة حرارة 900 درجة مع إغلاق فتحة التهوية وإضافة أوراق شجر رطبة من أجل تأمين الرطوبة، ما يحوّل المزهريّة إلى لون أسود مشوبٍ بالرماديّ، ويحوّل المينا إلى أسود ملبَّد (أوكسيد الحديد الأسود، Fe_3O_4). وبعد عدة ساعات، يعاد فتح فتحة التهوية، وتُكنَس الأوراق ويُسمَح لدرجة الحرارة بالهبوط إلى 900 درجة. وفيما يستعيد المينا اللون الأسود الخاص بالمرحلة الثانية من الشيّ، تستعيد المزهريّة اللون الأحمر الغامق الخاص بالمرحلة الأولى.

ليس من المفاجئ أن يكون قلّة من الأثينيّين قد انجذبوا لصناعة

twitter @baghdad_library

مزهريّاتهم من دون تفكير. إذ إنّ صناعة الخزف تبدو صعبةً كما هي عليه فعلًا. ولكن للأسف، لم يكن التوصّل إلى أفكار أخلاقيّة جيّدة على هذا النحو، بل كان يتم اللجوء بدلًا من ذلك إلى الانخراط في مجموعةٍ إشكاليّةٍ من النشاطات التي تبدو بسيطةً على نحو زائف، فيما هي معقّدة فعليًا.

يحثّنا سقراط على أن لا نفقد رباطة جأشنا بفعل ثقة أناس آخرين أخفقوا في تقدير هذا التعقيد، وعمدوا إلى صوغ آرائهم من دون قدرٍ مساوٍ على الأقل لصرامة صانع الخزف. إذ ما كان يُعتبَر واضحًا و«طبيعيًا»، نادرًا ما يكون كذلك حقًا. وينبغي أن يعلّمنا تمييزُ هذا الأمر الجزمَ أنّ العالم أكثر مرونةً مما يبدو عليه، إذ إنّ الآراء السائدة لا تنبع عادةً من عمليّة تأمّلٍ صارم، بل عبر قرونٍ من التخبّط الفكريّ. قد لا يكون ثمة سببٌ موجبٌ كي تكون الأشياء على ما هي عليه.

5. كيف يفكّر المرء بنفسه

لا يساعدنا الفيلسوف على الاقتناع أن الآخرين قد يكونون على خطأ فحسب، بل يقدّم لنا كذلك طريقةً بسيطةً تمكّننا من تمييز ما هو صحيح بأنفسنا. قلّةٌ هم الفلاسفة الذين كانوا يمتلكون الحدّ الأدنى من الإحساس بما هو لازمٌ للشروع بحياةٍ تأمّليّة. لسنا بحاجة إلى سنوات من التعليم الرسميّ والعيش المرفّه. يمكن لأيّ شخصٍ يمتلك عقلًا فضوليًا وحسن تنظيم ويسعى إلى التدقيق في المعتقدات السائدة أن يبدأ محادثةً مع صديق في أحد شوارع المدينة، بحيث يصل، مقتفيًا المنهج السقراطيّ، إلى فكرة خلّاقةٍ أو اثنتين خلال أقل من نصف ساعة.

نجد المنهج السقراطيّ للتدقيق في الفهم السائد على نحو واضح في جميع محاورات أفلاطون الأولى والوسطى، بل ويمكن تقديمه بلغة كتّيبٍ إرشاديّ دون إلحاق إجحاف به، لكونه يتبع خطوات متناغمة، كما يمكن تطبيقه على أيّ معتَقد يُطلَب من المرء الامتثال له أو يشعر بميلٍ للتمرّد ضدّه. لا تتحدّد صحّة المقولة، بحسب المنهج، لكونها متبنّاة من أغلبيّة أو مدعومة طوال زمن طويل من أشخاص بارزين. المقولة الصحيحة هي تلك التي لا يمكن تفنيدها على نحو منطقيّ. وتكون المقولة صحيحة حين لا تكون مخالفتها ممكنةً. ولو كان بالإمكان ذلك، لا بدّ وأن تكون خاطئة، ولنا الحق في التشكيك فيها، بصرف النظر عن عدد معتنقيها أو اتّساع مداها.

المنهج السقراطيّ للتفكير

1. حدّد مقولةً توصَف على نحو واثق بكونها سائدة:.

الشجاعة تستلزم عدم التراجع في المعركة.

الفضيلة تستلزم امتلاك المال.

2. تصوَّرْ للحظة، بصرف النظر عن مدى ثقة الشخص الذي طرحها، أنّ المقولة خاطئة. ابحث عن المواقف أو السياقات التي لا تكون فيها المقولة صحيحة:

هل يمكن للمرء أبدًا أن يكون شجاعًا برغم تراجعه في المعركة؟

هل يمكن للمرء أبدًا أن يثبت في المعركة من دون أن يكون شجاعًا؟

هل يمكن للمرء أبدًا أن يمتلك المال من دون أن يكون فضيلًا؟

twitter @baghdad_library

هل يمكن للمرء أبدًا أن لا يمتلك المال برغم كونه فضيلًا؟

3. لو وُجد استثناء، لا بدّ أن يكون التعريف خاطئًا، أو غير دقيق على الأقل.

يمكن أن تكون شجاعًا وتنسحب.

يمكن أن تثبت في المعركة من دون أن تكون شجاعًا.

يمكن أن تمتلك المال من دون أن تكون فضيلًا.

يمكن أن تكون فقيرًا وفضيلًا.

4. يجب أن تحتمل المقولة الابتدائيّة وجود دلالات متعدّدة كي يتم أخذ الاستثناء بالاعتبار.

يمكن أن تتضمّن الشجاعة كلًّا من الكر والفرّ في المعركة.

لا يمكن اعتبار الأثرياء ذوي فضيلة إلا إذا اكتسبوا المال بطريقةٍ مشروعة، ويمكن أن يكون بعض الفقراء ذوي فضيلة عندما يختبرون ظروفًا يكون من المستحيل فيها الإبقاء على فضيلتهم مع اكتساب المال.

5. لو استطاع المرء إيجاد استثناءات للمقولات بعد تعديلها، ينبغي إعادة العمليّة. تكمن الحقيقة، لو كان بإمكان الإنسان التوصّل إلى أمرٍ كهذا، في المقولة التي يبدو من المستحيل تفنيدها. توجد الحقيقة حين يتم اكتشاف أنّ ماهيّة الأمر ليست هي ما أوشك المرء على فهمه.

6. نتاج الفكر يعلو على نتاج الحدس، بصرف النظر عن تلميحات أريستوفانيس.

من الممكن، بالطبع، التوصّل إلى الحقائق دون تفلسف. ودون اتّباع منهج سقراط، بوسعنا تمييز أنّ الفقراء قد يكونون ذوي فضيلة لو اختبروا مواقف يكون من المستحيل فيها أن يمتلكوا الفضيلة والمال معًا، أو أنّ الشجاعة قد تتضمّن الانسحاب في المعركة. ولكن قد نجازف في الوقوع في جهل كيفيّة الرد على الأشخاص الذين نخالفهم الرأي لو لم نعمد بدايةً إلى التدقيق في الاعتراضات التي قد تعتري موقفنا على نحو منطقيّ. قد يُخرسنا الأشخاص المؤثّرون الذين سيرغموننا على الإنصات بشأن أنّ وجود المال جوهريٌّ في الفضيلة، وأن المخنّثين وحدهم ينسحبون في المعركة. وعند الافتقار إلى الحُجج المضادّة التي تمنحنا القوّة (معركة بلاتيا والإثراء في مجتمع فاسد)، لا بدّ أن نشعر بالضعف أو التردّد في التأكيد على صحّة موقفنا، عدا عن عجزنا عن تفسير سبب ذلك.

يصف سقراط الاعتقاد الصحيح، من دون وجود وعيٍ، لكيفيّة

twitter @baghdad_library

الرد بشكل عقلاني على الاعتراضات ضدّه بكونه رأيًا صحيحًا، مميّزًا إياه بصرامةٍ عن المعرفة التي لا تقتصر على فهم سبب كون الأمر صحيحًا، بل كذلك سبب كون بدائله خاطئةً. وقد شبّه صيغتَيْ الحقيقة هاتين بالأعمال الجميلة للنحّات العظيم دايدالوس. الحقيقة الناتجة عن الحدس تشبه تمثالًا منتصبًا بلا دعامات خارجيّة، يمكن للريح القويّة أن تقلبه في أيّ لحظة. أما الحقيقة المدعومة بالأسباب وبوعيٍ بشأن الحُجج المضادّة فتشبه التمثال المتجذّر في الأرض عبر أوتاد راسخة. يمنحنا المنهج السقراطيّ للتفكير طريقةً لتطوير الآراء التي يمكن لنا اعتناقها بثقةٍ فعليّةٍ، حتى لو واجهتنا العواصف.

4

في عامه السبعين، واجه سقراط إعصارًا. ثلاثة أثينيّين - الشاعر ميليتوس، والسياسيّ أنيتوس، والخطيب ليكون - اعتبروه رجلًا

غريبًا وشريرًا. ادّعوا أنه رفض عبادة آلهة المدينة، وأفسد النسيج الاجتماعيّ لأثينا عدا عن تأليب الأبناء على آبائهم. وجزموا أنّ من الواجب إسكاته، وربما قتله.

كانت مدينة أثينا قد كرّستْ إجراءات لتمييز الصح من الخطأ. في الجانب الجنوبيّ من الساحة كانت تنتصب محكمة المحلّفين، وهي عبارة عن مبنى ضخم بمقاعد خشبية للمحلّفين على جانب، ومنصّة الادّعاء والدّفاع على الجانب الآخر. وكانت المحاكمات تبدأ بخطاب افتتاحيّ للادّعاء، يليه خطاب الدفاع. ثم تقرّر هيئة المحلّفين التي يتراوح عددها بين 200 و2500 أين تكمن الحقيقة، عبر التصويت أو رفع الأيدي. وقد كانت طريقة إقرار الصح من الخطأ عبر إحصاء عدد أنصار أحد الطرحين مُستخدَمةً في جميع نواحي الحياة السياسيّة والقانونيّة الأثينيّة. مرّتان أو ثلاثًا كل شهر، كانت تتم دعوة جميع المواطنين الذكور، الذين يقارب عددهم 30000، للتجمّع على تل بنيكس جنوب غربي الساحة لاتّخاذ القرارات بشأن مسائل الدولة المهمّة عبر رفع الأيدي. وبالنسبة إلى المدينة، كان رأي الأغلبيّة يعادل الحقيقة.

كان ثمة 500 مواطن في هيئة المحلّفين يوم محاكمة سقراط. بدأ الادّعاء كلامه عبر دعوتهم للتفكير في ما إذا كان الفيلسوف الماثل أمامهم رجلًا شريرًا. كان قد شكّك في الأشياء تحت الأرض وفي السماء، كان مهرطقًا، كما لجأ إلى أدوات بلاغيّة مراوغة لجعل الحُجج الضعيفة تغلب القويّة، عدا عن كونه ذا تأثير فاسد على الشباب، حيث كان يفسدهم عن سابق إصرار عبر أحاديثه معهم. حاول سقراط الرد على الاتّهامات. فسَّرَ أنه لم يطرح يومًا نظريّاتٍ

twitter @baghdad_library

بشأن السماوات أو يشكّك بما هو تحت الأرض، كما لم يكن مهرطقًا، بل شديد الإيمان بالأمور الإلهيّة؛ لم يُقدم على إفساد شأن أثينا أبدًا – كلّ ما في الأمر أنّ بعض ذوي الشأن من أبناء الأثرياء ممّن كانوا يمتلكون وقت فراغٍ كبيرًا كانوا يقلّدون منهج تساؤلاته، ليزعجوا الأشخاص البارزين عبر إظهارهم بمظهر الجاهلين. ولو كان قد أفسد أحدًا ما، لا بدّ أن هذا حدث من دون قصد، عدا عن أنّ الإجراء الصحيح لمناقشته كان يُفترَض أن يكون الحوار الهادئ، لا قاعة المحكمة.

وأقرَّ أنه قد عاش ما يمكن اعتبارها حياةً غريبة:

> تجاهلتُ الأشياء التي تُهمّ معظم الناس – كَنْز المال، إدارة عقار، اكتساب مكانةٍ عسكريّة أو مدنيّة، وغيرها من مظاهر السلطة، أو الانضمام إلى النوادي والأحزاب السياسيّة التي تشكّلت في مدننا.

ومع ذلك، كان الدافع إلى سعيه نحو الفلسفة مجرّد رغبةٍ بسيطةٍ بتحسين حيوات الأثينيّين:

> حاولتُ إقناع كلٍّ منكم أن لا يفكّر بانتهاز الفرص العمليّة بقدرٍ أكبر من صلاحه العقليّ والأخلاقيّ.

كان التزامه بالفلسفة، كما فسّر، بأنه كان عاجزًا عن الإقلاع عن هذا النشاط حتى لو قرّرت هيئة المحلّفين أن يكون هذا شرطًا لتبرئته:

> سأتابع التحدّث بطريقتي المعتادة، «صديقي العزيز، أنت أثينيّ وتنتمي إلى مدينة تعد الأعظم والأشهر في العالم بسبب حكمتها وقوّتها. ألا تشعر بالعار لأنّك تهتمّ لكنز

أكبر قدر من المال، وكذا من السُّمعة والمكانة، من دون أن تكترث أو تفكّر بحقيقة وفهم وكمال روحك؟» ولو جادل أحدُكم، وأقرّ أنه يهتمّ بهذه الأشياء حقًا، لن أتخلّى عنه أو أهجره، بل سأسأل وأدقّق وأُخضعه للاختبار سأفعل هذا لكلّ من ألتقي به، شابًا كان أم عجوزًا، أجنبيًا أم مواطنًا.

كان قد حان دور المحلّفين الخمسمئة للبتّ بالقضيّة. وبعد مداولةٍ قصيرة قرّر 220 منهم أن سقراط غير مذنب؛ واعتبر280 أنه مذنب. ردّ الفيلسوف بسخرية: «لم أكن أظنّ أن الفارق سيكون ضئيلًا إلى هذا الحد». ولكنّه لم يفقد الثقة؛ لم يكن ثمّة تردّد أو تحفّز؛ بل حافظ على الإيمان بالمشروع الفلسفيّ الذي ثبت في نهاية المطاف أن غالبية 56 بالمئة قد أساءت فهمه.

لو لم نحافظ على رباطة جأش كهذه، وكنّا عرضةً للبكاء بعد مجرّد سماع بضع كلمات قاسية بشأن شخصيّتنا أو إنجازاتنا، قد يكون ذلك لأنّ موافقة الآخرين تشكّل جزءًا جوهريًا من قدرتنا على الاقتناع أننا على حق. لنا الحق في أخذ مخالفة الأفكار السائدة بجديّة لا لأسباب براغماتيّة، أو دواعي النجاة فحسب، بل – وعلى

twitter @baghdad_library

نحو أكثر أهميّة – لأنّ السخرية منا قد تبدو علامةً جليّةً أننا قد ضللنا عن الطريق السائد.

كان سقراط سيسلّم، على نحو طبيعيّ، أن ثمة أوقاتًا نكون فيها على خطأ ويتم دفعنا للتشكيك في آرائنا، ولكنه كان سيضيف تفصيلًا جوهريًا لتغيير إحساسنا بعلاقة الحقيقة بمخالفة الآراء السائدة: لا يمكن – ببساطة – البرهنة على وجود الأخطاء في فكرنا وطريقة حياتنا بأيّ حالٍ من الأحوال عبر واقعة أنّنا اندفعنا إلى المعارضة.

ما ينبغي أن يقلقنا ليس عدد الناس الذين يعارضوننا، بل مدى قوّة الأسباب التي تدفعهم إلى فعل هذا. ولذا ينبغي علينا تحويل انتباهنا، بعيدًا عن وجود مخالفة الآراء السائدة، باتجاه تفسير أسباب ذلك. وقد يكون من المخيف أن نسمع أنّ نسبةً عاليةً من المجتمع تعتبرنا مخطئين، ولكن قبل التخلّي عن موقفنا، لا بدّ لنا من التدقيق في المنهج الذي توصّلوا عبره إلى نتائجهم. إنّ مدى منطقيّة منهج تفكيرهم هو الذي ينبغي أن يحدّد القيمة التي سنُسبغها على معارضتهم لرأينا.

نبدو مُبْتَلين بنزعة المعارضة: أن ننصت إلى الجميع، أن تزعجنا كلّ كلمةٍ قاسيةٍ وملاحظة هازئة. ونُخفق في أن نطرح على أنفسنا السؤال الجوهريّ والأشدّ عزاءً: على أيّ أساس تمّ توجيه هذا التقريع القاسي؟ كما نتعامل، بالجديّة نفسها، مع اعتراضات الناقد الذي يفكّر بإنصافٍ ودقّة واعتراضات الناقد الذي تصرَّفَ بدافعٍ من البغض والحسد.

وعلينا أخذ ما يلزمنا من الوقت للنظر إلى ما وراء النقد. إذ، كما علّمنا سقراط، قد يكون التفكير من أساسه شديد الانحراف، بالرغم

من مدى الجهد المبذول لإخفاء هذا. إذ ربما كان منتقدونا قد تسرّعوا في نتائجهم تحت تأثير أمزجة عابرة. ربما تصرّفوا بدافعٍ من الهياج والتحامل، واستغلّوا مكانتهم لإسباغ قيمةٍ على إحساساتهم. ولعلّهم كوّنوا أفكارهم كما يفعل الخزّافون المتعجّلون قليلو الخبرة.

وللأسف، وبخلاف صناعة الخزف، من الصعب جدًا بدايةً استنباطُ نتاجٍ فكريٍّ جيّدٍ من آخر بائس. وليس من الصعب تمييز الآنية التي صنعها الحِرَفيّ الغرّ من تلك التي صنعها زميله الرزين.

twitter @baghdad_library

ومن الأكثر صعوبةً، على نحو مباشر، تحديد التعريف الأدقّ.

الشّجاعة هي قوّة التحمّل بذكاء	الرجل الذي يثبت في المعركة ويقاتل العدوّ شجاعٌ

يمكن للفكرة المفروضة سلطويًا، برغم عدم وجود دليلٍ على كيفيّة تشكّلها، أن تحمل لفترةٍ ما القيمة الكليّة لفكرةٍ منطقيّة. ولكنّنا نُظهر احترامًا في غير محلّه للآخرين حين نركّز على نتائجهم وحدها - ولذا يحثّنا سقراط على التدقيق في المنطق الذي استندوا إليه للتوصّل إلى تلك النتائج. وحتى لو كنّا عاجزين عن التملّص من عواقب المخالفة، سنتجنّب على الأقل الإحساس المُوهِن للبقاء على خطأ.

ظهرت الفكرة قبل فترةٍ من المحاكمة، خلال حديثٍ بين سقراط وبولوس، وهو معلّمُ بلاغةٍ معروف كان يزور أثينا من صقلية. كان لبولوس آراء سياسيّة فاترة كان يتوق بشدّة لإقناع سقراط بها. حاجَجَ المعلّم بعدم وجود حياة أشدّ سعادةً للإنسان، في العمق، أكثر من أن يكون دكتاتورًا، إذ إنّ الدكتاتوريّة تُتيح للمرء أن يتصرّف كما يشاء، ويرمي أعدائه في السجن، ويصادر أملاكهم، ويعدمهم.

أنصت سقراط بتهذيب، ثم ردّ بسلسلةٍ من الحُجج المنطقيّة محاولًا تبيان أنّ السعادة تكمن في فعل الخير. ولكنّ بولوس أصرّ على موقفه وأفكاره عبر الإشارة إلى أنّ الطغاة غالبًا ما يكونون مبجَّلين من أعداد كبيرةٍ من الناس. وذكر أرخلاوس، ملك مقدونيا، الذي قتل عمّه، وابن عمه، ووريثًا شرعيًا للعرش في السابعة من العمر، ليتابع تمتّعه - برغم ذلك - بدعم شعبيّ كبير في أثينا. كان

عدد محبّي أرخلاوس مؤشّرًا، كما خَلُص بولوس، إلى أنّ نظريّته بشأن الدكتاتوريّة صحيحة.

أقرّ سقراط بهدوء بالاحتمال شديد السهولة لإيجاد أناسٍ ممّن أحبّوا أرخلاوس، وبالاحتمال الأصعب بشأن إيجاد أحدٍ يناصر الرأي القائل إنّ فعل الخير يحقّق سعادة المرء: «لو أردتَ استدعاء شهودٍ يشهدون على أنّ ما أقوله خاطئ، سيكون بوسعك التأكّد أن رأيك مدعومٌ من جميع سكّان أثينا تقريبًا، أكانوا قد ولدوا هنا أو في مكان آخر»، شرح سقراط.

ستحظى – لو أحببت – بدعم نيكياس، ابن نيكيراتوس إلى جانب إخوته الذين يملكون تحت كنفهم الكثير من المناصرين باسم ديونيسوس. كما ستحظى بدعم أريستوقراتيس، ابن سكيليوس، أيضًا.. كما بوسعك استدعاء جميع رعايا بيركليس، لو أحببت، أو أيّ عائلة أثينيّة أخرى.

ولكن ما نفاه سقراط بشدّة هو أن يكون الدعم السائد لحُجّة بولوس دليلًا أوحد على صحّة الحُجّة:

> المشكلة، يا بولوس، هو أنّك تحاول أن تستخدم معي نمط التفنيد البلاغي الذي يعتقد رجال المحاكم أنه ناجح. هناك، ثمة الكثير ممّن يظنّون أنهم يبرهنون على خطأ الطرف الآخر حين يستدعون عددًا كبيرًا من الشهود البارزين لدعم حُججهم، فيما لا يكون الخصم قادرًا إلا على استدعاء شاهد واحد على الأكثر. ولكنّ نمط التفنيد هذا عديم القيمة كليًا، بما أنّ من الممكن تمامًا لأيّ أحد أن يُهزَم في المحكمة بفعل حشدٍ من الشهود ممّن لا يملكون

twitter @baghdad_library

شيئًا بخلاف الاحترام الظاهريّ، والذين تصادَفَ أنّهم شهدوا ضدّه.

لا ينبع استحقاق الاحترام الفعليّ من إرادة الأغلبيّة بل من المنطق الملائم. وحين نكون بصدد صناعة مزهريات، ينبغي أن ننصت إلى نصائح أولئك العارفين بشأن تحوّل المينا إلى أوكسيد الحديد في درجة °800؛ وحين نبني سفينة، لا بدّ أن يقلقنا رأي الخبراء بالسفن ثلاثيّة المجاذيف؛ وحين نتأمّل في المسائل الأخلاقيّة - كيف نكون سعداء وشجعانًا ومنصفين وخيّرين - يجب ألّا يغلبنا التفكير السيىء حتى لو كان صادرًا من شفاه معلّمي البلاغة، والجنرالات الأشدّاء، والأرستقراطيّين الأثرياء من ثيسالي.

بدا الأمر نخبويًا، وهو كذلك حقًا. لا يستحق الجميع الإنصات إليهم. ومع ذلك، ليس لنخبويّة سقراط أيّ أثرٍ من التبجّح أو التحامل. ربما كان يميّز بين الآراء التي يواجهها، ولكن لم يكن ذلك التمييز على أساس الطبقة أو المال، أو السجلّ العسكريّ أو الجنسيّة، بل على أساس المنطق الذي كان - كما شدّد - ملَكَةً متاحةً للجميع.

وكي نحذو حذو سقراط، علينا، حين يواجهنا النقد، أن نتصرّف كالرياضيّين الذين يتدربون من أجل الألعاب الأولمبيّة. تم استقاء المعلومات بشأن الرياضة من كتاب انظر داخل بلدةٍ يونانيّةٍ قديمة.

فلنتخيّل أننا رياضيّون. اقترح مدرّبنا تمرينًا يقوّي ربلتَيْ الساق من أجل لعبة رمي الرمح. يتطلّب منا التمرين أن نقف على ساق واحدة ونرفع الأثقال. سيبدو هذا غريبًا أمام المراقبين الخارجيّين الذين سيستهزئون ويتذمّرون من أننا نُضيع فرص نجاحنا. في المغاسل، سنسمع رجلًا يفسّر لآخر أننا (حين نكون أشدّ اهتمامًا بالتبجّح بعضلات ربلتَيْ الساق أكثر من مساعدة المدينة كي تفوز باللعبة) قساة، ولكن لن يكون ثمة داعٍ للقلق فيما لو أنصتنا إلى سقراط في حديثه مع صديقه كريتون:

> سقراط: حينما يعمد رجل ... إلى أخذ [تدريبه] على نحو جاد، هل يُعير انتباهًا إلى جميع عبارات المديح والنقد والآراء من دون تمييز، أم يقوم بذلك حصرًا عندما تصدر العبارة عن الشخص المؤهَّل وحده، الطبيب الفعليّ أو المدرّب؟
>
> كريتون: عندما تصدر العبارة عن الشخص المؤهَّل فقط.
>
> سقراط: إذًا، ينبغي أن يخشى نقد الشخص المؤهَّل ويرحّب بمديحه، وليس نقد ومديح العموم.
>
> كريتون: بالتأكيد.
>
> سقراط: ينبغي عليه تنظيم تصرّفاته وتدريباته وطعامه وشرابه وفقًا لحُكم مدرّبه، الذي يمتلك معرفة الخبير، لا وفقًا لآراء باقي الناس.

ستعتمد قيمة النقد على العمليات الفكريّة للمنتقدين، لا على عددهم أو مكانتهم:

twitter @baghdad_library

ألا تعتقد أنه من الجيّد أن لا يحترم المرء جميع الآراء البشريّة، بل بعضها فحسب... وأنّ على المرء احترام الآراء الجيّدة لا السيّئة؟ ... والآراء الجيّدة هي تلك الصادرة عن أناس ذوي فهم، أما السيّئة فتصدر عن الذين يخلون من الفهم... لذا يا صديقي، لا ينبغي لنا أن نكترث إلى هذا الحد بما يقوله العموم عنا، بل ما يقوله الخبراء في شؤون العدل والظلم.

لم يكن المحلّفون في المحكمة خبراء. كانت الهيئة تضمّ عددًا غير معتاد من العجائز ومصابي الحرب الذين يعتبرون العمل في المحكمة مجرّد مصدرٍ سهل لدخلٍ إضافيّ. كان الراتب ثلاثة أوبولات يوميًا[1]، أي أقل من أجر عامل مياوم، ولكنّه كان معقولاً بالنسبة إلى عجوز في الثالثة والستين يعاني من السأم في المنزل. كانت المعايير الوحيدة هي توفّر الجنسيّة، وعقلٍ منطقيّ- بالرغم من أنّ منطقيّة العقل لم تكن تُقيَّم وفقًا لمعاييرٍ سقراط-، وعدم وجود ديون عليه، عدا عن القدرة على المشي بخطٍّ مستقيم وتقديم اسم المرء حين يُطلب منه ذلك.

كان أعضاء هيئة المحلّفين ينامون وقت المحاكمة، ونادرًا ما كان أحدهم يمتلك خبرة في قضايا مماثلة أو قوانين ذات صلة، كما لم يكن يتم إرشادهم بشأن كيفيّة التوصّل إلى حُكم.

كانت هيئة المحلّفين في محاكمة سقراط قد جاءت محمَّلةً بتحاملات شديدة. كانوا قد تأثّروا بالصورة الكاريكاتوريّة التي رسمها أريستوفانيس لسقراط، وأحسّوا أن الفيلسوف قد لعب دورًا

---

(1) الأوبول: عملة يونانيّة قديمة كانت قيمتها تعادل سدس الدراخما. [المترجم]

في الكوارث التي حلّت على المدينة التي كانت تتميّز بالمجد في نهاية القرن. كانت الحرب البيلوبونيسيّة قد انتهت بكارثة، حيث تسبَّبَ التحالفُ الإسبارطيّ-الفارسيّ بإركاع أثينا، فحوصرت المدينة، ودُمّر أسطولها، وانهارت إمبراطوريّتها. كما انتشرت الأوبئة في المناطق الفقيرة، فيما قُمعت الديمقراطيّة تحت حُكم دكتاتوريّ كان مسؤولًا عن إعدام ألف مواطن. أما في ما يخص أعداء سقراط، فقد كان الأمر أكثر من مجرّد مصادفة أن يقضي كثيرٌ من الطغاة وقتهم مع الفيلسوف. كان كريتياس وخرميديس قد ناقشا مسائل أخلاقيّة مع سقراط، وبدا أن كلّ ما اكتسباه بالنتيجة كانت الشهوة للقتل.

ما الذي يمكن أن يكون سبب سقوط أثينا المدهش من سموّها ورفعتها؟ لمَ أُرغمت المدينة الأعظم في هيلاس، التي كانت قد هزمت الفرس قبل خمسة وسبعين عامًا في بلاتيا على الأرض وفي ميكالي في البحر، على الانتقال من ذلٍّ إلى آخر؟ بدا أنّ الرجل ذا العباءة القذرة الذي كان يتجوّل في أرجاء المدينة طارحًا أسئلة واضحة، منهمكٌ كليًا في نبش السبب.

twitter @baghdad_library

أدرك سقراط عدم وجود فرصة أمامه. بل كان يفتقر حتّى إلى الوقت اللازم للتحضير لقضيّته. لم يكن لدى المدّعى عليهم سوى بضع دقائق للتحدّث إلى هيئة المحلّفين، إلى أن تجري المياه من دورقٍ إلى آخر في ساعة المحكمة:

> أنا واثقٌ أنني لم أُخطئ بحقّ أحد عامدًا، ولكنّني عاجزٌ عن إقناعكم بهذا، لأنّنا لا نملك ما يكفي من الوقت للنقاش. لو كنتم، كما هي الحال عليه في أمم أخرى، تمنحون عدة أيام للاستماع في القضايا الكبرى ولا تقتصرون على يوم واحد، أعتقد أنكم كنتم ستقتنعون بما أقول؛ ولكن في ظلّ الظروف الحاليّة، ليس من السهل تفنيد الادّعاءات الخطيرة في وقتٍ قصير.

لم تكن قاعة المحكمة الأثينيّة منصّة لاكتشاف الحقيقة. بل كانت مواجهةً عاجلةً مع مجموعةٍ من العجائز والعاجزين الذين لم يُخضعوا آراءهم لتمحيص منطقي، بل كانوا يكتفون بانتظار جريان المياه من دورقٍ إلى آخر.

لا بدّ أنّ التفكير بهذا كان أمرًا مرهقًا، ولا بد أنّه كان يتطلّب نمط الشجاعة المتراكم عبر سنوات من تبادل الأحاديث مع المواطنين الأثينيّين العاديّين: القوّة، في ظل ظروفٍ محدَّدة، في أن لا تأخذ آراء الآخرين بجدية. لم يكن سقراط متصلّب الرأي، ولم يكن يُقصي تلك الآراء بدافعٍ من البغض الذي كان سيقوّض إيمانه بإمكانيّة التعقّل عند كلّ إنسان. كان يستيقظ فجرًا معظم حياته كي يبدأ أحاديثه مع الأثينيّين؛ وكان يعرف كيف يشغّلون عقولهم، ويرى أنهم يُحجمون عن هذا معظم الأحيان للأسف، ويأمل – برغم ذلك

- أن يفعلوها يومًا ما. وكان قد لاحظ نزعتهم لاتّخاذ المواقف بناءً على نزوات، واعتناق الآراء من دون التدقيق فيها. لم تكن العجرفة هي التي تدفعه للتمسّك بأفكاره في لحظات المعارضة الشديدة. بل كان يتمتّع بالإيمان بالذات كأيّ رجل متعقّل يُدرك أن أعداءه ميّالون إلى التفكير الخاطئ، حتى لو كان بعيدًا عن الادّعاء أن أفكاره صحيحة بالمطلق. كانت معارضتهم قد تتسبّب بمقتله؛ ولكنّها لم تدفعه لتبنّي الخطأ.

بالطبع، كان يمكن له التراجع عن فلسفته وإنقاذ حياته. حتى بعد اعتباره مذنبًا، كان يمكن له النجاة من عقوبة الإعدام، ولكنّه أضاع الفرصة بسبب العناد. لا ينبغي لنا أن نلتجئ إلى سقراط لينصحنا بشأن التملّص من حُكم الإعدام؛ بل علينا أن نعتبره مثالًا متطرّفًا عن كيفيّة الاحتفاظ بالثقة في موقف فكريّ يواجه معارضة لا منطقيّة.

وصل خطاب الفيلسوف إلى خاتمة عاطفيّة:

> لو حكمتم عليّ بالموت، لن تجدوا من يحلّ محلّي بسهولة. في الحقيقة، لو كان لي التحدّث بطريقةٍ هازئة بعض الشيء، لقد ارتبطتُ حرفيًا بإله مدينتنا، كما لو كان حصانًا أصيلًا ضخمًا يُضطر بسبب حجمه إلى أن يكون كسولًا ومحتاجًا لتحريض ذبابةٍ مزعجة... لو اتّبعتم نصيحتي ستنقذون حياتي. وأشك، مع ذلك، أنكم ستستيقظون من سباتكم في وقت قريب، وستلتجئون بفعل انزعاجكم إلى نصيحة أنيتوس لتُنهوا حياتي بضربة واحدة؛ ثم ستعاودون سباتكم.

لم يكن مخطئًا. إذ عندما طلب القاضي حُكمًا ثانيًا نهائيًا،

twitter @baghdad_library

صوَّتَ 360 عضوًا من هيئة المحلّفين لصالح إعدام الفيلسوف. عاد المحلَّفون إلى منازلهم؛ فيما أُودع المحكوم عليه في السجن.

5

لا بدّ أنّ الليل كان حالكًا وثقيلًا، وأنّ الأصوات المنبعثة من الشارع كانت تتضمّن ملاحظات ساخرة من الأثينيّين الذين يترقّبون نهاية المفكّر ذي وجه الإله ساتير. كان سيُعدَم مباشرةً لو لم يتزامن الحُكم مع الرحلة الأثينيّة السنويّة إلى ديلوس والتي لا يجوز خلالها قتل أحد، كما تنصّ التقاليد. كانت طبيعة سقراط الخيّرة قد جذبت آمر السجن الذي خفّف وطأة أيام سقراط الأخيرة حين سمح له باستقبال الزوّار. جاء عدد كبير منهم: فايدون، كريتون، كريتوبولوس ابن كريتون، أبولودوروس، هيرموجينيس، إبيجينيس، أيسخينيس، أنتستينيس، كتيسيبوس، مينيكسينوس، سيمياس، سبياس، فايدونداس، إقليدس، تيربسيون. وقد عجزوا عن إخفاء أسفهم لرؤية رجلٍ، لم يُظهر إلا كلّ عطفٍ واهتمام تجاه الآخرين، يترقّب نهايته كأيٍّ مجرم.

وبالرغم من أنّ لوحة دافيد أظهرتْ سقراط محاطًا بأصدقاء منهَكين، لا بد أنّ نتذكّر أنّ إخلاصهم كان أشبه بجزيرةٍ في بحرٍ من سوء الفهم والكراهية.

وبهدف مواجهة المزاج الذي كان في السجن، وتقديم شيءٍ من التنوّع، كان ينبغي على ديدرو حثّ بعضٍ من الرسّامين المرشّحين لتصوير لحظة احتساء السم كي يُظهروا مشاعر الأثينيّين الآخرين بشأن فكرة موت سقراط - والتي كانت ستنتج في لوحات بعناوين مثل: خمسة حرّاس يلعبون الورق بعد يوم المحاكمة، أو المتَّهِمون يُنهون عشاءهم ويتوقون للنوم. وربما كان رسّامٌ ميّالٌ إلى الجو المأساويّ سيختار عنوانًا لهذه المشاهد: موت سقراط.

عندما حلّ اليوم الموعود، كان سقراط وحيدًا غارقًا في الهدوء. تمّ جلب زوجته وأطفاله الثلاثة لرؤيته، ولكنّ صيحات زنتيب كانت شديدة الهستيريّة، لذا طلب منهم سقراط إخراجها. كان أصدقاؤه أكثر هدوءًا برغم حزنهم العميق. حتّى آمر السجن، الذي كان قد شهد كثيرين يتّجهون إلى حتفهم، أحسّ برغبةٍ لقول وداعٍ غريب:

> في الأيام التي قضيتَها هنا، أدركتُ أنك أكرم وألطف وأفضل رجلٍ مرّ في هذا المكان وأنتَ تعلم الرسالة التي سأنقلها: وداعًا إذًا، وحاول مواجهة المحتوم بأشدّ ما يمكنك من يُسْرٍ. ثم استدار دامع العينين وغادر.

ثم جاء الجلّاد حاملًا كوبًا من الشّوكران المسحوق:

> عندما رآه سقراط، قال: «حسنًا يا صديقي، أنت خبيرٌ في هذه الأمور: ما الذي ينبغي على المرء فعله؟» فأجابه: «اشربه فحسب، وامشِ إلى أنّ تُحس ثقلًا في ساقيك؛

twitter @baghdad_library

استلقِ حينئذٍ، واترك السم يتابع عمله». ثم قرّب الكوب من سقراط. أمسكه سقراط بهدوء تام... من دون ارتعاشةٍ أو أيّ تبدّل في لونه أو محيّاه... وضع الكوب على شفتيه واحتسى السمّ بمزاجٍ رائق من دون أيّ انزعاجٍ من طعمه. حتى هذه اللحظة، كان معظمنا قادرًا على كبح دموعه على نحو كبير [يتابع فايدون كلامه]؛ ولكن حين شاهدناه وهو يشرب، وأنه احتسى السمّ فعليًا، لم نعد نقوى على الاستمرار. بالنسبة لي، انهمرت الدموع من عينيّ رغمًا عنّي ... وأمامي، تحرّك كريتون مبتعدًا لأنه كان عاجزًا عن كبح دموعه. أما أبولودوروس، الذي كان غارقًا في دموعه أساسًا، فانفجر في عاصفةٍ من البكاء والأسى، بحيث دَفَعَ كلَّ من كان حاضرًا إلى الانكسار باستثناء سقراط نفسه.

ناشَدَ الفيلسوف رفاقه كي يهدّؤوا أنفسهم – «يا له من سلوك يا أصدقائي الغريبين!» قال ساخرًا – ثم وقف وتجوّل حول الزنزانة كي يأخذ السمّ مفعوله. وعندما بدأت ساقاه بالثقل، استلقى على ظهره، فتلاشى الإحساس من قدميه وساقيه؛ ومع اندفاع السمّ إلى الأعلى ليصل صدره، بدأ يفقد الوعي تدريجيًا. أصبح تنفّسه بطيئًا. وما إن رأى عيني صديقه المقرّب وقد جحظتا، اقترب كريتون وأغلقهما:

وكذا كانت [يقول فايدون]... نهاية رفيقنا الذي بوسعنا القول إنه كان، من بين جميع من عرفناهم آنذاك، الأكثر شجاعةً وحكمةً واستقامةً.

من الصعب أن لا يبدأ المرء البكاء. وربما لأن سقراط – كما

يقال – كان برأس ضخمةٍ وعينين جاحظتين، أعاد لي مشهد موته ذكرى ظهيرةٍ كنت أبكي فيها وأنا أشاهد فيلم الرجل الفيل.

بدا لي أن كلا الرجلين قاسَيا واحدًا من أشدّ المصائر بؤسًا – أن تكون خيّرًا، وتُعتبر، برغم هذا–، شريرًا. ربما لم نتعرّض للسخرية بسبب تشوّه جسديّ، أو يُحكَم علينا بالموت بسبب عملنا، ولكن ثمّة ما هو كونيٌّ في سيناريو أن تتم إساءة فهمك حيث تكون هذه القصص أمثلةً نموذجيةً مأساويةً. تكتنف الحياةَ الاجتماعيّةَ ضروبٌ من التباين بين وجهات نظر الآخرين عنّا وبين حقيقتنا. نُتَّهم بالغباء حين نكون حريصين. ويُعتبَر خجلنا عجرفةً، ورغبتنا بالإسعاد تملّقًا. ونناضل كي نوضح سوء الفهم، ولكنّ حناجرنا تُبَحّ، فيما تكون الكلمات الناتجة هي غير ما نعنيه حقًا. يُنصَّبُ أعداؤنا اللدودين في مواقع يحكموننا فيها، فنُوضَع في محل اتّهام أمام الآخرين. في الكراهية الموجَّهة بإجحاف نحو فيلسوف بريء، نميّز صدًى للأذى الذي نواجهه نحن على أيدي أولئك الذين يكونون عاجزين أو غير راغبين بالتعامل معنا بعدل.

ثمة خلاصٌ في هذه القصة أيضًا. بعد موت الفيلسوف بفترة

twitter @baghdad_library

وجيزة، بدأ المزاج بالتغيّر. نقل لنا إيسوقراط أن الجمهور الذي كان يشاهد مسرحيّة بالاميديس ليوريبيديس انفجروا بالبكاء عندما ذُكر اسم سقراط؛ وقال ديودوروس إنّ متّهِميه أُعدموا على يد سكّان أثينا في نهاية الأمر. ويخبرنا بلوتارك أن الأثينيين تدرّجوا في كراهية المتّهِمين بحيث رفضوا الاستحمام معهم، وقاطعوهم اجتماعيًا إلى أن انتحروا شنقًا بعد أن أصابهم اليأس. ويروي ديوجانيس اللايرتي أن المدينة - بعد فترة وجيزة من وفاة سقراط - حكمت على ميليتوس بالموت، ونفت أنيتوس وليكون، وبنت تمثالًا برونزيًا نفيسًا لسقراط نحته ليسيبوس العظيم.

كان الفيلسوف قد تنبّأ أن أثينا سترى الأمور كما رآها هو في نهاية المطاف، وهذا ما حدث. قد يكون من الصعب تصديق خلاصٍ كهذا. إذ إننا ننسى أنّ الزمن قد يكون مطلوبًا كي تتلاشى التحاملات ويبهت الحسد. وتشجّعنا القصة على تفسير مخالفتنا للآراء السائدة بمعزل عن النظرات الساخرة للمحلّفين المحليّين. حُكم سقراط على يد 500 رجل ذوي ذكاء محدود كانوا يحملون شكوكًا غير عقلانيّة لأنّ أثينا كانت قد خسرت الحرب البيلوبونيسيّة، عدا عن أنّ المدّعى عليه بدا غريبًا. ومع ذلك، حافظ على إيمانه بأحكام المحاكم الأوسع. ومع أنّنا نعيش في مكان واحد وزمان واحد، قد نتمكّن - عبر هذا المثال - من وضع أنفسنا على نحو متخيَّل في أراضٍ وعصورٍ أخرى تبشّر أنها ستحكم علينا بموضوعيّة أكبر. قد لا نُقْنع المحلّفين المحليّين بإنقاذ أنفسهم في الوقت الملائم، ولكن يمكن أن تعزينا الاحتمالاتُ التفاؤليّةُ لأحكام الأجيال القادمة.

ومع ذلك، ثمة مجازفةٌ أن يحرّكنا موت سقراط لأسباب خاطئةٍ. إذ

قد يعزّز إيمانًا عاطفيًا بصلةٍ قويةٍ بين أن تكون مكروهًا من الأغلبيّة وأن تكون على حق. قد يكون قَدَر العباقرة والقدّيسين أن يعانوا من حالات سوء فهم مبكّرة، ثم يُكرَّس لهم تمثالٌ برونزيٌّ على يد ليسيبوس. قد لا نكون عباقرة أو قدّيسين. وقد نكتفي - ببساطة - برفع شأن موقف التحدّي فوق الأسباب الموجبة له، واثقين على نحو صبيانيّ أننا لن نكون على حقّ فعلًا إلا إذا اعتبرنا الآخرون أننا على خطأ.

لم تكن تلك غاية سقراط. وقد يكون من السذاجة الجزم أنّ مخالفة الآراء السائدة مرادفةٌ للحقيقة، أو أنّها مرادفةٌ للخطأ. لا تتحدّد صحّة فكرةٍ أو فعلٍ إذا كانت مُعتنَقةً أو مذمومةً على نحو واسع، بل إذا كانت تُوافقُ قواعد المنطق. ولا يُعتبَر الحُكم خاطئًا إذا رفضته الأغلبيّة، وكذا لا يُعتبَر صحيحًا، كما يظنّ الشغوفون بالتحدّي البطوليّ.

يُرينا الفيلسوف طريق النجاة من وهمَيْن شديدين: أن ننصت دومًا، أو أن لا ننصت أبدًا، إلى إملاءات الرأي السائد.

ولكي نحذو حذوه، سنفوز حتمًا لو سعينا - بدلًا من هذا - إلى الإنصات دومًا إلى إملاءات العقل.

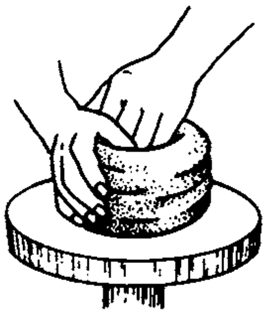

twitter @baghdad_library

II

العزاء

بشأن الافتقار إلى المال

twitter @baghdad_library

1

السعادة، لائحة ممتلكات

1. منزل نيو-كلاسيكيّ على الطراز الجورجيّ في قلب لندن (بارادايس ووك، ساحة ماركام)، كنغستن (القسم الجنوبيّ من طريق كامبدن هل، شارع هورنتن)، هولاند بارك (طريق أوبري). بحسب المظهر، يبدو مشابهًا للواجهة الأماميّة للجمعيّة الملكيّة للفنون التي صمّمها الإخوة آدم [جون، روبرت، جيمس] (1772 - 1774). وبهدف التقاط الضوء الشاحب لمساءات لندن، جُهّزت النوافذ الفينيسيّة بأعمدة من الطراز الأيونيّ (وبمثلّث سقفيّ مقوَّس مزخرف بأزهار).

في صالة الطابق الأول، ثمة سقف ومدفأة يشبهان تصميم روبرت آدم لمكتبة بيت كينوود.

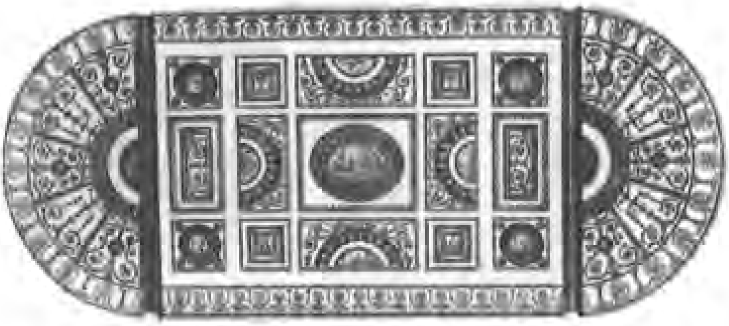

2. طائرة واقفة في فارنبورو أو بيغن هل (من نوع داسولت فالكون 900 سي، أو غلفستريم IV) مع معدّات إلكترونيّة مجهَّزة للطيّار المرتبك، ومنظومة تحذير بشأن الاقتراب من الأرض، ورادار لالتقاط الشغب، وطيّار آليّ من نوع كات II. عند الذيل الخلفيّ، وبهدف استبدال الخطوط الاعتياديّة، ثمة تفصيل من الطبيعة الصامتة، عبارة عن سمكة من رسم فيلاسكيز، أو ثلاث ليمونات من رسم سانشيز كوتان من مجموعة فاكهة وخضار في متحف برادو.

3. فيلا أورسيتي في منطقة ماركيا قرب مدينة لوكا. تطلّ غرفة النوم على المياه وأصوات النوافير. في القسم الخلفيّ من المنزل، ثمة شجيرة ماغنوليا ديلافايي تعرّش على الجدار، وترّاس شتائيّ، وشجرة كبيرة مخصّصة للاستراحة في فصل الصيف،

twitter @baghdad_library

ومرج عشبيّ للألعاب. وحدائق مسقوفة لزراعة التين والدرّاق. ومساحات لأشجار السرو، وصفوف من أزهار الخزامى، وأشجار البرتقال، وبستان زيتون.

4. مكتبة عامة تضمّ مكتبًا ضخمًا، وشيمينيه مدفأة، وإطلالة على الحديقة. طبعات أولى تعبق بالرائحة المنعشة للكتب القديمة، الصفحات صفراء وخشنة الملمس. فوق الرفوف، تماثيل نصفيّة لمفكّرَيْن عظيمَين، وعدد من الكرات الأرضيّة. تصميم المكتبة يشابه تصميم أحد منازل وليم الثالث ملك هولندا.

5. غرفة طعام تشبه تلك الموجودة في بلتون هاوس في لنكولنشير.

طاولة من خشب السنديان تتسع لاثني عشر شخصًا من أفراد العائلة ومثلهم من الأصدقاء. الأحاديث فكريّة ولكنْ ممتعة. مفعمة بالمشاعر دومًا. طبّاخ خبير، وكادر منتقى بعناية لتذليل أيّة مشكلات إداريّة (الطبّاخ ماهرٌ في صنع بان-كيك اليقطين، وباستا التاغلياتللي مع الكمأ الأبيض، وحساء السمك، وطبق الريزوتو، وطائر السمّان، وسمك جون دوري، والدجاج المحمَّر). وثمة صالة صغيرة للشاي والشوكولا

6. سرير صُمّم ليتّسع في كوّة في الجدار (يشبه السرير الذي صمّمه جان-فرانسوا بلونديل في باريس). ملاءات منشّاة تُبدّل كل يوم، لتكون ناعمةً على الوجنة. السرير ضخم؛ أصابع القدمين لا تمسّان نهاية السرير؛ يتقلّب المرء كيفما يشاء. خزائن صغيرة في الجدار للماء والبسكويت، وخزانة أخرى للتلفزيون.

7. حمّام واسع مع بانيو في المنتصف، على منصّة مرتفعة، مصنوع من الرخام مع زخارف من الكوبالت الأزرق على شكل أصداف. صنابير يمكن تشغيلها بالقدم وحدها فيتدفّق الماء في جدول لطيف قويّ. ضوء السماء يمكن التقاطه من الحمّام. أرضيّات من الجير المسخّن. على الجدران، رسومات تُحاكي

twitter @baghdad_library

الرسوم الجداريّة الموجودة في فناء معبد إيزيس في مدينة بومبييه القديمة.

8. مالٌ يكفي المرء كي يعيش أقصى حالات الرفاه.
9. وفي العطل، ثمة شقّة على السطح عند حافّة جزيرة إل دو لا سيتي، مجهَّزةٌ بقطع من الأثاث الفرنسيّ من الحقبة الأجمل (والحُكم السياسيّ الأضعف)، حُكم لويس السادس عشر. كومودينو على شكل نصف قمر من تصميم غروفينش، كونسول من تصميم سونييه، مكتب نهاريّ من تصميم فاندركروز-لا كروا. صباحات كسولة لقراءة مجلة باريسكوب في السرير، وتناول معجّنات الشوكولا في أطباق من خزف مدينة سيفر، والتحدّث بشأن العيش مع نموذج من لوحة السيّدة لجيوفاني بيلليني (من معرض أكاديميّة فينيسيا)، ومناكفته، بما أنّ التعبير الكئيب على وجهها قد يثير إحساسًا جافًا من المرح والعفويّة - حيث يرتدي الناس ملابس من تصميم آغنيس بي وماكس مارا للنزهات في جادة ماريه.

2

مختلفًا عن أخويّةٍ عادةً ما تكون متزمّتةً وكارهةً للمتعة، كان ثمة فيلسوف بدا أنه قد أدرك الأمر وأراد المساعدة. «لا أعلم الطريقة التي سأدرك فيها الخير، لو أقصيت لذائذ التذوّق، ولذائذ الجنس،

twitter @baghdad_library

ولذائذ السمع، والمشاعر اللطيفة التي تحفزها رؤية الأشكال الجميلة»، كتب ذات يوم.

ولد أبيقور عام 341 ق. م في جزيرة ساموس الخضراء التي تبعد عدة أميال عن ساحل القسم الجنوبيّ الغربيّ من آسيا. اهتمّ بالفلسفة باكرًا، وسافر في عمر الرابعة عشرة لحضور دروس الفيلسوف الأفلاطونيّ بامفيلوس والفيلسوف الذرّي نوسيفانيس. ولكنّه أدرك عدم قدرته على الموافقة على كثير مما علّموه، فقرر في نهاية عشريناته تنظيم أفكاره بحيث يؤسّس فلسفته الخاصة للحياة. قيل إنه ألّف 300 كتاب في جميع المجالات تقريبًا، من بينها كتبٌ عن الحب، وعن الموسيقا، وعن التعامل العادل، وكتاب عن الحياة البشريّة (في أربعة أجزاء)، وآخر عن الطبيعة (في سبعة وثلاثين جزءًا)، ولكن بسبب سلسلةٍ من الحوادث المؤسفة، ضاعت معظم هذه الأعمال عبر القرون، لتتم إعادة تجميع فلسفته عبر شذرات قليلة باقية، إضافة إلى شهادات الأبيقوريّين الآخرين.

ما ميَّز فلسفته مباشرةً كان تأكيده على أهميّة اللذة الحسّية: «اللذة هي منطلق وغاية الحياة السعيدة»، أكّد أبيقور، مشدّدًا على ما فكّر به كثيرون، ولكن نادرًا ما كانت الفلسفة تقبله. أقرّ الفيلسوف بعشقه للطعام الممتاز: «منطلقُ وجذرُ كلِّ خيرٍ هو لذّة المعدة. حتى الحكمة والثقافة ينبغي إخضاعهما لهذا المبدأ». إذ الفلسفة الممارَسة على نحو ملائم ليست سوى دليلٍ إلى اللذة:

> فالإنسان الذي يدّعي عدم استعداده للفلسفة بعد، أو أنّ الوقت قد فات على هذا، يشبه الإنسان الذي يقول إنّه صغيرٌ جدًا أو كبيرٌ جدًا على السعادة.

قلةٌ هم الفلاسفة الذين صرّحوا باعترافات صارخةٍ إلى هذا الحد بشأن رغبتهم بنمط حياة قائم على اللذة. هذا صدم كثيرين، بخاصة حين سمعوا أنّ أبيقور اجتذب دعم بعض الأثرياء، بدايةً في لامبساكوس في الدردنيل، ثم في أثينا، وقد استثمر أموالهم لإنشاء مؤسسة فلسفيّة تنشر السعادة. كانت المدرسة تقبل الجنسين، وتشجّعهم على عيش اللذة ودراستها معًا. وقد بدت الفكرة بشأن ما يحدث في المدرسة مدغدغةً للمشاعر ومرفوضةً أخلاقيًا في آن.

كان ثمة تسريبات تَرِد أحيانًا على لسان أبيقوريّين ساخطين تروي بالتفصيل ما يحدث من نشاطات بين المحاضرات. نشر تيموقراطس، وهو شقيق مترودوروس شريك أبيقور، شائعة أن أبيقور كان يتقيّأ مرتين يوميًا بسبب نهمه للطعام. وقام ديوتيموس الرواقيّ بخطوةٍ فظّة حين أقدم على نشر خمسين رسالة خليعة ادّعى أن أبيقور كتبها حين كان مخمورًا ومنتشيًا بعد الجنس.

وبالرغم من هذه الانتقادات، استمرّت تعاليم أبيقور باجتذاب الدعم. إذ انتشرت في منطقة البحر المتوسّط؛ حيث أُسّست مدارس للذّة في سوريا، وجودايا، ومصر، وإيطاليا، والغال؛ وبقي تأثير

twitter @baghdad_library

الفلسفة طاغيًا مدة 500 عام، حيث بدأ يتلاشى تدريجيًا بفعل صرامة الهمجيّين والمسيحيّين إبّان فترة سقوط الإمبراطورية الرومانيّة في الغرب. ومع هذا، دخل اسم أبيقور في كثير من اللغات بصيغة النعت للدلالة على من يهتمّ بمنفعته الشخصيّة (بحسب قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزيّة: «أبيقوريّ: هو الشغوف بالسعي وراء اللذة؛ أي، المترف، الشهوانيّ، الشره»).

أثناء تصفحي للمجلات في كشكٍ لبيع الجرائد في لندن بعد 2340 عام من ولادة الفيلسوف، عثرتُ على نسخ من مجلة أبيقوريان لايف [الحياة الأبيقوريّة]، وهي مجلّة فصليّة تهتمّ بالفنادق، واليخوت، والمطاعم، وتُطبَع على ورقٍ صقيلٍ لمّاع كتفّاحةٍ ممسوحةٍ بعناية.

وتتجلّى النزعة الأبيقوريّة على نحوٍ أكبر في الأبيقوريّ، وهو مطعم في بلدةٍ صغيرة في منطقة وورستيشر، يقدّم لزبائنه الجالسين في كراسٍ مرتفعة الظهر في غرفة طعام هادئة وجبات عشاء من الأسكالوب البحريّ الهشّ، وريزوتو فطر السِّبْ مع الكمأ.

3

يبيّن تناغم التداعيات التي تثيرها فلسفة أبيقور عبر العصور، من ديوتيموس الرواقيّ إلى محرّري مجلة أبيقوريان لايف، إلى الطريقة التي تبدو فيها مفردة «لذّة» واضحة الدلالات حالَ نطقها. «ما الذي أحتاج إليه من أجل حياة سعيدة؟» لن يكون سؤالًا ذا أهميّة عندما لا يكون المال موجودًا. ومع ذلك، ستكون الإجابة عن سؤال «ما الذي أحتاج إليه من أجل حياة صحّية؟» أكثر صعوبة عندما نكون مُبتَلين، مثلًا، بصداعات متكرّرة غريبة أو خفقان حادّ في منطقة المعدة بعد الوجبات المسائيّة. نعلم أن هناك مشكلة؛ ولكن من الصعب معرفة الحل.

في حالة الألم، يميل الذهن إلى التفكير في عدة علاجات غريبة: فصد الدم، الحجامة، حساء نبات القرّاص، ثقب الجمجمة. ألم شنيع يتركّز في الصّدغين وقحف الرأس، كما لو أنّ الجمجمة بأكملها قد وُضعت في كمّاشة وعُصرت. يبدو الرأس وكأنه على وشك الانفجار. وما يبدو ضروريًا في الحال، كما سيسارع الحدس

twitter @baghdad_library

لتنبيهنا، هو أن نسمح بدخول بعض الهواء في الجمجمة. سيطلب الشخص المتألّم من صديقٍ أن يضع رأسه على طاولة ويحفر ثقبًا صغيرًا على الجانب. وسيموت بعد عدة ساعات بسبب نزيف دماغيّ.

عادةً ما تُعتبَر استشارة الطبيب نصيحةً، برغم الجو الكئيب المخيّم على كثيرٍ من غرفة انتظار الأطباء، لأنّ هذا يعود إلى أنّ الشخص الذي فكّر على نحو عقلانيّ وعميق بشأن آلية عمل الجسد سيتوصّل على الأرجح إلى أفكار جيّدة بشأن كيفيّة الحفاظ على الصحة أكثر من شخص آخر اتّبع الحدس فحسب. يستلزم الطب ضمنًا تسلسليّةً هرميّةً بين الارتباك الذي سيحتلّ الشخص العاديّ بشأن سبب علّته، والمعرفة الأكثر دقّة التي يمتلكها الأطباء الذين يفكّرون بمنطقيّة. ولا بد للأطباء من أن يعوّضوا افتقار مرضاهم إلى المعرفة الذاتيّة بأجسادهم في الحالات الحرجة.

في قلب الأبيقوريّة تتركّز الفكرة القائلة إنّنا سنكون طائشين عند الرد على نحو حدسيّ على سؤال «ما الذي يجعلني سعيدًا؟» كما لو أنّه هو سؤال «ما الذي يجعلني بصحة جيّدة؟». فالإجابة التي ترد إلى الذهن على نحو عاجل تميل عادةً إلى أن تكون خاطئة. ولا تُظهر أرواحنا عللها على نحو أكثر وضوحًا من أجسادنا، ونادرًا ما تكون تشخيصاتنا الحدسيّة أكثر دقّة. قد يبدو ثقب الجمجمة رمزًا لمصاعب فهم ذواتنا السيكولوجيّة بالقدر ذاته الذي تكون عليه صعوبة فهم ذواتنا الفيزيولوجيّة.

قد يشعر شخص ما بالسخط. وهو يعاني من صعوبة في الاستيقاظ صباحًا، فيكون نكدًا وفظًا في التعامل مع عائلته. على نحو حدسيّ، سيسارع إلى وضع اللوم على مهنته ويبدأ البحث عن عمل بديل برغم التكاليف الباهظة لفعل كهذا. ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي ألجأ فيها إلى النظر داخل بلدة يونانيّة قديمة.

بائع سمك إسكافيّ حدّاد

مقرّرًا بسرعة أنه سيكون سعيدًا في حرفة بيع الأسماك، اشترى الرجل شبكةً وكرسيًا باهظ الثمن من السوق. ومع هذا، لم يهدأ اكتئابه.

twitter @baghdad_library

غالبًا ما نكون، كما يقول الشاعر الأبيقوريّ لوكريتيوس، مثل «مريضٍ يجهل سبب علّته». ولذا نلجأ إلى الأطباء لكونهم يفهمون عللنا الجسديّة أفضل منا. وينبغي أن نلجأ إلى الفلاسفة للسبب ذاته عندما تكون روحنا عليلة - ونحكم عليهم وفقًا لمعيار مماثل:

> كما لا يكون للطب أيُّ نفع عندما لا يتخلّص من العلّة الجسديّة، ستكون الفلسفة غير ذات نفع إن لم تتخلّص من معاناة العقل.

كان واجب الفلسفة، بحسب أبيقور، مساعدتنا على تأويل نوبات اليأس والرغبة الغامضة التي تعترينا، وبذا تنقذنا من النماذج الخاطئة للسعادة. ينبغي علينا الامتناع عن أيّ تصرّف في النوبات الأولى، لنعمد - بدلًا من ذلك - إلى تمحيص عقلانيّة رغباتنا وفقًا لمنهج مساءلةٍ قريب من ذاك الذي استخدمه سقراط في تقييم التعريفات الأخلاقيّة قبل أكثر من مئة عام. وعبر تقديم ما يمكن أن يبدو أحيانًا تشخيصات ضدّ-حدسيّة لعللنا، ستقوم الفلسفة - كما يعدنا أبيقور - بإرشادنا إلى علاجات أرقى، وإلى السعادة الحقّة.

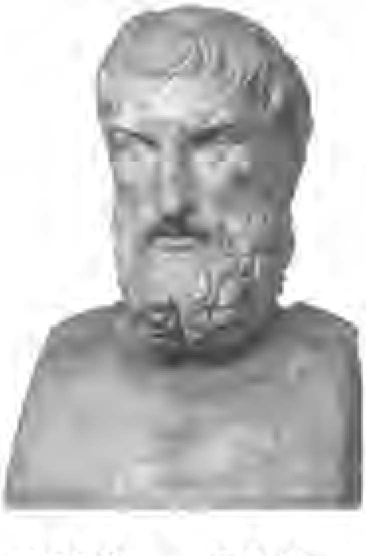

أبيقور 341 ق. م - 270 ق. م

4

لا بد أنّ مَنْ سمعوا الشائعات قد صُدموا عند اكتشاف الميول الفعليّة لفيلسوف اللذة. لم يكن ثمة منزل كبير. كان الطعام بسيطًا، وكان أبيقور يشرب الماء لا الخمر، ويستمتع بعشاءٍ من الخبز والخضار وبضع زيتونات. «أرسل لي قِدرًا من الجبنة كي أُقيم وليمةً حين أرغب بذلك»، طلب من صديقه.

تلك كانت ميول رجلٍ اعتبر اللذّة غاية الحياة. لم يكن ينوي الخداع. كان إخلاصُه للذّة أكبر بكثيرٍ مما قد يتخيّله الذين اتّهموه بإقامة حفلات جنس جماعيّ. إذ بعد التحليل العقلانيّ، توصَّلَ إلى عدّة خُلاصات مدهشة بشأن ما يجعل الحياة ممتعةً حقًا - ولحسن حظ من يفتقرون إلى دخلٍ ماليّ كبير، بدا أن العناصر الجوهريّة للذّة لم تكن باهظة جدًا، بصرفً النظر عن ماهيّتها.

السعادة، لائحة ممتلكات أبيقوريّة

1. الصداقة

بعد عودته إلى أثينا عام 306 ق. م، في سن الخامسة والثلاثين، شرع أبيقور بترتيبات منزليّة غريبة. عثر على منزل كبير على بعد عدة أميال من مركز أثينا، في جادّة ميليت بين السوق وميناء بيرايوس. انتقل للسكن فيه مع مجموعة أصدقاء. انضمّ إليه مترودوروس وأخته، وعالم الرياضيّات بوليانوس، وهرماركوس، وليونتيوس وزوجته ثيميستا، وتاجر يُدعى إيدومينيوس (الذي تزوّج أخت مترودوروس بعد فترة وجيزة). كان ثمّة متّسع في المنزل كي يحظى

twitter @baghdad_library

كلٌّ من الأصدقاء بغرفةٍ خاصة، وكان ثمة غرف مشتركة لتناول الطعام وتبادل الأحاديث.

أشار أبيقور:

> من بين جميع الأشياء التي تمنحها الحكمة لتساعد المرء على عيش حياةٍ كاملةٍ مليئة بالسعادة، يُعتبر امتلاكُ الأصدقاء أعظمَها على الإطلاق.

كذا كان ولاء أبيقور للرفقة الودودة، لذا أوصى أنّ على المرء أن يحاول أن لا يأكل بمفرده أبدًا:

> قبل أن تأكل أو تشرب أيّ شيء، فكّر مليًّا بمن ستأكل وتشرب معه لا بما ستأكله أو تشربه: إذ إنّ تناول الطعام من دون رفيق يشبه حياة الأسد أو الذئب.

كان منزل أبيقور يشبه منزل عائلة كبيرة، ولكن من دون نكد أو إحساس بالضيق، ليس هناك سوى التعاطف واللطف.

لن نكون موجودين ما لم يكن ثمّة أحدٌ يرى أننا موجودون، وما نقوله لا معنى له ما لم يفهمه أحد، وأن نكون محاطين بأصدقاء يعني حتمًا تأكيدًا لهويّتنا؛ إذ إنّ لمعرفتهم واهتمامهم بنا القوّة لجذبنا من لامبالاتنا. من خلال تعليقات صغيرة، يكون كثير منها مناكفة، يبيّنون لنا أنهم يعرفون نقاط ضعفنا ويتقبّلونها، وبذا فهم يتقبّلون - بالتالي - حقيقة امتلاكنا لمكان في هذا العالم. بوسعنا سؤالهم «أليس مخيفًا؟» أو «هل شعرتَ يومًا ...؟» فيفهموننا، بدلًا من مواجهة الإجابة المحيّرة «لا، ليس تمامًا» - التي ستجعلنا نحسّ بالوحدة كالمستكشفين في القطب الشماليّ، حتى حين نكون محاطين بالرفاق.

لا يقوم الأصدقاء الحقيقيّون بتقييمنا تبعًا لمعايير دنيويّة، بل إنّ جوهر الذات هو ما يهتمّون به؛ مثل والدَيْن مثاليّين، يبقى حبّهم لنا غير متأثّر بمظهرنا أو مكانتنا في الهرميّة الاجتماعيّة، وبذا لن نخشى ارتداء ملابس قديمة أو الاعتراف أننا جمعنا مبلغًا ضئيلًا هذا العام. ولا يجب - ربما - أن تُعتبَر الرغبة بالمال دومًا مجرّد نهمٍ للحياة المترفة، إذ قد يكون ثمة دافع أكثر أهميّة وهو الرغبة أن يتمّ تقييمنا ومعاملتنا بلطف. قد نسعى إلى ثروة من دون أن تتجاوز أسبابنا لذلك ضمانَ احترامِ وانتباهِ الناس الذين كانوا سيتجاهلوننا في حالات أخرى. أكّد أبيقوَر، مدركًا حاجتنا الضمنيّة، أنّ مجموعة صغيرة من الأصدقاء الحقيقيّين قد تمنحنا الحب والاحترام اللذين قد تعجز الثروة عن منحهما.

2. الحريّة

قام أبيقور وأصدقاؤه بمبادرة راديكاليّة ثانية. كي لا يضطروا للعمل لدى أناس لا يستسيغونهم، ومواجهة نزوات مُهينة محتمَلة، أقصوا أنفسهم عن العمل في العالم التجاريّ لأثينا («يجب أن نحرّر أنفسنا من قيد الشؤون والسياسة اليوميّة»)، وبدأوا ما يمكن توصيفها بكونها كومونة، راضين بأبسط مظاهر الحياة مقابل الاستقلاليّة. كانوا سيفتقرون إلى المال ولكنّهم لن يضطرّوا مجددًا إلى الخضوع لإملاءات الناس البغيضين الذين يفوقونهم مكانةً.

لذا اشتروا حديقةً قرب منزلهم، بالقرب من بوابة ديبيلون القديمة، وزرعوا أصنافًا متنوّعةً من الخضار لأجل طعامهم، مثل البليتون (الملفوف)، والكروميون (البصل) والكينارا (وهو سَلَف الأرضي شوكي الحاليّ، حيث القسم السفليّ هو الصالح للأكل

twitter @baghdad_library

وليس الأوراق الحرشفيّة). لم يكن نظامهم الغذائيّ مترفًا أو باهظ التكلفة، ولكنّه كان متنوّعًا ومغذّيًا. وكما شرح أبيقور لصديقه مينوشيوس، «لا يعمد [الحكيم] إلى انتقاء النوعيّة الأفضل من الطعام، بل الأكثر لذّة».

لا تؤثّر البساطة على تقييم الأصدقاء للمكانة لأنهم، عبر إقصاء أنفسهم عن قيم أثينا، أحجموا عن الحُكم على أنفسهم تبعًا للأساس الماديّ. لم تكن ثمة حاجةٌ للشعور بالحرج بسبب الجدران العارية، أو منفعةٌ من التّباهي بالذهب. إذ بين مجموعة من الأصدقاء الذين يعيشون خارج نطاق المركز السياسيّ والاقتصاديّ للمدينة، لم يكن ثمة أدنى داعٍ للتباهي - بالمعنى الماديّ.

3. التفكير

ثمة علاجات قليلة أفضل للقلق منها للتفكير. عند تدوين مشكلة أو طرحها في حديث، فإننا نبيّن مظاهرها الجوهريّة. وعبر إدراك ماهيّتها، سنتمكّن من إزالة سماتها التفاقميّة الثانويّة: أي، الاضطراب، والانعزال، والمفاجأة، إن لم نتمكّن من إزالة المشكلة بذاتها.

ثمة قدرٌ كبير من التشجيع للتفكير في الحديقة، كما أصبح يُعرَف مجتمع أبيقور. كان كثيرٌ من الأصدقاء كتّابًا. وبحسب ديوجينيس لايرتيوس، فإنّ مترودوروس، مثلًا، ألّف اثني عشر عملًا، من بينها طريق الحكمة، وعن صحّة أبيقور العليلة. في الغرف المشتركة في منزل ميليت، وفي حديقة الخضار، لا بدّ أن ثمة فرصًا مستمرة قد سنحت لدراسة المشكلات مع الناس، فكريةً كانت أم عاطفيّة.

كان أبيقور مهتمًا على نحو أساسيّ بأن يتعلّم هو وأصدقاؤه تحليلَ حالات قلقهم بشأن المال، والمرض، والموت، وعالم الخوارق. وكما حاجج أبيقور، لو فكّر المرء بشكل متعقّل بشأن القابليّة للموت، سيُدرك عدم وجود شيءٍ بعد الموت بخلاف النسيان، وأن «ما لا يتسبّب بمشكلة عند وصوله ليس سوى قلقٍ عابر بشأن الترقّب». إذ إنّ من الحماقة أن يعمد المرء إلى الاستنفار المسبق بشأن أمرٍ لن يُعايشه أبدًا:

> ليس ثمة ما هو مُفزع في الحياة بالنسبة إلى الإنسان الذي أدرك فعلًا أن لا شيء رهيبًا في عدم العيش.

التحليل الواعي يهدّئ الذهن؛ إذ إنّه وفر على أصدقاء أبيقور خوضَ اللحظات المُضْنية للمصاعب التي كانت ستحتلّهم في البيئة الطائشة خارج حدود الحديقة.

بالطبع، لن تتسبّب الثروة ببؤس أيّ أحد. ولكنّ لبّ محاججة أبيقور هو أنّنا لو امتلكنا مالًا من دون أصدقاء، أو حريّة، أو حياةٍ منظَّمة، لن نكون سعداء فعلا. ولو امتلكنا هذه العناصر، مع الافتقار إلى الثروة، لن نكون تعساء أبدًا.

لتوضيح ما هو جوهريٌّ في الحياة، وما يمكن أن يضيع دون ندم كبير لو حُرم المرء من الرفاه بفعل الجور الاجتماعيّ أو الاضطراب الاقتصاديّ، قام أبيقور بتقسيم حاجاتنا إلى ثلاثة أصناف:

في ما يخص الرغبات، بعضها طبيعيّ ولازم. وبعضها الآخر طبيعيّ وغير لازم. وثمة رغبات ليست طبيعيّة ولا لازمة.

twitter @baghdad_library

طبيعيّة ولازمة	طبيعيّة وغير لازمة	ليست طبيعيّة ولا لازمة
الأصدقاء	منزل كبير	الشهرة
الحرّية	حمّامات خصوصيّة	السُّلطة
التفكير (بالمصادر الأساسية للقلق: الموت، المرض، الفقر، التطيّر)	ولائم	
الطعام، الملجأ، الملابس	خدم	
	سمك، لحم	

بالنسبة إلى أولئك العاجزين أو الخائفين من فقدان المال، على وجه التحديد، يشير تقسيم أبيقور الثلاثيّ إلى أنّ السعادة معتمدةٌ على بعض الأمور السيكولوجيّة المعقّدة، ولكنّها مستقلّة نسبيًا عن الأمور الماديّة، باستثناء الوسائل اللازمة لشراء بعض الملابس الدافئة، وتأمين مكان للعيش، وشيء من الطعام – وهي مجموعة أولويّات تهدف إلى تحفيز التفكير عند من يعتبر السعادة مُعادِلةً لتحقُّق المخطّطات الماليّة الكبيرة، والبؤسَ مُعادِلًا للدخل المتواضع.

عند توضيح العلاقة الأبيقوريّة بين المال والسعادة في مخطّط بيانيّ، سنجد أنّ قدرة المال على تحقيق السعادة حاضرةٌ أساسًا في الرواتب الصغيرة، من دون أن ترتفع إلى الرواتب الأكبر. لن يقلّ إحساسنا

بالسعادة مع الإنفاق الأكبر، ولكنّنا لن نتخطّى مستويات السعادة المتوفّرة أساسًا للذين يتقاضون دخلًا محدودًا، كما يؤكّد أبيقور.

علاقة السعادة بالمال بالنسبة إلى شخص يمتلك الأصدقاء، والحريّة، ... إلخ.

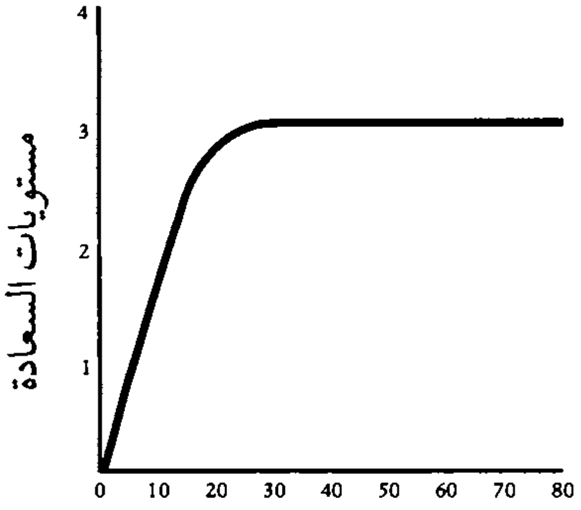

يعتمد التحليل على فهم محدَّدٍ للسعادة. بحسب أبيقور، نكون سعداء إن لم نكن نعاني من ألم فعّال؛ لأننا سنعاني من الألم الفعّال إذا افتقرنا إلى المغذّيات والملابس، ولا بد أن نمتلك مالًا كافيًا لشرائها. ولكن المعاناة مفردة قويّة جدًا لتوصيف ما سيحدث لو أُرغمنا على ارتداء سترة صوفيّة عاديّة بدلًا من صوف الكشمير أو أن نأكل شطيرةً بدلًا من الأسكالوب البحريّ. وبذا تصبح المحاجّة:

> تُقدِّم الأطباقُ البسيطةُ اللذةَ ذاتها التي تعطيها الطاولةُ المترفةُ عندما يتم إقصاء الألم الناجم عن الحاجة.

وإنّ قيامنا بتناول الوجبات المماثلة للصورة الأولى أو تلك المماثلة للصورة الثانية لا يمكن أن يكون العامل الحاسم بشأن حالتنا الذهنيّة.

twitter @baghdad_library

أما تناول اللحوم، فلا يخفّف أيًا من ضغوطنا الطبيعيّة أو الرغبةَ التي سيتسبّب عدم تحقيقها في زيادة الألم... إذ إنّه لا يُسهم في ديمومة الحياة بل في تنوّع اللذائذ... كما هي الحال عليه في شرب الخمور، حيث بوسعنا متابعة حياتنا دونها.

قد يكون من المغري نَسْبُ ذمّ الترف هذا إلى الصنف البدائيّ من المنتوجات المتوفّرة للأثرياء في الاقتصاد المتخلّف لليونان الهلينستيّة. ومع ذلك، لا يزال بالإمكان الدفاع عن هذه المحاججة عبر الإشارة إلى وجود تفاوتٍ في تناسب السعر مع السعادة في منتوجات العصور اللاحقة.

لن نكون سعداء إذا امتلكنا السيارة الفخمة من دون وجود أصدقاء؛ وفيلا من دون حرّية؛ وملاءات منشّاة مع الكثير من الأرق. وطالما أنّ الحاجات اللامادّيّة الأساسيّة غير متحقّقة، سيبقى مستوى السعادة في المخطط منخفضًا بشدّة.

علاقة السعادة بالمال بالنسبة إلى شخص يمتلك الأصدقاء، والحرّية، ... إلخ.

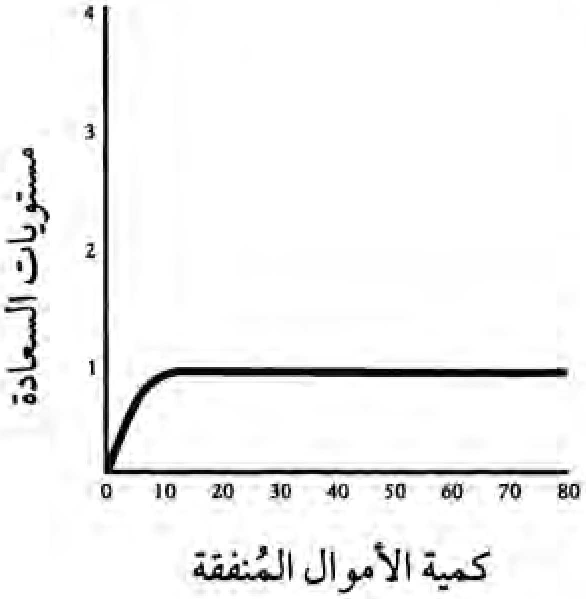

لا شيء سيُرضي الإنسان الذي لا يَقْنع بالقليل

ولتجنّب امتلاك ما لا نحتاج إليه، أو الندم على ما نعجز عن تأمينه، لا بدّ لنا أن نتساءل بصرامة، في اللحظة التي نتوق فيها إلى امتلاك شيءٍ باهظ الثمن، ما إذا كنّا مُحقّين بفعل هذا. وينبغي أن نبدأ بسلسلةٍ من التجارب الفكريّة التي نتخيّل أنفسنا فيها وقد أصبحنا في اللحظة التي ستتحقّق فيها رغباتنا، وذلك بهدف تخمين الدرجة التي ستكون عليها سعادتنا المحتمَلة:

twitter @baghdad_library

يجب تطبيق منهج التساؤل الآتي على جميع الرغبات: ما الذي سيحدث لي لو تحقَّقَ ما كنتُ أرغب به؟ وما الذي سيحدث لو لم يتحقّق؟

إنه منهج لا بد وأن يكون قد اتّبع خمس خطوات على الأقل، بالرغم من عدم وجود أمثلة متبقّية بشأنه - والذي يمكن إدراجه دون إجحاف بلغة كتيّب إرشاديّ أو دليل استخدام.

1. حدّد مشروعًا من أجل السعادة.

كي أكون سعيدًا في العطلة، لا بد أن أعيش في فيلا.

2. تخيَّل إمكانيّة أن يكون المشروع خاطئًا. ابحث عن الاستثناءات بشأن الصلة المفترَضة بين الشيء المرغوب والسعادة. هل يمكن أن يمتلك المرء ذلك الشيء المرغوب من دون أن يكون سعيدًا؟ هل يمكن أن يكون المرء سعيدًا من دون أن يمتلك هذا الشيء؟

هل يمكن أن أنفق المال على فيلا من دون أن أشعر بالسعادة؟

هل يمكن أن أكون سعيدًا في العطلة من دون أن أنفق هذا المبلغ من المال على فيلا؟

3. لو وُجد استثناء، لا يمكن للشيء المرغوب أن يكون سببًا لازمًا وكافيًا للسعادة.

من الممكن أن أقضي وقتًا بائسًا في الفيلا لو شعرت، مثلًا، أنني وحيد وبلا أصدقاء.

من الممكن أن أكون سعيدًا في خيمة لو كنتُ، مثلًا، مع شخص أحبّه ويقدّرني.

4. كي نكون دقيقين بشأن توليد السعادة، يجب أن يتم أخذ

الاستثناء في المشروع بالاعتبار.

شعوري بالسعادة في فيلا مترفة يعتمد على وجودي مع شخص أحبّه ويقدّرني.

يمكن أن أكون سعيدًا من دون إنفاق مال على الفيلّا طالما أنّني مع شخص أحبّه ويقدّرني.

5. قد تبدو الحاجات الفعليّة شديدة الاختلاف الآن عن الرغبة الابتدائيّة المحيّرة.

تعتمد السعادة على امتلاك رفقة ودودة بقدر أكبر من اعتمادها على فيلّا مترفة.

امتلاك الأشياء النفيسة لا يحلّ معضلة قلق الروح، ولا يولّد السعادة المنشودة.

5

لو كانت الأشياء النفيسة عاجزةً عن توليد السعادة المنشودة، لمَ ننجذب إليها بهذه القوة إذًا؟ يعود هذا إلى خطأٍ يُماثِل خطأ المُصاب بمرض الشقيقة الذي يحفر ثقبًا في جانب جمجمته: لأنّ الأشياء النفيسة قد تبدو حلولًا معقولة للحاجات التي نعجز عن فهمها. إذ

twitter @baghdad_library

إنّ الأشياء تُماهي ماديًا ما نحتاج إليه سيكولوجيًا. إننا بحاجة إلى إعادة تنظيم أذهاننا، ولكننا ننجذب إلى الرفوف الجديدة؛ فنشتري سترة من صوف الكشمير لتحلّ محلّ أحاديث الأصدقاء.

لا ينبغي أن نُلام وحدنا على ارتباكاتنا. إذ إنّ فهمنا الضئيل لحاجاتنا يتعزّز بما يسمّيها أبيقور «الآراء التافهة» الخاصة بمن يحيطون بنا، والتي لا تعكس الهرَميّة الطبيعيّة لحاجاتنا، بل تركّز على الترَف والممتلكات، ونادرًا ما تتطرّق إلى الصداقة والحرّية والتفكير. هيمنة الرأي التافه ليس مصادفةً على الإطلاق. إذ إنّ مصالح المشاريع التجاريّة في تشويه هرَميّة حاجاتنا تتسبّب بترويج رؤيةٍ ماديّةٍ عن الخير، وإخفاء الرؤية الأخرى اللاماديّة.

وتكون طريقة إغراءنا عبر الربط الخبيث بين الأشياء النافلة وحاجاتنا المنسيّة الأخرى.

قد تكون سيارة جيب وينتهي الأمر بشرائها، ولكنّ الحرّية – بحسب أبيقور – هي ما كنّا نبحث عنه.

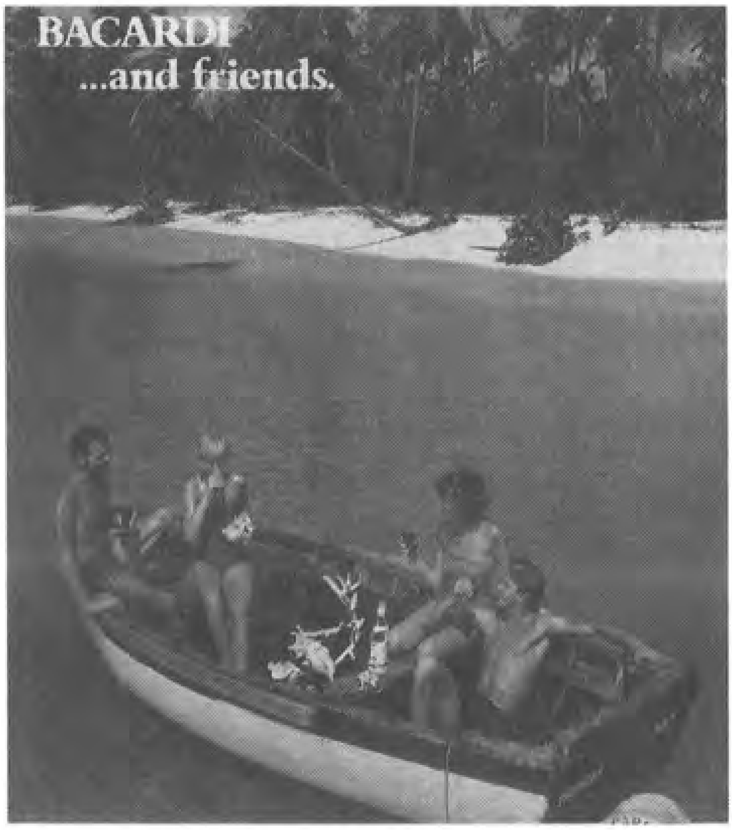

قد يكون فاتحَ شهيّة، ولكن الصداقة - بحسب أبيقور - هي ما كنّا نسعى إليها.

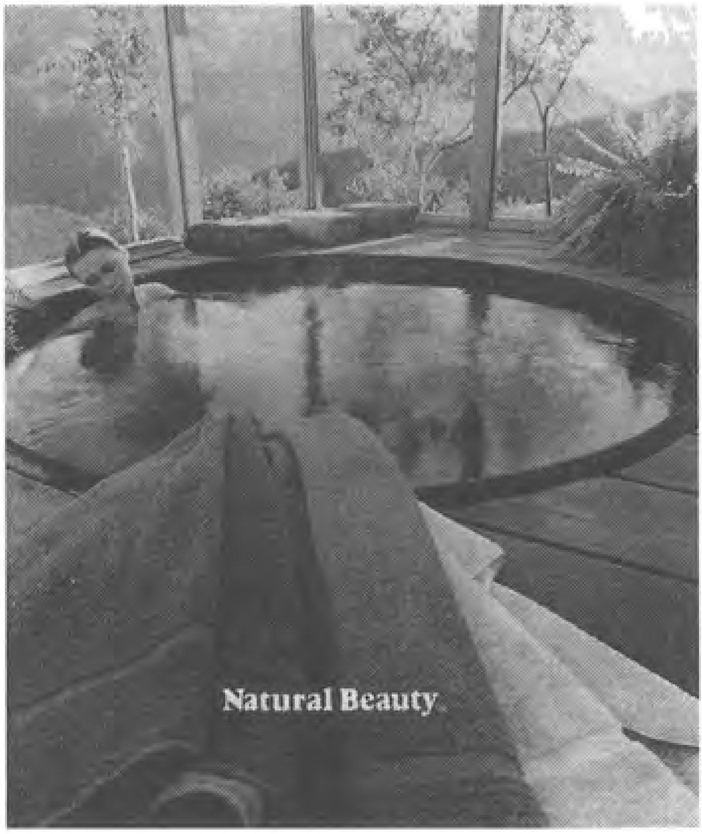

twitter @baghdad_library

هي تجهيزات باهظة للحمّام لنسترخي، ولكن التفكير - بحسب أبيقور - هو ما كان سيمنحنا السكينة.

بهدف مقاومة سلطة الصور المترَفة، عمد أبيقور إلى تقدير أهميّة الإعلان.

بعد عام 120 للميلاد، في السوق المركزيّة في أوينواندا، وهي بلدة تضم 10 آلاف نسمة وتقع في الجهة الجنوبيّة الغربيّة من جنوب غربي آسيا، انتصبَ صفٌّ أعمدةٍ حجريّةٍ بطول 80 مترًا وارتفاع 4 أمتار تقريبًا، وقد امتلأ بعبارات أبيقوريّة للفت انتباه المتسوّقين:

> الطعام والشراب المترَف... لا يمنح نجاةً من الأذى أو صحة جيدة في الجسد. يجب على المرء أن يعتبر الثروة التي تفوق الحد الطبيعيّ غير ذات نفع، كما الماء في وعاءٍ ممتلئ إلى حافّته. ولا نحصل على القيمة الحقيقيّة عبر الصالات والحمّامات والعطور والمراهم بل عبر العلم الطبيعيّ.

دفع ديوجينيس تكاليف بناء هذا الجدار، وهو أحد أثرياء أوينواندا، حيث سعى، بعد 400 عام من افتتاح أبيقور وأصدقائه للحديقة في أثينا، ليتشارك مع مواطنيه أسرار السعادة التي اكتشفها في فلسفة أبيقور. وقد شرح هذا على إحدى زوايا الجدار:

> بعد أن بلغتُ غروب حياتي (حيث أوشكتُ على الوصول إلى حافة مغادرة العالم بسبب تقدّمي في السن)، أردتُ - قبل أن يباغتني الموت - أن أؤلّف نشيدًا رائعًا للاحتفاء بوصول اللذة إلى ذروتها، وكذا لمساعدة مَنْ هم حَسَنو-

التكوين.[1] لو كان ثمة شخص واحد، أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة... في ورطة كبيرة، ينبغي عليّ مخاطبتهم على حدة... ولكن بما أنّ أغلبيّة الناس تعاني من مرضٍ سائد، كما لو كان وباءً، بسبب أفكارهم المغلوطة عن الأشياء، وبما أنّ أعدادهم في تعاظم (إذ عبر احتكاكهم المشترك يلتقطون المرض وتسري العدوى، كما هو حال الخراف)... نويتُ استخدام هذا الجدار لنشر الترياق الذي سيمنح الخلاص.

احتوى الحجر الضخم على ما يقرب من 25 ألف كلمة تُروِّجُ لجميع جوانب الفكر الأبيقوريّ، وتتطرّق إلى أهميّة الصداقة وتحليل مواطن القلق. وكان يتم تحذير المتسوّقين في متاجر أوينواندا بصرامة وتفصيل كي لا يشطّوا بتوقّعاتهم بشأن مقدار السعادة الذي سيمنحهم إياه فعل التسوّق.

لم يكن الإعلان لينتشر إلى هذا الحد لو لم نكن كائنات طيّعة للإغراءات. نطلب الأشياء حين تكون معروضةً بجمال على الجدران، ونفقد الاهتمام عندما تكون مُتجاهَلَةً أو سيئة الترويج. وقد أبدى لوكريتيوس أسفه لأنّ ما نرغب به «يتم اختياره عبر الشائعات لا عبر قرائن حواسّنا».

---

(1) حَسَن-التكوين (well-constituted): القادر، أو المُهيَّأ، لمواجهة الآراء السائدة (الخاطئة). لم يرد هذا المصطلح قبل نصّ ديوجينيس أعلاه، ويبدو أنه سكّه للتمييز (بحسب الفلسفة الأبيقوريّة) بين من هم قادرون على إعادة تنظيم حياتهم، ومن هم عاجزون عن مواجهة طوفان الأفكار الاجتماعيّة المغلوطة، بخاصة ما يتعلق بمفهومَي السعادة واللذة. لمزيدٍ من التفصيل، راجع http://newepicurean.com/suggestions-on-being-well-constituted/ [المترجم].

twitter @baghdad_library

للأسف، ليس ثمة نقصٌ في الصور المغوية للمنتجات المترفة والأشياء الباهظة، مقابل العدد الأقل من الأماكن والأفراد العاديّين. لا نلمس دوافع كبيرة إلى المسرّات المتواضعة: اللعب مع طفل، التحدث إلى صديق، ظهيرة في الشمس، منزل نظيف، جبنة مدهونة على خبز طازج («أرسل لي قِدرًا من الجبنة كي أُقيم وليمةً حين أرغب بذلك»). ليست هذه هي العناصر التي تحتفي بها صفحات مجلة أبيقوريان لايف.

قد يساعدنا الفنّ على تصحيح الانحراف. إذ قام لوكريتيوس بتقوية الدفاع الفكريّ لأبيقور عن البساطة كوسيلة لمساعدتنا، في شعرٍ لاتينيّ جزل، كي يدفعنا للإحساس بلذائذ الأشياء العاديّة:

> نلاحظ أنّ متطلّبات طبيعتنا الجسديّة قليلةٌ فعلًا، وهي لا تزيد عن ما هو لازم لتبديد الألم، وكذلك لإبعاد الكثير من الملذات عنا. لا تسعى الطبيعة عادةً إلى شيءٍ أكثر إشباعًا، أو تتذمّر إنْ لم يكن ثمة صور ذهبيّة للشبّان قرب المنزل وهو يحملون مصابيح متألّقة في أيديهم اليمنى

لإضاءة الولائم التي تجري طوال الليل. ما الذي سيختلف لو لم تبرق الكرة بأضواء فضيّة برّاقة إلى جانب الذهبيّة، أو يكن ثمة عوارض منقوشة ومطليّة تهتزّ بفعل موسيقا آلة اللوت؟ لن تُضيّع الطبيعة هذه المباهج لو استلقى الناس مع رفاقهم على العشب الرطب قرب جدولٍ يجري تحت أغصان شجرةٍ عالية، فينعشون أجسادهم بلذائذ ذات تكلفة ضئيلة. وستزداد روعة الأمر لو كان الطقس مبتسمًا لهم، وصار ثوب العشب مرقّطًا بالأزهار.

من الصعب قياس تأثير النشاط التجاريّ في العالم اليوناني-الروماني لقصيدة لوكريتيوس. كما أنّ من الصعب معرفة ما إذا كان متسوّقو أوينواندا قد اكتشفوا ما هم بحاجة إليه وأوقفوا شراء ما لا يفيدهم بسبب الإعلان الضخم الذي يواجههم. ولكن يمكن لحملة إعلان أبيقوريّة كبيرة أن تمتلك القوة للتعجيل بالانهيار الماليّ العالميّ. إذ بحسب أبيقور، تحرّض معظمُ الأعمال رغباتٍ نافلةً لدى الناس الذين يُخفقون في فهم حاجاتهم الحقيقيّة، وستنهار مستويات الاستهلاك بفعل وعي الذات المتنامي، وتقدير البساطة. ولم يكن أبيقور ليصاب بالقلق:

عند القياس وفقًا للغاية الطبيعيّة للحياة، سيكون الفقر ثروةً كبيرة؛ ثروة لا نهائيّة، فقر عظيم.

وهذا يقودنا إلى خَيار: من جهة، المجتمعات التي تحرّض رغبات نافلة ولكنْ تُحقِّق مكاسب اقتصاديّة هائلة بالنتيجة؛ ومن الجهة الأخرى، المجتمعات الأبيقوريّة التي تؤمّن الحاجات الماديّة الأساسيّة من دون أن تستطيع أبدًا رفع مستويات المعيشة أكثر من

twitter @baghdad_library

حدّ الكَفاف. لن تكون هناك صروح ضخمة في العالم الأبيقوريّ أو تطوّرات تكنولوجيّة، وسيكون الدافع ضعيفًا للتبادل التجاريّ مع القارات الأبعد. وكذلك، سيتّسم المجتمع الذي يضم سكّانًا ذوي حاجات محدودة بكونه مجتمعًا ذا موارد قليلة. ومع ذلك -لو صدّقنا أفكار الفيلسوف - لن يكون مثل هذا المجتمع تعيسًا. وضح لوكريتيوس الخيار. في عالمٍ يخلو من القيم الأبيقوريّة:

> ستكون البشريّة على الدوام ضحيّةً لعذابٍ عبثيّ عقيم، مبدّدةً الحياة في مخاوف عقيمة بفعل الإخفاق في إدراك الحدّ المرسوم للامتلاك ولنموّ اللذة الأصيلة.

ولكن في الوقت ذاته:

> هذا الاستياء هو ما دَفَعَ الحياة قُدُمًا بثبات، نحو البحار متلاطمة الأمواج ...

بوسعنا تخيّل رد أبيقور. بصرف النظر عن مدى إبهار مغامراتنا في البحار متلاطمة الأمواج، فإنّ الطريقة الوحيدة لتقييم مزاياها ستكون تبعًا للذّة التي تخلقها.

> إلى اللذة نحتكم، معتبرين هذا الشعور معيارنا للحُكم على أيّ شيء.

وبما أنّ تعاظم الثروة في المجتمعات لا يضمن زيادةً في السعادة، كان أبيقور سيشير إلى أنّ الحاجات التي تلبّيها الأشياء الثمينة لا يمكن أن تكون هي التي تعتمد سعادتنا عليها.

6

السعادة، لائحة ممتلكات

1. كوخ

2.

3. لتجنب من هم أعلى مكانة منك، والوصاية، والصراعات الداخليّة، والمنافسة:

twitter @baghdad_library

4.التفكير.

5.إعادة تجسيد للوحة جيوفاني بيلليني السيّدة (من معرض أكاديميّة فينيسيا)، حيث يثير التعبير الكئيب على وجهها إحساسًا جافًا من المرح والعفويّة - وارتداء ملابس من النسيج اليدويّ من أقسام الملابس في المتاجر المتواضعة.

قد تكون السعادة صعبة التحقّق. ولكنّ العقبات ليست ماليّة على نحو أساسيّ.

twitter @baghdad_library

III

العزاء

بشأن الإحباط

twitter @baghdad_library

1

قبل ثلاثة عشر عامًا من رسمه لوحة موت سقراط، تناول جاك- لوي دافيد فيلسوفًا قديمًا آخر واجه نهايتَه بهدوءٍ استثنائيٍّ بين الدموع الهستيريّة للأصدقاء والعائلة.

صوّرتْ لوحة موت سينيكا، المرسومة عام 1773، حين كان دافيد في الخامسة والعشرين من عمره، اللحظات الأخيرة للفيلسوف الرواقيّ في فيلّا خارج روما في نيسان/ أبريل عام 65

للميلاد. كان ضابطٌ قد وصل إلى المنزل قبل عدة ساعات يحمل تعليمات من الإمبراطور تنصّ على وجوب أن يقتل سينيكا نفسه على الفور. كُشفتْ مؤامرة للإطاحة بنيرون ذي الثمانية وعشرين عامًا عن العرش، واندفع الإمبراطور بهياج وجنون للانتقام دون تمييز. وبرغم عدم وجود دليل يربط سينيكا بالمؤامرة، عدا عن عمله كمعلّم خاص للإمبراطور لخمس سنوات، وكمعاون مخلص لعقدٍ كامل، أمر نيرون بالقتل على سبيل الاحتياط. كان إلى تلك اللحظة قد قتل أخاه غير الشقيق بريتانيكوس، وأمه أغريبينا، وزوجته أوكتافيا؛ كما تخلّص من عدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان بإطعامهم للتماسيح والأسود؛ عدا عن غنائه فيما روما تُدمَّر بفعل الحريق الكبير عام 64.

عندما عرفوا فحوى أوامر نيرون، شحب الموجودون في منزل سينيكا وبدأوا البكاء، ولكنّ الفيلسوف بقي هادئًا، بحسب الرواية التي نقلها تاسيتوس وقرأها دافيد، وحاول جاهدًا إيقاف بكائهم وإعادة الشجاعة إليهم:

> تساءل، أين اختفت فلسفتهم وذلك التصميم في مواجهة المحن الوشيكة الذي كانوا يتبادلونه في ما بينهم كل هذه السنوات؟ ثم أضاف: «بالتأكيد، لم يكن أحدٌ غافلًا عن أنّ نيرون قاسٍ! إذ بعد قتل أمه وأخيه، لم يبقَ أمامه سوى قتل معلّمه ومرشده».

التفت إلى زوجته باولينا واحتضنها بحنان («على نحو شديد الاختلاف عن رزانته الفلسفيّة» - تاسيتوس) وتمنّى أن تواسيها حياتُه التي عاشها برضى. ولكنّها رفضت العيش بدونه، وطلبت

twitter @baghdad_library

الإذن لتمزيق شرايينها أيضًا. لم يردعها سينيكا عن أمنيتها:

> لن أُنكر أن موقفك مثالٌ رائع. سنموت بثباتٍ متماثل، ولكنّ موتك سيكون النهاية الأسمى.

ولكن، لأنّ الإمبراطور لم يكن يودّ زيادة سمعته السيئة بشأن القسوة، اندفع حرّاسه حين انتبهوا إلى أنّ باولينا قرّبت السكين من معصمها، فانتزعوها منها، وضمّدوا جروح معصميها.

بدأت عمليّة انتحار زوجها بالتعثّر. لم يجرِ الدم بسرعةٍ كافية في جسده الهَرِم حتى بعد أن مزّق شرايين كاحليه ومؤخّرتي ركبتيه. لذا طلب سينيكا من الطبيب تحضير كوب من سمّ الشوكران، بصدًى نصف واعٍ للموت الذي حدث قبل 464 عامًا في أثينا. لطالما اعتبر سقراطَ مثالًا عن كيفيّة سموّ المرء فوق الظروف الخارجيّة عبر الفلسفة (وكان قد أعرب عن احترامه في رسالة كتبها قبل صدور أوامر نيرون بعدة سنوات):

> كان قد قاسى الكثير في منزله، سواء فكّرنا بزوجته التي كانت سيئة الطباع سليطة اللسان، أو بأولاده... وقضى حياته في سنوات الحرب أو تحت حُكم الطغاة... ولكن عجزت جميع هذه الأحداث عن تغيير روح سقراط على نحو كبير، إذ لم تغيّر طباعه. يا للتميّز الرائع والنادر! لقد حافظ على موقفه حتى النهاية... وخلال جميع اضطرابات القَدَر، بقي رابط الجأش.

ولكنّ رغبة سينيكا باتّباع المثال الأثينيّ كانت عبثيّة. شرب السمّ من دون أن يكون له أدنى تأثير. وبعد محاولتين فاشلتين طلب منهم أخيرًا وضعه في حمّام بخار كي يختنق حتى الموت ببطء، حيث

سيتعذّب ولكن بثبات، رابط الجأش برغم اضطرابات القَدَر.

لم تكن لوحة دافيد، ذات أسلوب الروكوكو[1]، أوّلَ تصوير للمشهد، أو الأفضل. إذ بدا سينيكا مثل باشا مضطجع أكثر من كونه فيلسوفًا يحتضر. أما باولينا، التي تعرّى نهدها الأيمن بسبب اندفاعها إلى الأمام، فقد ارتدت ملابس تصلح لحضور الأوبرا ولا تبدو على طراز روما الإمبراطوريّة. ولكن، بصرف النظر عن أخطائه، تلاءم تصويرُ دافيد لهذه اللحظة مع تاريخ مديد من الاحترام للطريقة التي ثبت فيها سينيكا أمام مصيره المروّع.

لويسيه ليدِيه، 1462

(1) الروكوكو: أسلوب فنيّ انتشر في القرن الثامن عشر، انطلاقًا من باريس، كردّة فعل على أسلوب الباروك الذي كان يتّسم بالتناظر والقواعد الدقيقة الصارمة. استلهم الفنانون هذه المدرسة من صَدَف الروكوكو المتميّز بخطوطه المنحنية المتعرّجة غير المنتظمة، لذا كانت زخارف ولوحات وأثاث الروكوكو ذات ألوان فاتحة، وتصاميم غير متناظرة، وانحناءات معقّدة. [المترجم]

twitter @baghdad_library

روبنس، 1608

لوكا جوردانو، حوالى 1680

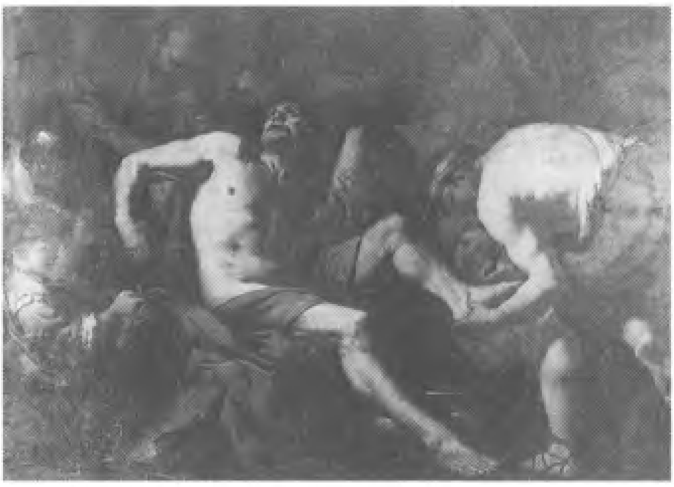

ريبيرا (جوسيبّي)، 1632

برغم اصطدام أمنياته بتعارض صارخ ومفاجئ مع الواقع، لم يرضخ سينيكا للحظات الضعف والهشاشة المعتادة؛ إذ واجه المطالبَ الصادمةَ بكرامة. عَبْر موته، أسهم سينيكا في خلق ربطٍ دائم، مع مفكّرين رواقيّين آخرين، بين جوهر كلمة «فلسفيّ» ومقاربةٍ هادئةٍ معتدلةٍ للكارثة. كان قد أدرك منذ البداية أنّ الفلسفةَ منهجٌ تعليميٌّ يساعد البشر على تجاوز التباينات بين أمنياتهم والواقع. وكما نقل إلينا تاسيتوس، فإنّ استجابة سينيكا على رفاقه الغارقين في البكاء كانت التساؤل أين اختفت فلسفتهم، وذلك التصميم في مواجهة المحن الوشيكة، كما لو كان الأمران واحدًا في الجوهر.

خلال حياته، كان سينيكا قد شهد وواجه كوارث هائلة محيطة به. كانت الزلازل قد دمّرت بومبييه؛ واحترقت روما ولوغدونوم؛ وخضع شعب روما وإمبرطوريّتها لنيرون، وقبله كاليغولا، أو «الوحش» كما وصّفه سويتونيوس على نحو أدقّ، الذي كان قد صاح بغضب في إحدى المناسبات، «لَكَمْ أتمنّى لو كنتم أيها الرومان جميعًا بعنق واحدة!».

وكان سينيكا قد قاسى مآسٍ شخصيّة أيضًا. كان يهيّئ نفسه كي يعمل في السياسة، ولكن في أوائل عشريناته تلقّى تشخيصًا بإصابته بالسل، حيث بقي مريضًا ست سنوات، ما أدّى إلى اكتئابٍ انتحاريّ. وقد تزامَنَ دخولُه المتأخّرُ إلى السياسة مع صعود كاليغولا. وحتى بعد مقتل الوحش عام 41 للميلاد، بقي وضع سينيكا مضطربًا. إذ تسبّبتْ مؤامرةٌ حاكتها الإمبراطورة ميسالينا بتشويه سمعته ونفيه ثمانية أعوام إلى جزيرة كورسيكا، من دون أن يكون له ذنبٌ فيها. وعندما أُعيد إلى روما أخيرًا، كان هذا كي يتولّى رغمًا عنه

twitter @baghdad_library

أكثر المناصب شؤمًا في الإدارة الإمبراطوريّة - أن يكون معلّمًا خاصًا لابن الإمبراطورة أغريبينا ذي الاثني عشر عامًا، لوشيوس دوميتيوس آهينوباربوس، الذي سيأمره بعد خمسة عشر عامًا بقتل نفسه أمام زوجته وعائلته.

وقد أدرك سينيكا سبب قدرته على الصمود أمام المحن:

أدين بحياتي للفلسفة، وهذا أقل التزاماتي حيالها.

كانت تجاربه قد لقَّنَتْهُ قاموسًا شاملًا في الإحباط، ولقَّنَهُ عقلُه سلسلةً من الاستجابات لها. كما هيَّأته السنوات التي قضاها في الفلسفة لليوم الكارثيّ الذي سيطرق فيه ضابطُ نيرون بابَ منزله.

تمثال نصفيّ لسينيكا وسقراط

2

قاموس سينيكيّ في الإحباط

مقدّمة

مع أنّ مجال الإحباط قد يكون واسعًا - من ارتطام إصبع القدم إلى الموت المبكّر - إلا أنّ ثمة بنيةً أساسيّة في قلب كلّ إحباط: تعارضُ أمنيةٍ مع واقعٍ قاسٍ.

ينطلق التعارض من مستهلّ البدايات، مع اكتشاف أنَّ مصادرَ إرضائنا تكمن خارج نطاق سيطرتنا، وأنّ العالم لا يتكيّف مع رغباتنا.

ومع هذا، بحسب سينيكا، سنتمكّن من بلوغ الحكمة حين نتعلّم أن لا نُفاقِمَ استعصاءَ العالم [أمامنا] من خلال ردود أفعالنا،

twitter @baghdad_library

وعبر نوبات الغضب، ورثاء الذات، والقلق، والسخرية المريرة، والتعالي، والبارانويا.

ثمة فكرةٌ واحدةٌ تتكرّر في أعماله: من الأفضل تحمُّل الإحباطات التي هيَّأْنا أنفسنا لها، ومحاولة فَهْم معظم تلك التي فاجأتنا من دون أن نتمكّن من استيعابها. يجب أن توفّق الفلسفة بيننا وبين الأبعاد الفعليّة للواقع، وبذا ستجنّبنا على الأقل درعَ الإحباط المكوَّن من العواطف الخبيثة المُرافِقة، إنْ لم تجنِّبْنا الإحباط بذاته. إنّ واجبها هو أن تهيّئ لأمنياتنا أسلسَ استقرار ممكن على الجدار الصلب للواقع.

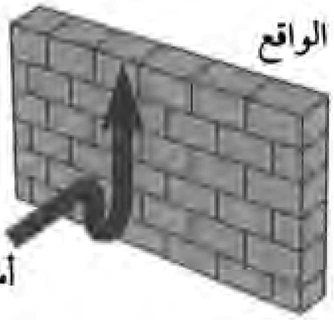

الغضب

التعارض الصبيانيّ الأقصى. نعجز عن إيجاد ريموت كونترول السيّارة أو المفاتيح، الطريق مغلقة، المطعم ممتلئ... وهكذا: نصفق الأبواب، ونجتثّ النباتات، وننفجر بالصراخ.

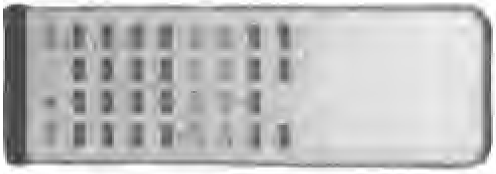

1 –اعتبره الفيلسوف نمطًا من الجنون:

ليس ثمّة طريق أسرع إلى الجنون. يتمنّى الكثير [من

الغاضبين]... الموت لأطفالهم، والفقر لأنفسهم، والدمار لمنازلهم، منكرين أنّهم غاضبون، تمامًا كما يُنكر المجانين جنونهم. أعداء لأعزّ أصدقائهم... مهملون للقانون ... ويقومون بكل شيء بالقوة ... احتلّهم المرض الأعظم، ذاك الذي يفوق جميع الرذائل.

2 -في لحظات الهدوء، قد يعتذر الغاضبون ويبرّرون أنّ قوّةً أكبر منهم قد طغت عليهم، أي أقوى من عقولهم. «هم»، ذواتهم العاقلة، لم تتقصّد الإهانات وتندم على الصياح، «هم» فقدوا السيطرة لصالح قوى ظلاميّة داخلهم. وبذا يلجأ الغاضبون إلى رؤية سائدة عن العقل يتم فيها تصوير مَلَكة التفكير، أي مركز الذات الحقيقيّة، على أنه يُحتَلّ أحيانًا بفعل مشاعر انفعاليّة لا يتماهى معها العقل ولا يتحمّل مسؤوليّتها. ويتعارض هذا التوصيف مباشرةً مع رؤية سينيكا عن العقل التي تقول إنّ الغضب لا ينجم عن انفجار جامح للمشاعر، بل عن خطأ بسيط (وقابل للتصحيح) في التفكير. لا يحكم العقلُ أفعالَنا على الدوام، كما يَخْلُص سينيكا: لو رُشقنا بماء بارد، لن يكون أمام أجسادنا سوى الارتعاش؛ لو وُجّهت أصابع إلى أعيننا، لا بدّ أن نرمش. ولكنّ الغضب لا يندرج تحت تصنيف الحركة الجسديّة اللاإراديّة، إذ إنّه لا ينطلق إلا على إثر أفكار محدَّدة متبنّاة عقلانيًا؛ ولن نغيّر نزوعنا إلى الغضب ما لم نغيّر هذه الأفكار.

3 – وبحسب الرؤية السينيكيّة، إنّ ما يدفعنا إلى الغضب أفكارٌ تفاؤليّةٌ على نحو خطير بشأن ماهيّة العالم والناس الآخرين.

4 – مدى سوء رد فعلنا حيال الإحباطات يتحدّد نقديًا عبر ما نعتبره طبيعيًا. إذ قد نشعر بالإحباط لأنها تمطر، ولكنّ اعتيادنا على الدُّش يعني أنّ من غير المحتمَل أن نستجيب للمطر بالغضب. ويتم

twitter @baghdad_library

ضبط إحباطاتنا عبر فَهْم ما يمكن أن نتوقّعه من العالم، وعبر خبرتنا بالنتائج الطبيعيّة لتوقّعاتنا. لا يغلبنا الغضب كلّما حُرمنا من أمرٍ نشتهيه، ولا يحدث هذا إلا حين نؤمن أننا جديرون بامتلاكه. تنبع لحظات غضبنا الكبرى من الحوادث التي تنتهك إحساسنا بالقواعد الأساسيّة للوجود.

5 – بوجود المال، يمكن للمرء توقُّع أنّه سيعيش حياةً مريحة جدًا في روما القديمة. كان كثيرٌ من أصدقاء سينيكا يمتلكون منازل كبيرة في العاصمة وفيلات في الريف. كان ثمة حمّامات، وحدائق مُعمَّدة، ونوافير، وزخارف موزاييك، ورسومات جداريّة، وأرائك مطليّة بالذهب. وكانت هناك أعداد كبيرة من العبيد لتحضير الطعام، والاعتناء بالأطفال، وتشذيب الحدائق.

6 – ومع ذلك، بدا أن ثمة مستوى غير اعتياديّ من الغضب بين المترفين. «الثراء يعزّز الأمزجة السيّئة»، قال سينيكا بعد مراقبة أصدقائه الأثرياء المتشدّقين حوله لكون الحياة لم تظهر كما تمنّوا.

وكان سينيكا يعرف رجلًا ثريًا، فيديوس بوليو، وهو صديق للإمبراطور أوغوستوس، أَوْقَعَ عبدُهُ صينيّةً من زجاج الكريستال خلال حفلة. تضايق فيديوس من صوت تكسّر الزجاج، واشتعل

غضبًا بحيث أمر برمي العبد في حوض للأسماك المفترسة.

7 - لا يمكن أن تكون حالات الغضب هذه عصيّةً على التفسير. غضب فيديوس بوليو لسبب معروف: لأنه كان يؤمن بعالمٍ لا ينكسر فيه الزجاج في الحفلات. إننا نصيح حين لا نجد الريموتً كونترول بسبب إيمانٍ ضمنيٍّ بعالمٍ لا تضيع فيه أجهزة الريموت كونترول. ينتج الغضب عن اقتناعٍ، يكاد يكون هزليًا في أصوله التفاؤليّة (بصرف النظر عن مأساويّة آثاره)، أن إحباطًا بعينه لم يُدوَّن في عقد الحياة.

8 - لا بد أن نكون أكثر حرصًا. حاول سينيكا تطويع مقياس توقعاتنا بحيث لا نرفع أصواتنا غضبًا حين تنكسر تلك التوقّعات.

عندما يتأخر العشاء بضع دقائق:

ما المنفعة من قلب الطاولة؟ ومن تهشيم الكؤوس؟

وضرب رأسك بالجدار؟

حين يكون هناك صوت أزيز:

لمَ ينبغي أن تُزعجك ذبابةٌ لم يكلّف أحد نفسه عناء

twitter @baghdad_library

طردها، أو كلبٌ اعترض طريقك، أو مفتاحٌ أسقطه خادمٌ مهمل؟

عندما يعكّر أحد هدوء غرفة الطعام:

لمَ تندفع لإحضار السوط خلال العشاء لمجرد أن العبيد يتحدّثون؟

لا بدّ من تطويع أنفسنا مع اللا-اكتماليّة المتلازمة مع الوجود:

هل من المفاجئ أن يقوم الشرير بتصرفات شريرة، أو أن تُصدَم بحقيقة أنّ عدوّك سيؤذيك أو أن صديقك سيزُعجك، أو أنّ ابنك سيخطئ أو أنّ خادمك سيُسيء التصرّف؟

سنُقلع عن الغضب حالما نُقلع عن كوننا مفعَمين بآمال كبيرة.

الصدمة

طائرةٌ تابعةٌ لخطوط الطيران السويسريّة، تحمل 229 راكبًا، تُقلع في رحلة من نيويورك إلى جنيف. وبعد خمسين دقيقة من إقلاعها من مطار كنيدي، أثناء دفع

المضيفات لعرباتهنّ في ممرات الطائرة ماكدونالد دوغلاس MD-11، أعلن الطيّار عن وجود دخان في قمرة القيادة. بعد عشر دقائق، اختفت الطائرة عن شاشة الرادار. تحطّمت الطائرة العملاقة التي يبلغ طول كلّ جناح فيها 52 مترًا، في مياه المحيط الهادئة عند هاليفاكس [عاصمة مقاطعة نوفا سكوتيا] في كندا. أعلن عمّال الإنقاذ صعوبة تمييز جثث من كانوا قبل ساعات قليلة بشرًا بحيوات وخطط مستقبليّة. وُجدت الحقائب طافية على سطح الماء.

1 - يعود عدم تركيزنا على خطر الكارثة المفاجئة، ودفع ثمن

twitter @baghdad_library

براءتنا، إلى أنّ الواقع يسوّي بين سمتين مربكتين على نحو قاسٍ: من جهة، الاستمراريّة والثقة الممتدة عبر الأجيال؛ ومن جهة أخرى، المصائب المباغتة. فنجد أنفسنا منقسمين بين إغراءٍ معقولٍ لافتراضِ أنّ الغد سيكون شبيهًا باليوم، وبين احتماليّة أن يواجهنا حدث مروّع لن تبقى الأمور بعده كما كانت عليه. وبسبب امتلاكنا هذه المحفّزات القويّة لتجاهل الاحتمال الثاني، عمد سينيكا إلى مناشدة إلهة بعينها.

2 – كانت صورتها منقوشةً على كثيرٍ من العملات الرومانيّة، حاملةً قرن ماعز في يدٍ، ودفّة سفينة في الأخرى. كانت جميلة ترتدي عادةً رداءً رومانيًا خفيفًا بابتسامةٍ خجولة. كان اسمها فورتونا [الحظ]. وقد كانت آلهةَ خصبٍ، وابنة جوبيتر الأولى، ويُحتفَل بها في مهرجان يُقام في 25 من أيار/ مايو، عدا عن معابد عدة مكرَّسة لها في إيطاليا، يتردّد عليها النسوة العاقرات والمزارعون طلبًا للمطر. وسرعان ما تعاظمت قيمتها، حيث أصبحت مرتبطة بالمال، والتقدّم، والحب، والصحّة. كان قرن الماعز رمزًا لقدرتها على وهب العطايا، فيما كانت الدفّة رمزًا لقدرتها الأكثر شرًا في تغيير المصائر. كانت قادرةً على منح الهِبات، والقيام بسرعةٍ رهيبة بتغيير اتّجاه الدفّة، محافظةً على ابتسامتها الهادئة وهي تراقب لحظات اختناقنا حتى الموت بحَسَكة سمكة، أو اختفائنا في انهيار صخريّ أو ثلجيّ.

3 - ولأنّنا نتأذّى معظم الأحيان من أخطار لا نتوقّعها، ولأنّ علينا توقّع كل الاحتمالات («ليس ثمة شيء لا تجرؤ فورتونا على فعله»)، يجب علينا، كما أشار سينيكا، أن نُبقي في ذهننا احتماليّةَ وقوعِ كارثةٍ في أيّ لحظة. لا ينبغي على المرء القيام برحلة في السيارة، أوَ نزول الدرج، أو توديع صديق، من دون وعيٍ - كان سينيكا سيأمل أن لا يكون مخيفًا أو دراماتيكيًا مبالَغًا به - بالاحتماليّات القاتلة.

لا ينبغي علينا تجاهل احتمال وقوع أيّ شيء. ويجب على أذهاننا أن تُدفَع لمواجهة كل المشكلات، كما لا ينبغي أن نركّز على ما سيحدث، بل على ما يمكن أن يحدث.

twitter @baghdad_library

4 – ولو أردنا دليلًا على احتماليّة أن يتسبّب أمرٌ بسيط بإعادة كلّ شيء إلى العدم، ليس أمامنا سوى إمساك معصمنا، لندقّق للحظات في تدفّق الدم عبر شراييننا الخضراء الهشّة:

ما الإنسان؟ إناءٌ يمكن لأدنى اهتزاز أو حركة أن تكسره ... جسدٌ ضعيفٌ وهشٌّ، عارٍ، عاجز عن الدفاع عن نفسه في حالته الطبيعيّة، معتمدٌ على عَوْن الآخرين، ومُعرَّضٌ لجميع إهانات فورتونا.

5 – كانت لوغدونوم إحدى أكثر المستوطنات الرومانيّة ثراءً في بلاد الغال. عند ملتقى نهرَيْ آرار ورون، كانت تتمتّع بموقع مميَّز كملتقى للطرق التجاريّة والعسكريّة. كانت المدينة تضم حمّامات ومسارح رائعة، وهيئة حكوميّة لسكّ العملة. ثم في آب/ أغسطس عام 64، تسبّب فانوسٌ سقط من يد أحدهم بحريق انتشر في الشوارع الضيّقة، فبدأ السكّان الخائفون برمي أنفسهم من النوافذ مع اقتراب الحريق منهم. انتقلت النيران من منزل إلى آخر، ومع شروق الشمس كانت لوغدونوم قد تحوّلت إلى رماد، من الضواحي إلى السوق، ومن المعبد إلى الحمّامات. وبقي الناجون، بملابسهم المنزليّة التي هربوا بها، يراقبون النيران وهي تلتهم منازلهم المترفة من دون تمييز. كان الحريق سريعًا جدًا، بحيث استغرقت أنباء الكارثة كي تصل إلى روما وقتًا أطول من وقت احتراق المدينة:

تقول: «لم أتوقّع حدوث هذا». هل تظنّ أنّ ثمة شيئًا لا يمكن أن يحدث، عندما تعلم أنّ ثمة إمكانيّة لحدوثه، وحين ترى أنه قد حدث فعلًا ...؟

6 – في الخامس من شباط/ فبراير عام 62، حلّت كارثة مماثلة

بمقاطعة كامبانيا. اهتزّت الأرض، وانهار قسمٌ كبير من بومبييه. في الأشهر التالية، قرّر سكّان كثر مغادرة كامبانيا إلى أماكن أخرى في شبه الجزيرة. وبدا تصرّفهم، بالنسبة إلى سينيكا، وكأنّهم يؤمنون بوجود مكانٍ ما على الأرض، في ليغوريا أو كالابريا، يكونون فيه بأمان تام، بعيدًا عن قبضة إرادة فورتونا. ما استدعى ردًا منه مدعَّمًا بحُجج، كان مُقْنعًا برغم التباسه الجيولوجيّ:

> مَنْ وعدهم بأساسات أقوى في بقعة الأرض هذه أو تلك؟ تتّسم جميع البقاع بالظروف نفسها، ولو لم يُصبها زلزال بعد، فإنها ستُصاب به لا محالة. ربما في هذه الليلة، أو قبلها، سيحلّ الوقت الذي تنفلق فيه الأرض التي تقف عليها بأمان. كيف تعلم ما إذا كانت الظروف ستكون أفضل في تلك البقاع التي كانت فورتونا قد سلّطت عليها قواها، أو تلك التي قامت على أنقاضها؟ سنكون مخطئين لو جزمنا أن أيّ مكان في الأرض سيكون آمنًا ومنيعًا ... فالطبيعة لم تَخْلق مكانًا يتّسم بهذا الثبات.

7 – في زمن تسلّم كاليغولا للعرش، في أحد بيوت روما الراقية، فقدَتْ أمٌّ ابنها. كان ميتيليوس شابًا يكاد يبلغ الخامسة والعشرين، وذا طموح استثنائيّ. كان قريبًا من أمه مارسيا التي انهارت بعد موته. انسحبت من الحياة الاجتماعيّة وغرقت في الحِداد. صديقاتها كنّ يراقبنها بتعاطف، ويأملن أن تستعيد حيويّتها يومًا ما. ولكنّها لم تفعل. انقضى عام، ثم آخر، ثم ثالث، ولم يتناقص مقدار تعاسة مارسيا. بعد ثلاث سنوات كانت لا تزال تبكي ابنها كما فعلت يوم جنازته. بعث إليها سينيكا برسالة. عبّر عن تعاطفه الكبير، ولكنّه

twitter @baghdad_library

تابع برفق: «المسألة التي تهمّنا الآن هي ما إذا كان ينبغي على الحزن أن يكون عميقًا أو دائمًا».

كانت مارسيا تحتجّ على حدثٍ بدا مروّعًا ونادرًا في آن - بل إنّه بدا أكثر ترويعًا لكونه نادرًا. حولها كانت تتجمّع الأمهات اللواتي لا يزلن يحتفظن بأبنائهن. شبّان بدأوا بشقّ طريقهم، أكان هذا في الجيش أو السياسة. لمَ اختُطف ابنها منها؟

8 - كانت الوفاة رهيبة وغير معتادة، ولكنّها لم تكن غريبة - كما أشار سينيكا. لم تكن مارسيا داخل دائرة ضيّقة، إذ إنها موجودة في لائحة طويلة على نحو مُحزن من الأبناء الذين قتلتهم فورتونا. كانت أوكتافيا قد فقدت ابنها، وكذا ليفيا، وكورنيليا؛ إضافة إلى زينوفون، وبولوس، ولوشيوس سولا، وأوغوستوس، وسكيبيو. وحين عمدت مارسيا إلى الإشاحة بنظرها عن الوفيات الأولى، فإنّها تسبّبتْ - على نحو مفهوم ولكن خطير - بإقصاء تلك الوفيّات عن إدراكها الخاص للوضع الطبيعيّ:

> إننا لا نتوقّع الشرور قبل حدوثها فعليًا ... عَبَرَتْ جنازاتٌ كثيرةٌ أبوابنا، دون أن نركّز تفكيرنا على الموت أبدًا. كثير من المِيتات تحدث في غير أوانها، ولكننا نقوم - برغم هذا - بالتخطيط لأطفالنا: كيف سيرتدون ثوب التوغا، وكيف سيخدمون في الجيش، ويتسلّمون مهمّة إدارة ممتلكات آبائهم.

قد يعيش الأطفال، ولكن كم من السذاجة الجزم أنّهم سيصلون إلى سنّ الرشد - أو حتى إلى وقت العشاء:

> لم يكن ثمة وعدٌ لك بشأن هذه الليلة - لا، إذ افترضتُ

تأجيلًا طويلًا – لم يكن حتى ثمة وعدٌ لك بشأن هذه الساعة.

ثمة براءة خطيرة في توقُّع مستقبل يتشكّل على أساس الاحتمالات. إذ إنّ أي حادثٍ يطرأ للإنسان، بصرف النظر عن ندرته، أو بُعْده في الزمن، هو احتمال ينبغي أن نكون مهيَّئين له.

9 – لأنّ فترات الخير الطويلة التي تُسبغها فورتونا تُغوينا بالنعاس، يناشدنا سينيكا كي نكرّس قليلًا من الوقت يوميًا لتأمّل أفعالها. لا نعرف ما الذي سيحدث في ما بعد: لا بد أن نتوقّع كل شيء. في الصباح الباكر، لا بد علينا البدء بما يسمّيه سينيكا التبصّر، أي التأمّل الاستباقيّ، بشأن جميع بلايا العقل والجسد التي قد تُخضعنا الإلهة لها.

تبصُّر سينيكيّ

سيبدأ [الحكيم] كلّ يومٍ من أيامه بالتفكير...

لن تعطينا فورتونا أيّ شيء يكون بوسعنا امتلاكه فعليًا.

لا شيء مستقر، أكان عامًّا أو خاصًّا؛

مصائر البشر، وكذا مصائر المدن، في دوّامة.

كلّ بناءٍ شُيّد طوال سنوات طويلة، بكدّ كبير، ولطف الآلهة العظيم، سيُضحّى به ويتبدّد في يوم واحد. لا، ذاك الذي قال «يوم» قد أسبَغَ زمنًا طويلًا على مصيرٍ سريع؛ ساعة، لحظة من الزمن، تكفي لإسقاط إمبراطوريّات.

كم مدينة في آسيا، وكم مدينة في أكايا، قد مُحيت بفعل زلزال؟ كم بلدة في سوريا، وكم بلدة في مقدونيا، ابتلعها

twitter @baghdad_library

البحر؟ كم مرة تسبّب هذا الدمار بتحويل قبرص إلى أنقاض؟

إننا نعيش في قلب الأشياء المُقدَّر لها جميعها أن تموت.

لقد ولدتم فانين، وستنجبون فانين.

ترقَّبْ كلَّ شيء، وتوقَّعْ أيّ شيء.

10 - ويمكن إيصال هذا الفحوى ذاته بطرق أخرى. بلغةٍ فلسفيّة أكثر وعيًا، يمكن للمرء القول إنّ فاعليّة الفرد لا تشكّل إلا عاملًا واحدًا من العوامل السببيّة التي تحدّد مسار الأحداث في مسار حياته أو حياتها. لجأ سينيكا إلى الغلوّ المستمر بدلًا من ذلك:

كلّما سقط أحد بجانبك أو خلفك، اصرخ: «فورتونا، لن تخدعيني، لن تجديني واثقًا وغافلًا حين تهاجمينني. أعلم ما تخطّطين له. صحيحٌ أنّك هاجمتِ سواي، ولكنّك قصدتِني أنا».

(ينتهي النص الأصليّ بجِناس استهلاليّ ختاميّ مدهش:[1]

Quotiens aliquis ad latus aut pone tergum ceciderit, exclama: 'Non decipies me, fortuna, nec securum aut neglegentem opprimes. Scio quid pares; alium quidem percussisti, sed me petisti.').

11 - لم يشعر معظم الفلاسفة بحاجةٍ إلى الكتابة على هذا النحو لأنهم كانوا يثقون، طالما أنّ الحُجّة منطقيّة، أن الأسلوب الذي تُقدَّم فيه الحُجّة للقارئ لن يحدّد فعاليّته. ولكنّ سينيكا آمَنَ

(1) الجِناس الاستهلاليّ: تكرار حرفٍ في بداية كلمات متجاورة. [المترجم].

بوجود صورةٍ مختلفة للعقل. الحُجج كسمك الأنكليس: قد تنزلق من الاستيعاب الضعيف للعقل، أيًا يكن مدى منطقيّتها، ما لم تتعزّز بالبلاغة والأسلوب القويّ. نحتاج إلى مجازات لإيصال مغزى الأشياء التي نعجز عن رؤيتها أو لمسها، وإلا سننساها.

كانت الإلهة فورتونا، برغم جذورها الدينيّة اللافلسفيّة، الصورةَ التامةَ التي تدفعنا إلى التركيز على الحوادث على نحو دائم في أذهاننا، دامجين مجموعةً من التهديدات المحيقة بأمننا في عدوّ رهيب ذي سمات بشريّة.

الإحساس بالظلم

شعورُ أنّ قواعد العدالة قد انتُهكت، وهي قواعد تنصّ على وجوب مكافأتنا في حال كنا جديرين بالاحترام، ومعاقبتنا في حال كنا سيئين - إحساسٌ بالعدالة يُغرَس في الذهن في سنوات التعليم الأولى للأطفال، ويوجد في معظم النصوص الدينيّة، كما في سِفر التثنية الذي ينصّ على أنّ الإنسان الورع سيكون «كشجرة مغروسة عند مجاري المياه ... وكلّ ما يصنعه ينجح. ليس كذلك الأشرار، لكنّهم كالعصافة التي تذريها الريح».[1]

الخير ← الثواب

الشر ← العقاب

في الحالات التي يتصرّف فيها المرء على نحو صحيح، ولكن تصيبه كارثة برغم هذا، سيُترَكُ المرء مذهولًا وعاجزًا عن مناغمة

(1) الاقتباس المشار إليه من العهد القديم ليس من سفر التثنية كما يشير المؤلّف، بل من سفر المزامير: المزمور الأول، الآيتان 3-4. [المترجم]

twitter @baghdad_library

الحدث مع نظام العدالة. يبدو العالم عبثيًا. إذ يتأرجح المرء بين شعورٍ مفاده أنه قد يكون سيئًا في نهاية المطاف، فعوقب تبعًا لهذا، وشعورٍ أن المرء لم يكن سيئًا فعلًا، وبذا فهو ضحيّة لإخفاق كارثيّ في مؤسسة العدالة. وإنّ الإيمان المستمر أن العالم عادلٌ في الجوهر، متضمَّنٌ في جوهر الشكوى أن ثمة ظلمًا ما.

1 - لم تكن العدالة أيديولوجيا ساعدت مارسيا.

2 - لقد أرغَمَتْها على التذبذب بين شعورٍ مُوهِنٍ أن ابنها ميتيليوس قد اختُطف منها لأنها كانت سيئة، وشعور بالغضب حيال العالم - في لحظات أخرى - أن ميتيليوس قد مات، برغم كونها جيّدة بالعموم.

3 - ولكن لا يمكننا دومًا تفسير قَدَرنا عبر الإحالة إلى قيمتنا الأخلاقيّة؛ قد نكون ملعونين أو مرحومين من دون أن تكون العدالة وراء أيّ من الحالين. لا يحدث كلّ شيء لنا عبر الإحالة إلى شيءٍ بشأننا.

لم يمت ميتيليوس لأنّ أمه كانت سيئة، كما لم يكن العالم مُجحفًا لأنّ أمه كانت جيدة ومات هو برغم هذا. كان موته، بحسب توصيف سينيكا، عملًا من أعمال فورتونا، وليس للإلهة أحكام أخلاقيّة. إذ هي لم تقيّم ضحاياها كما فعل إله سفر التثنية، بحيث يحاسبهم تبعًا لأعمالهم. كانت تُنْزل الأذى متّسمةً بالعمى الأخلاقيّ للإعصار.

4 - أدرك سينيكا - في داخله - الدافعَ المُوهِنَ لتأويل الإخفاقات تبعًا لنموذج مضلَّل من العدالة. بعد تسلّم كلاوديوس للعرش في بداية عام 41، أصبح بيدقًا في خطّة رسمتها الإمبراطورة

ميسالينا لتخلّص نفسها من أخت كاليغولا، جوليا ليفيلا. اتّهمت الإمبراطورة جوليا بإقامة علاقة زنى، متّهمةً سينيكا جورًا بكونه عشيقها. فجُرّد في الحال من العائلة والمال والأصدقاء والسُّمعة ومكانته السياسيّة، ونُفي إلى جزيرة كورسيكا، وهي إحدى أكثر البقاع بؤسًا في الإمبراطوريّة الرومانيّة الهائلة.

ربما قاسى فترات عصيبة من لوم الذات ممتزجةً بمشاعر من المرارة. ربما لام نفسه على إساءة قراءة الوضع السياسيّ في ما يتعلق بميسالينا، واستاء من الطريقة التي قابل فيها كلاوديوس إخلاصه ومواهبه.

كلا المزاجين كان مستندًا إلى صورة لكونٍ أخلاقيّ تعكس فيها الظروف الخارجيّة مزايا داخليّة. وكان تذكُّر فورتونا مبعث ارتياح في هذه الرحلة التأديبيّة:

twitter @baghdad_library

لا أسمح [لفورتونا] بتطبيق عقوبة عليّ.

لم يكن ينبغي قراءة الإخفاق السياسيّ لسينيكا بكونه عقوبةً على خطاياه، إذ لم يكن عقابًا عقلانيًا استُخلص بعد دراسةٍ للأدلّة من عنايةٍ إلهيّةٍ متبصّرةٍ في قاعةِ محكمةٍ إلهيّةٍ؛ بل كان نتيجةً ثانويّةً قاسيةً وغير ذات معنى أخلاقيًا لمكائد إمبراطورة حقودة. لم يكتفِ سينيكا بإقصاء نفسه عن الخزي فحسب. إذ إنّ المسؤول الإمبراطوريّ الذي كانه لم يكن يستحق جميع الفضائل التي تسبغها عليه مكانته أيضًا.

أدخلَتْ تدخّلات فورتونا، أكانت لطيفة أم وحشيّة، عنصرًا عشوائيًا إلى المصائر البشريّة.

القلق

حالةٌ من الهياج بشأن وضع مُربِك يتمنى المرء أن تكون نتيجته مفرحة ويخشى أن تكون سيئة. وعادةً ما يترك من يعانون منه عاجزين عن الاستمتاع بالنشاطات المبهجة المفترَضة، ثقافيّة كانت أم جنسيّة أم اجتماعيّة.

حتى في أفضل المواقف، سيبقى الشخص القلِق مشغولًا بترقّبات شخصية بالخراب، وقد يفضّل أن يُترَك وحيدًا في غرفة.

1 - الصيغة المعتادة للارتياح هي الطمأنينة. ويفسّر المرء للقلقين أنّ مخاوفهم مبالَغ بها، وأنّ الحوادث لا بدّ أن تنتهي باتّجاه مرغوب.

2 - ولكنّ الطمأنينة قد تكون الترياق الأقسى للقلق. إذ إنّ توقّعاتنا الورديّة تترك الشخص القَلِق غير مهيّأ للأسوأ، وتُضمر على نحو غير متعمَّد أنّ الوضع سيكون كارثيًا لو حلّت النتيجة السيئة. ويطلب سينيكا منا بحكمة أكبر توقُّعَ أنّ الأمور السيئة قد تحدث، ولكنّه يضيف أنّ من الأرجح أنها لن تكون أسوأ مما توقّعنا.

3 - في شباط/ فبراير عام 63، عرف صديق سينيكا، لوسيليوس، الذي يعمل مسؤولًا مدنيًا في صقلية، أن ثمة دعوى قضائيّة ضدّه قد تُنهي عمله وتشوّه اسمه إلى الأبد. فكتب إلى سينيكا. ردَّ الفيلسوف، «قد تتوقّع أنني سأنصحك بتخيُّل نتيجة سعيدة،

twitter @baghdad_library

وأن تستسلم لإغراءات الأمل. ولكنني سأدلّك إلى راحة بال عبر طريق آخر» - ويمكن تلخيص هذا في النصيحة:

لو أردت نفض كلّ القلق، تخيَّل أن ما تخشى وقوعه سيقع فعلًا.

ويراهن سينيكا أننا، حالما نتعامل بعقلانيّة مع ما سيحدث لو لم تتحقق رغباتنا، سندرك على نحو كبير أن المشكلات الضمنيّة أصغر من حالات القلق التي تولّدها. يملك لوسيليوس أسبابًا للحزن لا الهستيريا:

لو خسرتَ هذه القضيّة، هل يمكن أن يحدث لك ما هو أسوأ من المنفى أو السجن؟ ... «قد أصبح فقيرًا»؛ سأكون واحدًا ضمن كثيرين. «قد أُنفى»؛ سأعتبر نفسي حينئذ كما لو أنني ولدت في المكان الذي سيرسلونني إليه. «قد يسجنونني». وليكن. هل أنا متحرّر من القيود الآن؟

السجن والمنفى مصيران قاسيان، ولكنهما - وهذا محور هذه المحاججة - ليسا أسوأ مما كان لوسيليوس المسكين سيتوقّع قبل التمحيص في القلق.

4 - هذا يستتبع عدم تطمين الأثرياء الذين يخشون ضياع ثروتهم بملاحظات بشأن عدم احتمال وقوع دمارهم. ينبغي عليهم قضاء عدة أيام في غرفة باردة معتمة ينفّذون حمية غذائيّة لا يتناولون فيها سوى الحساء والخبز البائت. وقد استعار سينيكا هذه النصيحة من أحد فلاسفته المفضَّلين:

اعتاد الفيلسوف المُتَعيّ العظيم أبيقور مراقبةَ فتراتٍ بعينها يكون فيها شحيحًا في إشباع جوعه... ليرى ما

إذا كان الاندفاع لجعل النقص أمرًا جيّدًا، مغامرةً جديرةً بالخوض.

وسرعان ما سيصل الثريّ إلى إدراك مهم، كما يعدنا سينيكا:

«هل هذا هو حقًا الظرف الذي كنت أخشاه؟»... تحمَّلْ [هذا الفقر] لثلاثة أيام أو أربعة، وربما أكثر أحيانًا... وسأضمن لك... أنّك ستدرك أنّ راحة بال المرء لا تعتمد على فورتونا.

5 - وجد كثيرٌ من الرومان أن من المفاجئ، بل السخيف، اكتشاف أنّ الفيلسوف الذي يقدّم نصيحةً كهذه عاش حياةً مترفة إلى حد معقول. في بداية أربعيناته، كان سينيكا قد جمع مالًا كافيًا لشراء فيلات ومزارع من خلال عمله السياسيّ. كان يأكل طعامًا ممتازًا، ويُعرَف بحبّه للأثاث الباهظ، بخاصة طاولات خشب الحمضيّات ذات الأرجل العاجيّة.

وكان يستاء من الإشارات التي تُلمّح إلى أنّ ثمة جانبًا لا فلسفيًا في سلوكه:

أوقفوا منع الفلاسفة من امتلاك المال؛ إذ لم يُرفق أحدٌ الحكمة بالفقر.

وببراغماتيّة مدهشة:

سأزدري كلّ ما يقع في نطاق فورتونا، ولكن لو كان ثمة خَيار، سأختار النصف الأفضل.

6 - لم يكن هذا نفاقًا. فالرواقيّة لا تشجّع على الفقر؛ بل توصي أن لا نخشاه أو نزدريه. وتعتبر الثروة، بحسب مصطلحاتها، مُستحَبّةً، أمرًا مرغوبًا - من دون أن تكون

twitter @baghdad_library

أمرًا جوهريًا ولا جريمة. يمكن للرواقيّين أن يعيشوا مع عطايا فورتونا كالحمقى. قد تكون منازلهم كبيرة، وأثاثهم جميلًا. ويوصَفون بكونهم حكماء بناءً على تفصيل وحيد: كيف سيستجيبون في مواجهة فقر مفاجئ. سيغادرون المنزل والخدم بلا غضب أو يأس.

7 - كانت الفكرة القائلة إنّ على الحكيم أن يكون قادرًا على التخلّي عن جميع عطايا فورتونا بهدوء، هي الشعار المتفرّد شديد الخصوصيّة للرواقيّة، باعتبار أنّ فورتونا لا تمنحنا المنازل والمال فحسب، بل تمنّ علينا كذلك بأصدقائنا، وعائلتنا، بل وأجسادنا.

> لا يمكن للحكيم أن يفقد شيئًا. إذ إنّ كل شيء مخزون داخله.
>
> الحكيم مكتفٍ بذاته... لو فقد يدًا بفعل مرضٍ أو حرب، أو تسبّب حادث باقتلاع عين أو اثنتين، سيكون قانعًا بما تبقّى.

وهذا يبدو سخيفًا ما لم ننقّح رؤيتنا عمّا يعنيه سينيكا بـ «قانعًا». لا ينبغي أن نشعر بالسعادة حين نفقد عينًا، ولكنّ الحياة ستبقى ممكنة حتى لو شعرنا بهذا. العدد الفعليّ للعيون والأيدي مُستحَبّ. مثالان عن هذا الموقف:

> لن يزدري الحكيم نفسه حتى لو كان على هيئة قزم، ولكنّه سيتمنى لو كان طويلًا مع هذا.
>
> الحكيم مكتفٍ ذاتيًا بمعنى أنّ بوسعه العيش من دون أصدقاء، لا بمعنى أنّه يتمنّى العيش بدونهم.

8 - كانت حكمة سينيكا أكثر من كونها نظريّة فحسب. بعد نفيه إلى كورسيكا، وجد نفسه محرومًا تمامًا من جميع الرفاهيّات. كانت الجزيرة رومانيّة منذ العام 238 ق. م، ولكنها لم تتمتّع بمزايا الحضارة. نادرًا ما كان السكّان الرومان القليلون يسكنون خارج المستوطنتين الواقعتين عند الساحل الشرقيّ، أليريا وماريانا، ولم يكن من الأرجح السماح لسينيكا أن يسكن في إحداهما، لأنّه تذمّر من سماع «حديث همجيّ» حوله، عدا عن وجود بناء كالح قرب لوري في الحافة الشماليّة للجزيرة أصبح يُعرَف منذئذ بكونه «برج سينيكا».

لا بد أنّ الظروف كانت متباينةً على نحو مؤلم مع الحياة في روما. ولكن في رسالة إلى أمه، شرح السياسيّ الثريّ السابق أنه تمكّن من التأقلم مع الظروف، وذلك بفضل سنوات من لحظات التأمّل الصباحيّة وفترات تناول الحساء الباهت:

كما لم أثق بفورتونا، حتى حينما بدت وكأنها تومئ بالسلام. إذ إنّني أقصيتُ كلّ النعم التي وَهَبَتْها بعطف لي - المال، المنصب، التأثير - إلى مكانٍ يمكن لها فيه أن تستعيدها منه من دون أن تزعجني. وقد أبقيت مسافةً واسعةً بيننا، وبذا فقد أخذتها منّي، من دون أن تنتزعها.

twitter @baghdad_library

شعورٌ بتلقّي السخرية من:

I. جمادات

إحساسُ أن أمنيات المرء قد أُجهضت عمدًا بفعل قلم رصاص ينزلق من الطاولة، أو دُرج يأبى أن يُفتَح. ويتضاعف شعور الإحباط المتولّد بفعل الجمادات عبر إحساس أنه يحصر المرء في وضع ازدراء. إنه يعمل بطريقة مُحبِطة كي يشير إلى أنّه لا يتشارك صورة ذكاء المرء أو مكانته التي يرتبط بها، والتي ينسبه الآخرون إليها.

II. أشياء حيّة

ألمٌ حادٌّ بالقدر ذاته ينبع من الانطباع أنّ الآخرين يهزأون سرًا من شخصيّة المرء.

عند وصولي إلى فندق في السويد، رافقني إلى غرفتي موظَّف عرض عليّ حمل أمتعتي. «ستكون ثقيلةً جدًا على رجل مثلك»، قال مبتسمًا، مشدّدًا على كلمة «رجل» مُبطِنًا المعنى المعاكس. كان بشعر أشقر إسكندنافيّ (ربما كان متزلّجًا، أو صيّاد أيائل؛ وربما كان محاربًا في العصور السابقة) ووجهٍ صارم. قال «سيستمتع المسيو بالغرفة». لم أعلم لمَ خاطبني «مسيو»، مع أنّه يعلم أنني قادم من لندن، كما أنّ استخدام «س» المستقبل يبدو أشبه بصيغة أمر. ستبدو الإشارة متعارضةً بوضوح، بل ودليلًا على وجود مؤامرة، إذ تبيَّنَ أنّ الغرفة تضجّ بأصوات حركة المرور؛ عدا عن عطلٍ في الدُّش، وتلفزيون مكسور.

لدى أناس هادئين وخجولين آخرين، قد يتسبّب الشعور بكونهم محطّ استهزاء بالانفجار في الصياح، وأفعال قاسية – بل حتى القتل.

1 – من المغري، حين نتأذّى، أن نجزم أن الأمر الذي آذانا قد تقصَّد ذلك. ومن المغري الانتقال من جملة تحوي عبارات مربوطة بحرف «و»، إلى جمل بعبارات مربوطة بـ «كي»؛ الانتقال من التفكير أنّ «قلم الرصاص سقط عن الطاولة وأنا منزعج الآن» إلى الرأي أنّ «قلم الرصاص سقط عن الطاولة كي يُزعجني».

2 – جمع سينيكا أمثلة عن هذه المشاعر من الاضطهاد بفعل جمادات. قدّمت لنا تواريخ هيرودوت واحدًا. قوروش، ملك فارس ومؤسس إمبراطوريتها العظيمة، كان لديه حصان أبيض جميل يمتطيه دومًا في المعارك. في ربيع العام 539 ق. م. أعلن الملك قوروش الحرب على الآشوريّين على أمل توسيع سلطته، وشن هجومًا بجيش ضخم على عاصمتهم، بابل، على ضفاف نهر الفرات. مضت الحملة على ما يرام، إلى أن وصل الجيش إلى نهر غندس، الذي ينبع من الجبال الماتينييه ويجري باتجاه نهر دجلة. كان غندس معروفًا بكونه خطرًا حتى في فصل الصيف، وقد كان – في هذا الوقت من العام – بنيًا مليئًا بالزَّبَد، طافحًا بفعل أمطار الشتاء. اقترح جنرالات الملك التأجيل، ولكنّ قوروش لم يعبأ بنصيحتهم وأصدر أوامره بالعبور الفوريّ. ولكن، أثناء تجهيز القوارب،

twitter @baghdad_library

انسلّ حصان قوروش على غفلة منهم محاولًا قطع النهر سباحةً. قبض التيّار على الحصان، وشلّ قدرته، وجرّه إلى موته.

اهتاج قوروش غضبًا. تجرّأ النهر على خطف حصانه الأبيض المفضَّل، حصان المحارب الذي أركع [الملك] كريسيس، وأرعب الإغريق. صاح وأطلق اللعنات، ثم قرّر وهو في ذروة غضبه أن يثأر من نهر غندس بسبب وقاحته. أقسَمَ أن يعاقب النهر عبر إضعاف تيّاره بحيث يمكن لامرأة أن تقطعه في المستقبل من دون عناء، بحيث لا تصل المياه إلى ركبتيها.

متجاهلًا خططه التوسّعيّة، قسم قوروش جيشه إلى قسمين، وحدّد مكان 180 قناةً صغيرة من كلّ ضفة باتجاهات مختلفة، وأمر جيشه بحفرها، وقد أخذ منهم هذا العمل الشاق الصيف بأكمله، فتحطّمت معنوياتهم، وتلاشى أيّ أمل بهزيمة سريعة للآشوريّين. وعندما انتهوا، كان نهر غندس قد انقسم إلى 360 قناة فرعيّة تجري فيها المياه ببطء، بحيث تمكّنت نساءٌ محليّات مندهشات من عبور الجدول الضعيف من دون تبليل تنانيرهنّ فعلًا. هدأ غضبه، فأمر ملك فارس جيشه المرهَق بمتابعة طريقه نحو بابل.

3 - جمع سينيكا أمثلة مشابهة بشأن الشعور بالاضطهاد بفعل أشياء حيّة. تعلَّقَ أحدها بالحاكم الرومانيّ لسوريا، غنايوس بيسو، الذي كان جنرالًا شجاعًا، ولكن ذا روح مضطربة. عندما عاد جنديٌّ من إجازته من دون صديقه الّذي رافقه، ثم ادّعى عدم معرفته بمكانه، حَكَم بيسو أن ذلك الجنديّ كاذب؛ وقد قتل صديقه، ولا بد أن ينال القصاص.

أقسَمَ المتَّهم أنه لم يقتل أحدًا، وتوسّل من أجل إجراء تحقيق، ولكنّ بيسو تجاهله، وأمر بقتل الجنديّ في الحال.

ولكن، وبينما كان الجلّاد يهيّئ نفسه لقطع رأس الجنديّ، وصل رفيقه المفقود إلى بوابة المعسكر. انفجر الجيش في تصفيق مبتهج عفويّ، فأوقف الجلّاد عمليّة الإعدام وقد ارتاح.

لم يتلقّ بيسو الخبر بهذه البهجة. إذ مع سماعه صيحات الابتهاج، أحسّ أنّهم يستهزئون بحُكمه. فاحمرّ وجهه غضبًا، ووصل غضبه إلى درجة أنّه استدعى حرّاسه وأمر بإعدام الجنديَّيْن، أي الجنديّ الذي لم يرتكب جريمة قتل، والجنديّ الآخر الذي لم يُقتَل. ولأنّه كان وصل إلى هذا الحد من الضيق، أمر كذلك بقتل الجلّاد علاوةً على كل ما حدث.

4 - كان حاكم سوريا قد أوَّلَ تصفيق جنوده بكونه أمنيةً منهم لتقويض سلطته، والتشكيك في أحكامه. وكذلك، أوَّلَ قوروش تسبُّبَ النهر بغرق الحصان بوصفه جريمة قتل مقصودة.

لدى سينيكا تفسير لأخطاء الحُكم هذه؛ إنه يترافق مع «ذلٍّ محدَّد في روح» بشرٍ مثل قوروش وبيسو. إذ خلف استعدادهم لتوقّع الإهانة، يكمن خوفٌ من السخرية المستحَقَّة. عندما نشكّ أننا أهدافٌ ملائمةٌ لتلقّي الأذى، لن يأخذ الأمر منا الكثير كي نجزم أن شخصًا أو شيئًا ما ينوي أذيّتنا:

> «لم يقابلني فلان اليوم مع أنّه قابل آخرين»؛ «نَفَر بعجرفة أو سخر بصراحة من كلامي»؛ «لم يعرض عليّ كرسيًا محترَمًا، بل وضعني عند طرف الطاولة».

twitter @baghdad_library

قد تكون ثمة أسباب بريئة. لم يقابلني اليوم لأنّه كان يفضّل رؤيتي الأسبوع القادم. بدا وكأنّه يسخر مني، ولكن كان ذاك مجرّد تقلّص في الوجه. ليست هذه هي التفسيرات الأولى التي تَرِد إلى أذهاننا عندما نكون ذليلي الروح.

5 - إذًا، لا بدّ أن نسعى كي نحيط انطباعاتنا الأولى بحاجز حماية، وأن نرفض التصرّف تبعًا لنتائجها فورًا. لا بد أن نسأل أنفسنا، لو لم يردّ شخصٌ ما على رسالة، ما إذا كان يفعل هذا لُيزعجنا بالضرورة، وما إذا كانت المفاتيح الضائعة قد سُرقت بالضرورة:

> لا يقوم [الحكيم] بوضع تفسير خاطئ لكلّ شيء يصادفه.

6 - وتمّ تفسير سبب ذلك على نحو غير مباشر من قِبل سينيكا في رسالة إلى لوسيليوس، عندما وقع على جملة في أحد أعمال الفيلسوف هيكاتو:

> سأُطلعك على ما أحببته اليوم في [كتاباته]؛ هذه هي الكلمات: «ستتساءل، ما التقدّم الذي أحرزتُه؟ بدأت بالتصالح مع نفسي». تلك كانت فائدة كبرى حقًا... قد تكون واثقًا أن رجلًا كهذا يصلح أن يكون صديقًا للبشريّة بأسرها.

7 - ثمة طريقة سهلة لقياس مستوياتنا الداخليّة من الذل وعدم قابليتنا للتصالح مع أنفسنا: ينبغي أن نقيّم مدى استجابتنا للفوضى. عاش سينيكا قرب نادٍ رياضيّ. كانت الجدران رقيقةً، والجلَبة مستمرة. وصف المشكلة للوسيليوس:

تخيّلْ مدى تنوّع الضجيج الذي يتردّد حول أذنيّ!... على سبيل المثال، عندما يتدرّب رجل متحمّس برفع أثقال نحاسيّة، أو حينما يكدّ في تدريباته، أو يتظاهر بكونه يتدرب بجدّ، يكون بوسعي سماع زمجراته؛ وكلّما زفر بقوّة، يكون بوسعي سماعه وهو يلهث بصفير عالٍ. وعندما يتحوّل انتباهي إلى رجل آخر أقل نشاطًا، يستمتع بتدليك عاديّ غير مكلف، يكون بوسعي سماع صفقات يد المدلِّك على كتفيه... ولا بدّ للمرء أن يضيف إلى هذا اعتقال لصّ أو نشّال أحيانًا، أو جلَبة رجل يحبّ سماع صوته في الحمّام دومًا أو الحلّاق وصياحه الحاد الثاقب ثم بائع الحلوى ونداءاته المتنوّعة، وبائع السجق، والبقّال وكلّ مرتادي المتاجر.

twitter @baghdad_library

8 - وسيجد من لا يكونون متصالحين مع أنفسهم أن من الصعب تخيُّل أنّ بائع الحلوى يصيح ليبيع حلوى. البنّاء في الطابق الأرضيّ من فندق في روما (1) ربما يتظاهر بترميم الجدار، ولكنّ نيّته الفعليّة هي إزعاج الرجل الذي يحاول قراءة كتاب في غرفة الطابق العلويّ (2).

تفسير دنيء: البنّاء يدندن كي يزعجني. تفسير ودود: البنّاء يدندن وأنا منزعج.

9 - كي نهدّئ أنفسنا في الشوارع الصاخبة، لا بد أن نثق أن مَنْ يصدرون تلك الجلَبة لا يعرفون شيئًا عنا. ينبغي أن نضع حاجز حماية بين الجلَبة في الخارج، والإحساس الداخليّ بعقابٍ مستحَق. ولا ينبغي أن نغرق في سيناريوات تتضمّن تأويلات تشاؤميّة بشأن دوافع الآخرين. بهذا، لن تكون الجلَبة مبهجة على الإطلاق، ولكنّها لن تتسبّب بإغضابنا.

قد تغصّ جميع الأماكن الخارجيّة في الهرج والمرج، شريطة أن لا تضمّ إزعاجًا داخلها.

3

بالتأكيد، سيكون ثمة إنجازات بشريّة عظيمة لو تقبَّلْنا جميع الإحباطات. ويكون محرّك إبداعنا متمثّلًا بالسؤال «هل يجب أن يكون الأمر بهذا الشكل؟»، الذي تنبع منه إصلاحات سياسيّة، وتطوّرات علميّة، وعلاقات مُحَسَّنة، وكتب أفضل.

كان الرومان شديدي البراعة في رفض الإحباطات. كانوا

يكرهون برد الشتاء، فطوّروا نظام تدفئة تحت الأرض. لم يحبّوا المشي في الطرق الموحلة، لذا رصفوها. في منتصف القرن الأول للميلاد، قرّر السكّان الرومان في مدينة نيم في البروفانس حاجتهم لمزيد من المياه لمدينتهم أكثر مما كانت تهبهم إياه الطبيعة، لذا أنفقوا مئة مليون سسترس[1] في بناء رمزٍ استثنائيّ لمقاومة الإنسان للوضع القائم. إلى شمال نيم، قرب أوزيه، وجد المهندسون الرومان مصدرًا مائيًا قويًا بما يكفي لتأمين مياه الحمّامات والنوافير في مدينتهم، ورسموا مخطّطات لنقل المياه 50 ميلًا عبر الجبال والوديان في منظومة من القنوات والأنابيب تحت-الأرض. وعندما واجه المهندسون الفجوة الكهفيّة لنهر غائر، لم يستسلموا أمام عقبة الطبيعة بل حفروا قناةً ثلاثيّة الأفرع، بطول 360 مترًا وعمق 48 مترًا، بحيث تتّسع لـ 35 ألف مترٍ مكعب من المياه يوميًا - بحيث لن يعاني سكّان نيم من إحباط شحّ المياه في الحمّام.

(1) السسترس: عملة رومانيّة فضيّة قديمة. [المترجم].

twitter @baghdad_library

للأسف، من الصعب إيجاد الملَكات العقليّة التي تبحث بكدّ عن بدائل. إنها تتابع خلق سيناريوات للتغيير والتقدّم حين لا يكون ثمة أمل لتبديل الواقع. كي نولّد الطاقة المطلوبة لدفعنا إلى العمل، سيتم تذكيرنا بنكسات الانزعاج – القلق، الألم، الغضب، الاستياء – التي تومئ إلى أنّ الواقع لا يكون كما نتمنّاه. ومع ذلك، لن يكون لهذه النكسات أيّ نفع لو عجزنا بالنتيجة عن التأثير في التطوّر، لو فقدنا راحة بالنا مع عجزنا عن تحويل مسار الأنهار؛ ولذا، بالنسبة إلى سينيكا، تكمن الحكمة في التمييز الصحيح للحظة التي نكون فيها قادرين على تطويع الواقع وفقًا لرغباتنا، ومتى ينبغي علينا قبول الأمور العصيّة على التغيير بهدوء.

كان لدى الرواقيّين صورة أخرى يستدعون عبرها وضعنا ككائنات في الأوقات التي نكون قادرين فيها على التغيير برغم خضوعنا الدائم للضرورات الخارجيّة. إننا نشبه الكلاب المربوطة إلى عربة لا يمكن التنبّؤ بها. لجامنا طويل بما يكفي لمنحنا درجةً من حريّة التحرّك، ولكن دون أن يُتيح لنا التحرّك كما نرغب.

صِيْغَ هذا التشبيه من قِبل الفيلسوفَيْن الرواقيَّيْن زينون وكريسيبوس، ونقله الكاهن الرومانيّ هيبوليتوس:

> عند ربط كلبٍ إلى عربة، لو أراد أن يتبعك، سيتمّ سحبه ليتبعك، جاعلًا عفويّته متزامنةً مع الضرورة. ولكن لو لم يتحرك الكلب، سيتمّ إرغامه في جميع الأحوال. وكذا الأمر مع البشر أيضًا: حتى لو لم يرغبوا، سيتم إرغامهم على اتّباع ما هو مُقدَّر.

سيأمل الكلب – على نحو طبيعيّ – أن يتحرك كما يشاء. ولكن

بحسب المجاز الذي سكّه زينون وكريسيبوس، لو عجز الكلب عن هذا، سيكون من الأفضل له أن يخبّ خلف العربة بدلًا من جرّه وخنقه عبرها. وبرغم أنّ النزعة الأولى للكلب قد تكون مواجهة الانحرافات المباغتة للعربة في اتجاهات مؤلمة، فإنّ كل ما سيحدث هو تضاعف آلامه بفعل المقاومة.

وكما صاغها سينيكا:

الحيوان الذي يقاتل لمقاومة الأنشوطة سيضيّقها... ولن يكون النِّير الضيّق أقلّ إيلامًا إلا إذا تجاوَبَ معه الكلب بدلًا من مقاومته. فالتّخفيف الوحيد للشر المهيمن يكون عبر تحمّل الضرورة والإذعان لها.

لتخفيض عنف تمّردنا على الأحداث التي تُعاكس رغباتنا، لا بدّ أن نجزم أننا، كذلك، لم نوجد يومًا من دون لجام حول أعناقنا. سيتعلّم الحكيم تمييز ما هو حتميّ ليتتبّعه فورًا، بدلًا من إرهاق أنفسنا في الاحتجاج. وحين يقال لحكيم إنّ حقيبته ضاعت في قاعة ترانزيت، سيتكيّف مع هذا الواقع خلالٍ لحظات. ولقد نقل سينيكا كيف تصرَّفَ مؤسّس الرواقيّة بعد ضياع أملاكه:

عندما تلقّى زينون الأنباء بشأن تحطّم سفينة، وسمع

twitter @baghdad_library

أنّ جميع أمتعته غرقت، قال: «قدَّرتْ فورتونا أن أكون فيلسوفًا مُثقَلًا على نحو أقل».

قد تبدو هذه وصفةً للسلبيّة والاستكانة، وتشجيعًا على إخضاع أنفسنا للإحباطات التي ربما تكون قد هيمنت. قد تتركنا بلا همّةٍ حتى لو لشقّ قنطرة صغيرة كتلك الموجودة في بورنيغر، في وادٍ على بعد عدة كيلومترات شمال بون دو غار، بطول 17 مترًا، وعمق 4 أمتار.

ولكنّ مغزى سينيكا حاذقٌ على نحو أكبر. إذ إنّ مقدار اللامعقوليّة في تقبّل شيء على أنه حتميّ حين لا يكون كذلك، يكون هو ذاته حين نتمرّد على شيءٍ يكون حتميًا. ويمكن أن نتوه بسهولة عبر تقبّل اللاحتميّ وإنكار الممكن، كما حين ننكر الحتميّ ونطلب المستحيل. فالعقل هو الذي يحدّد التمييز.

بصرف النظر عن التشابهات التي تكون بيننا وبين الكلب المربوط بلجام، فإنّنا نملك ميزة نقديّة: لدينا العقل الذي لا يملكه الكلب. ولذا، لن يستوعب الكلب بدايةً أنّه مربوط بلجام، كما لن يدرك الرابط بين انحرافات العربة وألم عنقه. ستُربكه تغيّرات الاتجاهات، وسيكون من الصعب عليه حساب مسار العربة، وسيعاني من ضربات مؤلمة مستمرة. ولكنّ العقل يمكّننا من تخمين مسار العربة بدقّة، ما يمنحنا فرصة، فريدة بين الكائنات الحيّة، لرفع مستوى إحساسنا بالحرّية عبر تكريس مسافة معقولة بيننا وبين الأمور المقدَّرة. يتيح لنا العقل تحديد متى تكون أمنياتنا في تعارض تام مع الواقع، ثم يدفعنا إلى إخضاع أنفسنا طوعًا، بدلًا من الخضوع بغضب أو مرارة. قد نكون عاجزين عن تغيير حوادث

بعينها، ولكننا نبقى أحرارًا في اختيار موقفنا حيالها، كما أننا نجد حرّيّتنا التمييزيّة في تقبّلنا العفويّ للمحتوم.

في شباط/ فبراير عام 62، واجه سينيكا واقعًا غير قابل للتغيير. لم يعد نيرون ينصت لمعلّمه العجوز، وتجنَّبَ مرافقته، وحثَّ على الافتراء عليه في المحكمة، وعيَّن قائدًا متوحّشًا من الحرس الإمبراطوريّ، أوفينيوس تيغيلينوس، لمساعدته في إطلاق العنان لشهوته للقتل العشوائيّ والعنف الجنسيّ. كانت العذراوات تُختَطَفُ من شوارع روما إلى غرف قصر الإمبراطور. وكان يتم إرغام زوجات أعضاء مجلس الشيوخ على المشاركة في حفلات جنس جماعيّ، ويشاهدن أزواجهنّ يُقتلون أمام أعينهنّ. كان نيرون يجول المدينة ليلًا متنكّرًا بزيّ رومانيّ عاديّ ليذبح العابرين في الشوارع الخلفيّة. وقع في حب صبيّ صغير وتمنّى لو كان بنتًا، لذا أخصاه، وأقام حفل زفاف ساخر. كان الرومان يسخرون بمرارة بالقول إن حياتهم كانت لتكون أكثر راحةً لو أنّ دوميتيوس والد نيرون تزوّج بامرأة كهذه. وعندما أدرك أنّه في خطر بالغ، حاول سينيكا الانسحاب من المحكمة والتزام الصمت في منزله خارج روما. قدَّم استقالته مرتين؛ ورفضها نيرون مرتين، محتضنًا إياه بقوة مُقْسمًا أنه يفضّل الموت على إيذاء معلّمه المحبوب. ولم يكن ثمة شيء في تجربة سينيكا يُتيح له تصديق مثل هذه الوعود.

عاد إلى الفلسفة. كان عاجزًا عن التملّص من نيرون، ولذا دفعه عقله إلى تقبّل ما يعجز عن تغييره. وخلال سنوات لا يمكن وصفها إلا بكونها عصيبة إلى حدّ لا يمكن احتماله، كرَّس سينيكا نفسه لدراسة الطبيعة. بدأ تأليف كتاب عن الأرض والكواكب. تأمّل

twitter @baghdad_library

السماء الواسعة وتجمّعات النجوم، ودرس البحر والجبال العالية. وراقب التماعات البرق وانهمك في دراسة منابعها:

> صاعقة البرق نارٌ ضُغطت ثم قُذفت بعنف. أحيانًا نمسك الماء في كفّينا المتشابكتين ونضغط راحتينا لنقذف الماء كما تفعل المضخّة. تصوّروا حدوث أمرٍ مماثل في السُّحب. المجال المتقلّص للغيوم المضغوطة يدفع الهواء المحصور بينها، فيشتعل بفعل الضغط، وينقذف كالمنجنيق.

كما درس الزلازل واعتبرها نتيجةً للهواء المحصور داخل الأرض الذي يحاول الخروج، وضربًا من التطبُّل الجيولوجيّ:

> من بين البراهين على حدوث الزلازل بفعل الهواء المتحرك، هذا برهانٌ لا ينبغي التردُّد في تقديمه على غيره: عندما يسلّط اهتزازٌ عظيمٌ غضبه على المدن والأرياف، لا يمكن أن يستتبعه اهتزاز آخر. بعد الصدمة الكبرى، لن نشهد سوى هزّات صغيرة لأنّ الاهتزاز الأول، الأكبر قوّةً، حفر مخرجًا للهواء المحصور.

بالكاد يهمّنا مدى خطأ علم سينيكا، بل ثمّة دلالة أهم بشأن رجل كانت حياته مهدَّدة بالنهاية في أيّة لحظة بقبضة إمبراطور متوحّش، فالتجأ إلى دراسة الطبيعة لتهدأ نفسه - ربما لأنّ في الظواهر الطبيعيّة الكبرى يكمنُ كلّ ما نعجز عن تغييره، وكلّ ما ينبغي علينا تقبّله. فالانهيارات الثلجيّة، والبراكين، والزلازل، والأعاصير رموزٌ هائلة للأمور التي تفوق قدرتنا وإدراكنا. في العالم البشريّ، يتنامى إيماننا أن بمقدورنا دومًا تغيير مصائرنا، فنأمل ونقلق تبعًا لهذا.

ومن الواضح من التدفّق المستمر للمحيطات أو طيران النيازك عبر السماء الليليّة أن ثمّة قوى غير معنيّة على الإطلاق برغباتنا. وهذه اللامبالاة ليست حكرًا على الطبيعة وحدها؛ إذ قد يسلّط البشر قوى عمياء مماثلة على أقرانهم، ولكنّ الطبيعة هي التي تلقّننا الدرس الأسمى بشأن الحتميّات التي ينبغي أن نخضع لها:

> يجلب الشتاء طقسًا باردًا، ولا بدّ أن نرتجف. يعود الصيف بحرارته؛ ولا بدّ أن نتعرّق. الطقس غير الخاضع للفصول يُربك الصحة؛ ولا بدّ أن نمرض. في بقاع بذاتها، قد نواجه وحوشًا بريّة، أو بشرًا أكثر تدميرًا من أيّ وحش... ونحن عاجزون عن تغيير نظام الأشياء... إلى هذا القانون [من الطبيعة] لا بدّ لأرواحنا أن تكيّف نفسها، وعليها الامتثال له ... ما تعجز عن إصلاحه، من الأفضل تحمّله.

twitter @baghdad_library

شرع سينيكا بكتابه عن الطبيعة عندما قدّم استقالته الأولى لنيرون. ارتاح ثلاث سنوات. ثم في نيسان/ أبريل عام 65، كُشفت مؤامرة بيسو ضد الإمبراطور، فأُرسل قائد إلى منزل الفيلسوف. كان مستعدًا. ربما انفجرت باولينا عارية الصدر وخادماتها بالبكاء –

– ولكنّ سينيكا كان قد تعلّم الخضوع للعربة بهدوء، فقطع شرايينه من دون أدنى احتجاج. وكما ذكَّر مارسيا عند فقدان ابنها ميتيليوس:

ما الفائدة من البكاء على أجزاءٍ من الحياة؟
إذ هي بأسرها تدعو للدّموع.

twitter @baghdad_library

IV

العزاء

بشأن العجز

twitter @baghdad_library

1

بعد قرون من الإهمال، بل العداء أحيانًا، وبعد تبديدها وحرقها بحيث لم ينجُ منها إلا شذرات حُفظت في أقبية ومكتبات الأديرة، عادت حكمة اليونان وروما القديمة بقوّة إلى الواجهة في القرن السادس عشر. نشأ إجماعٌ بين النخب الفكريّة في أوروبا، أنّ أعظم تفكير معروف في العالم كان ذاك الموجود في أذهان مجموعة من العباقرة في المدن-الدول في اليونان وشبه الجزيرة الإيطاليّة بين بناء البارثينيون ونهب روما – وأن ليس ثمة حاجةٌ ملحّة أكبر بالنسبة إلى المتعلّمين من تطويع أنفسهم مع غنى تلك الأعمال. وتم إصدار طبعات جديدة أساسيّة من أعمال أفلاطون، لوكريتيوس، سينيكا، أرسطو، كاتولوس، لونجينوس، شيشرون، من بين آخرين؛ ومختارات من الأعمال الكلاسيكيّة – أبوفتيغماتا وأداغا لإراسموس، وسينتنتيا لستوبيوس، والرسائل الذهبية لأنتونيو دي غيفارا، والتعلّم المشرِّف لبيتروس كرينيتوس – توزّعت في مكتبات في أرجاء أوروبا.

في جنوب غربي فرنسا، على قمّة تل من الغابات على بعد

30 ميلًا شرق بوردو، توجد قلعة جميلة مبنيّة من حجارة صفراء وسقوف من الأحمر الداكن.

كانت القلعة منزلًا لنبيل في منتصف العمر، مع زوجته فرانسواز، وابنته ليونور، وخدمهم وحيوناتهم (دجاج، ماعز، كلاب، أحصنة). كان جد ميشيل دو مونتين قد اشترى هذا العقار عام 1447 من عائدات تجارة السمك المملّح التي اشتُهرت بها العائلة، وأضاف إليها أبوه عدة أجنحة ووسّع الأرض الصالحة للزراعة، وبدأ الولد الاعتناء بها منذ سنّ الخامسة والثلاثين برغم اهتمامه الضئيل بإدارة العقارات، ومعرفته التي تكاد تكون معدومة بالزراعة («يمكنني بالكاد تمييز الملفوف عن الخس»). وكان يفضّل قضاء وقته في مكتبة دائريّة في الطابق الثالث من برج يقع عند أحد أركان القصر: «أقضي معظم أيام حياتي هناك، ومعظم ساعات كل يوم».

twitter @baghdad_library

كان للمكتبة ثلاث نوافذ (تطل على ما يصفه مونتين بكونه «منظرًا رائعًا مفتوحًا على المدى»)، ومكتب، وكرسيّ؛ وعلى خمس مجموعات ثلاثيّة من الرفوف على شكل نصف دائرة، هناك ما يقارب ألف مجلد في الفلسفة، والتاريخ، والشعر، والدين. هنا قرأ مونتين خطاب سقراط («أحكم رجل على الإطلاق») القويّ الموجَّه إلى المحلَّفين المَلولين في أثينا، في طبعة لاتينيّة لأعمال أفلاطون ترجمها مارسيليو فيتشينو؛ وهنا قرأ رؤية أبيقور عن السعادة في كتاب ديوجينيس لايرتيوس حيوات، وكتاب لوكريتيوس في طبيعة الأشياء الذي حرّره دينيس لامبان عام 1563؛ وهنا قرأ وأعاد قراءة سينيكا (وهو مؤلّفٌ «راق لي كثيرًا») في طبعة جديدة من أعماله صدرت في بال عام 1557.

كان قد درس اللغات الكلاسيكيّة في سنّ مبكّرة. وتعلّم اللاتينيّة كلغة أم. وفي السابعة أو الثامنة، كان قد قرأ كتاب التحوّلات لأوفيد. وقبل أن يبلغ السادسة عشرة، كان قد اشترى مجموعة أعمال فيرجيل، وحفظ الإنيادة، علاوةً على أعمال تيرينس، وبلوتوس، وتعقيبات قيصر. وكذا كان إخلاصه للكتب، بحيث قام بعد عمله كمستشار في برلمان بوردو مدة ثلاثة عشر عامًا بالتقاعد لتكريس نفسه كليًا للقراءة. كانت القراءة هي مصدر الراحة في حياته:

> كانت مصدر تعزيتي في عزلتي؛ كانت تُريحني من وطأة التبطّل الباعث على الاكتئاب، ويمكنها - في أي وقت - أن تخلّصني من الرفاق المملّين. وكانت تخفّف نوبات الألم حين لا يكون الألم مستعصيًا أو شديدًا إلى درجة كبيرة. الالتجاء إلى الكتب هو كلّ ما أحتاج إليه كي أطرد الأفكار الكئيبة.

ولكنّ رفوف المكتبة، بكلّ تضميناتها لاحترامٍ لا نهائيّ لحياة العقل، لم تكن تروي القصة كاملةً. إذ على المرء أن ينظر مليًا حول المكتبة، يقف في منتصف الغرفة ويرفع رأسه إلى السقف: في منتصف سبعينات القرن السادس عشر، كان مونتين يمتلك مجموعة من سبعة وخمسين لوحة لعبارات محفورة مستقاة من الكتاب المقدّس والكتب الكلاسيكيّة في كل زوايا الأعمدة الخشبيّة، وكانت جميعها تشير إلى بعض الملاحظات المهمّة بشأن منافع امتلاك العقل:

> الحياة الأكثر سعادة هي أن تعيش من دون تفكير -
> سوفوكليس

twitter @baghdad_library

هل رأيت رجلًا يظنّ أنه حكيم؟ بإمكانك أن تأمل بقَدْرٍ أكبر من النّفع من مجنون – أمثال

ليس ثمة يقين أشدّ من اللايقين، ولا شيء أكثر بؤسًا وافتخارًا من الإنسان – بليني

كل شيء شديد التّعقيد بحيث يتعذّر على الإنسان فهمه- سفر الجامعة

(الجملة في الانكليزي مكتوبة بتصرف كما ترجمتها، وليست مأخوذة حرفيا من الانجيل كما كتب يزن)

آمن الفلاسفة القدماء أن باستطاعة قوى عقلنا أن تمدّنا بالسعادة والعَظَمة الممنوعتين عن الكائنات الأخرى. يُتيح لنا العقل التحكّم بأهوائنا وتصحيح الأفكار المغلوطة التي تحثّنا عليها غرائزنا. فالعقل يروّض المطالب الجَموحة لأجسادنا ويقودنا إلى علاقة متوازنة مع شهواتنا للطعام والجنس. كان العقل أداة مركَّبةً، بل ومقدّسة تمنحنا السيادة على العالم وعلى أنفسنا.

في المناقشات التوسكولانيّة، حيث كان ثمة نسخة منها في المكتبة الدائريّة، كان شيشرون قد أغرَقَ في مديح منافع العمل الفكريّ:

> ليس ثمة مهنةٌ أجمل من البحث الفكريّ؛ البحث هو الوسيلة لزيادة معرفتنا، طالما أننا في هذا العالم، بشأن لا نهائيّة المادة، وجلال الطبيعة الهائل، والسماوات، والأرض، والبحار. علّمنا البحثُ الورعَ، والاعتدال، وعظمة القلب؛ إنه ينتشل أرواحنا من الظلمة ويبيّن لها كلّ الأشياء، السامية والدنيا، الأولى والأخيرة، وكلّ ما بينهما؛ يمدّنا البحث بوسائل العيش براحة وسعادة؛ إنه يعلّمنا كيف نعيش حيواتنا من دون استياء أو انزعاج.

وبرغم امتلاكه ألف كتاب، وانتفاعه من تعليمٍ كلاسيكيّ رائع، إلا أنّ هذا المديح أغاظ مونتين، إذ كان يتعارضُ بشدّة مع روح الكتابات على أعمدة المكتبة، بحيث عبّر عن سخطه بصراحة شديدة:

> الإنسان كائن مسكين ... أنصِتْ إليه وهو يتبجّح فحسب
> هل هذا الكائن هو من يمثّل مزايا الربّ العظيم

twitter @baghdad_library

والخالد! في الواقع، ثمة آلاف من النسوة العاديّات ممّن عشنَ في قراهنّ حيواتٍ أكثر لطفًا، وهدوءًا، واستقرارًا من [شيشرون].

تغاضى الفيلسوف الروماني عن مدى التعاسة الشديد الذي عاش فيه معظم الباحثين؛ تجاهل بتعجرف المشكلات المروّعة التي التصقت بالبشر وحدهم من بين جميع الكائنات الأخرى - مشكلات قد تتركنا، في اللحظات البائسة، نادمين على أنّنا لم نولد نملًا أو سلاحف. أو ماعز حتّى. وُجدتْ هذه في مزرعة على بعد عدة كيلومترات من قصر مونتين، في قرية ليه غوشيه.

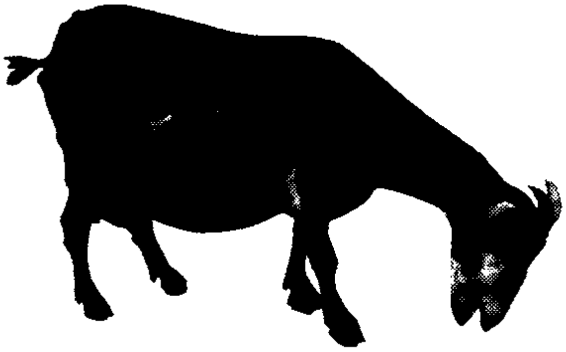

إنها لم تقرأ المناقشات التوسكولانيّة أو القوانين لشيشرون. ومع ذلك، بدت مرتاحةً، وهي تقضم أوراقًا من الخس، هازّةً رأسها أحيانًا كامرأة عجوز تعبّر عن استياء صامت. ليست تلك حياةً غير مرغوبة على الإطلاق.

كان مونتين بنفسه قد انجذب، وتوسّع في دراسة مزايا العيش كحيوان، لا كإنسان مفكّر يملك مكتبة ضخمة. كانت الحيوانات تعرف غريزيًا كيف تساعد أنفسها حين تمرض: يمكن للماعز تمييز الريحان من بين ألف نبتة أخرى حين تصاب بجرح، كما

تبحث السلاحف فورًا عن نبتة المردكوش حين تعضّها الأفاعي، كما يمكن لطيور اللقلق حَقْنَ نفسها بالماء المالح. في المقابل، كان البشر مرغمين على الاعتماد على الأطباء المضلِّلين مرتفعي التكاليف (كانت خزائن الأدوية مليئة بوصفات سخيفة: «بول سحليّة، روث فيل، كبد بغل، دمٌ مسحوبٌ من أسفل الجناح الأيمن لحمامة بيضاء، أما بالنسبة للذين يعانون من نوبات مغصٍ دوريّةٍ فعلاجهم هو براز جرذ مسحوق»).

وكذلك، تفهم الحيوانات الأفكار المعقّدة غريزيًا من دون الدخول في معاناة فترات طويلة من الدراسة. فسمك التونة خبير عفويّ في علم الكواكب. «حيثما كانت، حين تُفاجَأ بالانقلاب الشتويّ، تبقى مكانها حتى الاعتدال الربيعيّ»، يقول مونتين. كما أنها تفهم الهندسة والحساب، إذ تسبح معًا في مجموعات على شكل مكعّبٍ كامل: «لو قمت بعدّ الأسماك في خط واحد، ستتمكّن من معرفة العدد الكليّ، إذ إنّ الرقم ذاته ينطبق على الارتفاع، والعرض والطول». أما الكلاب فتمتلك استيعابًا فطريًا للمنطق الديالكتيكيّ. أشار مونتين إلى أحدها، حين كان يبحث عن سيّده، صادف مفترَق طرق ثلاثيّ أمامه. نظر باتجاه الطريق الأول بدايةً، ثم الثاني، ثم ركض باتجاه الثالث بعد أن أدرك أنّ سيده قد اختاره:

> هنا يكمن الديالكتيك الصرف: استفاد الكلب من الطروحات التخييريّة والربطيّة وأحصى الأجزاء بكفاءة. هل ثمة أهميّة ما إذا كان قد تعلّم كلّ هذا بنفسه أم من ديالكتيك جورج التريبيزونيّ؟

وعادةً ما يكون للحيوانات اليد الطولى في الحبّ أيضًا. قرأ

twitter @baghdad_library

مونتين بحسد قصة فيل وقع في حبّ بائعة زهور في الإسكندريّة. أثناء عبوره في السوق، عرف كيف يمسّ بجسده المتغضّن ياقة ثوبها، ويدلّلك نهديها ببراعةٍ لا يمكن لأيّ إنسان أن يضاهيها.

ومن دون أن نحاول التجربة، يمكن لأصغر حيوانات المزرعة أن يتفوّق على السموّ الفلسفيّ لأكثر الأساطير القديمة حكمةً. سافر الفيلسوف اليونانيّ بيرّو مرةً على متن سفينة علقت في عاصفة قويّة. أصاب الهلع جميع الركّاب حوله، خائفين من أن تحطّم الأمواج العالية سفينتهم الهشّة. ولكن ثمة راكب وحيد لم يفقد أعصابه، وجلس بصمت في زاوية، وعلى وجهه تعابير هادئة. كان خنزيرًا:

> هل نجرؤ على الاستنتاج أنّ فائدة العقل (التي نُعلي من شأنها كثيرًا، والتي نعتبر أنفسنا من خلالها أسيادَ كلّ الكائنات) وُضعت فينا كي تعذّبنا؟ ما فائدة المعرفة لو فقدنا الهدوء والسكينة التي ينبغي لنا أن نتمتّع بهما دونها، ولو كانت تجعل وضعنا أسوأ من وضع خنزير بيرّو؟

كان مثارًا للجدل ما إذا كان العقل قد وهبنا أيّ شيء ينبغي أن نكون ممتنّين بشأنه:

> خُصّص لنا التقلّب، والتردّد، والشك، والألم، والتطيُّر، والقلق بشأن ما سيحدث (حتى بعد موتنا)، والطموح، والجشع، والغيرة، والحسد، والعناد، والجنون، والشهوات الجامحة، والحرب، والكذب، والخيانة، والنميمة، والفضول. نتباهى بعقلنا المنطقيّ المُنْصِف، وقدرتنا على الحُكم والمعرفة، ولكنّنا حصلنا على كلّ هذا مقابل ثمن باهظٍ على نحو غريب.

لو أُتيح له الاختيار، ربما لم يكن مونتين سيختار العيش كماعز في نهاية المطاف - ولكن كاد يفعل. كان شيشرون قد قدّم الصورة الخيّرة للعقل. وبعد ستة عشر قرنًا، كان على مونتين أن يقدّم الأمر المقابل:

أن نتعلمّ أنّ ما قلناه أو فعلناه شيءٌ أحمق ليس أمرًا ذا أهميّة، بل يجب تعلُّم درسٍ أكثر إسهابًا وأهميّة: أننا لسنا سوى حمقى.

الأشدّ حماقةً بين جميع الكائنات التي لم يكن فلاسفة مثل شيشرون يظنّون أنها ترقى إلى مرتبة التصنيف أساسًا. الثقة بالعقل الموضوعة في غير محلّها كانت منبع الحماقة - وكانت كذلك منبع الضعف، على نحو غير مباشر.

بين أعمدته المنقوشة، كان مونتين قد وضع خطوطَ نمطٍ جديدٍ من الفلسفة، يُقِرُّ بمدى بعدنا عن الكائنات الهادئة العاقلة التي كان معظم الفلاسفة القدماء يعتبروننا نماذجها الأسمى. كنا معظم الأحيان كائنات هستيريّة مجنونة فظّة مهتاجة كانت تبدو الحيوانات في مقابلها، وفي كثير من الجوانب، نماذج للصحّة والفضيلة - وهذا واقعٌ بائسٌ كان من واجب الفلسفة تبيانه، ولكنّها نادرًا ما قامت بذلك:

تتشكّل حياتنا نصفًا في الجنون ونصفًا في الحكمة: وكلّ من يكتب عنها يتجاهل أكثر من نصفها بدافع من الاحترام والقواعد السائدة.

ولكن، لو تقبّلنا زلّاتنا، وتوقّفنا عن ادّعاء وجود تفوّقٍ لا نملكه

twitter @baghdad_library

حقًا، سنكتشف - بحسب فلسفة مونتين الخَلاصيّة الغنيّة - أنّنا لا نزال ملائمين في نهاية المطاف بطريقتنا الفريدة نصف-الحمقاء نصف-الحكيمة.

2

عن العجز الجنسيّ

كم من المربِك امتلاك جسد وعقل، إذ يتعارض الأول على نحو يكاد يكون تامًا مع كرامة وذكاء الثاني. أجسادنا تشمّ، وتتألم، وتضعف، وتنبض، وتخفق، وتهرم. إنها ترغمنا على إطلاق الغازات والتجشّؤ، وعلى أن نهجر الخطط ذات المغزى كي نستلقي في السرير مع أناس يتعرّقون ويصدرون أصواتًا انفعاليّة تذكِّر بالضّباع وهي تنادي بعضها بعضًا عبر الأراضي المجدبة للصحارى الأميركيّة. أجسادُنا تضع عقولَنا رهينةً لنزعاتها وإيقاعاتها. ويمكن أن تتغيّر وجهة نظرنا بشأن الحياة كليًا بفعل عمليّة هضم غداء ثقيل. «أُحسُّ بأنّني شخص مختلف قبل تناول وجبة وبعدها»، وهذا ما يوافق عليه مونتين:

> عندما تبتسم لي الصحةُ الجيّدةُ ويومٌ مشمس رائع، أشعر بالابتهاج؛ أعطني إظفر إصبع منغرسًا في قدمي، فأصبح سيىء المزاج، نزقًا، بحيث لا يمكن التعامل معي.

حتّى أعظم الفلاسفة لم يُستثنَوا من الذلّ الجسديّ. «تخيّلوا أفلاطون وقد أَقْعَدَه الصّرع أو السكتة الدماغيّة، ثمّ تحدُّوه أن

يجد أيّ منفعة من كلّ تلك الملَكات النبيلة والرائعة للروح»، يقول مونتين. أو تخيّلوا أنّ أفلاطون قد سيطر عليه إلحاح لإطلاق الغازات خلال إحدى مناقشاته:

> تمتلك العضلة العاصرة المسؤولة عن تفريغ معدتنا تمدّداتٍ وتقلّصاتٍ خاصة بها، بمعزل عن رغباتنا، بل قد تتعارض معها.

سمع مونتين قصة رجلٍ كان يطلق الغازات حين يشاء، وقام مرةً بإطلاق الغازات بتناغمٍ مع إيقاع قصيدة، ولكنّ مثل هذه البراعة لم تتعارض مع ملاحظتِه العامة بشأن تحكّم أجسادنا بعقولنا، وأنّ العضلة العاصرة «تميل إلى الاستقلال والتمرّد». بل سمع مونتين حالة تراجيدية عن مؤخّرة رجل «كانت من القوّة والفظاظة إلى حدّ أنها أرغمت صاحبها على إطلاق الغازات باستمرار وقوة مدة أربعين عامًا، ما أدّى إلى وفاته».

لا عجب أننا نميل إلى إنكار تعايشنا المُضِرّ والمهين مع أجزاء الجسد هذه. التقى مونتين بامرأة كانت شديدة الخشية من مدى تمرّد جهازها الهضميّ فحاولت العيش كما لو أنّها لا تملك واحدًا:

> [هذه] السيّدة (من بين الأغلبيّة)... تميل إلى الرأي القائل إنّ المضغ يشوّه الوجه، ويُنقص الكثير من رقّة المرأة وجمالها؛ لذا حين تجوع، تتفادى الظهور علنًا. كما أعرف رجلًا يعجز عن تحمّل مراقبة الناس أثناء تناولهم الطعام، أو أن يراقبوه وهو يأكل: كان يتجنّب الناس حين يملأ معدته بقدرٍ أكبر مما لو كان يُفرغها.

كان مونتين يعرف أناسًا تَحْكُمُهم شهواتهم الجنسيّة إلى درجة

twitter @baghdad_library

أنّهم أنهوا معاناتهم بإخصاء أنفسهم. وحاول آخرون كبح شهوتهم عبر ضاغطات ثلج وخل على خصاهم مفرطة النشاط. لقد أمر الإمبراطور ماكسيميليان، الذي كان واعيًا لوجود تعارضٍ بين أن تكون ملكًا وأن تمتلك جسدًا، بعدم وجوب أن يراه أحد عاريًا، بخاصة ما تحت خصره. وشدّد في وصيّته على أن يُدفَن وهو يرتدي ملابس داخليّة من الكتّان. «كان ينبغي عليه إضافة ملحقٍ للوصيّة ينصّ على وجوب أن يكون الرجل الذي سيُلبسه إياها معصوب العينين»، كما أشار مونتين.

بصرف النظر عن مدى انجذابنا إلى مثل هذه المعايير المتطرّفة، نجد أنّ فلسفة مونتين تتسمّ بالتوفيقيّة: «أكبر بلاءاتنا هي ازدراءُ كينونتنا». بدلًا من محاولة شطر أنفسنا إلى قسمين، لا بدّ أن نتوقّف عن شنّ حرب أهليّة على أوعيتنا الفيزيولوجيّة المُربِكة وأن نتعلّم تقبُّلَها بكونها حقائق غير قابلة للتغيير تتعلق بوجودنا كبشر، وأنها ليست شديدة الشناعة أو الإهانة.

صيف العام 1993، سافرت ل. معي إلى شمال البرتغال لقضاء عطلة. قدنا السيارة عبر قرى مقاطعة مينيو، ثم قضينا عدة أيام جنوب فيانا دو كاستيلو. هنا، في آخر ليالي عطلتنا، في فندق صغير مطلٍّ على البحر، اكتشفتُ - دون سابق إنذار - أنّني عاجزٌ عن ممارسة الجنس. كان من الممكن بالكاد التغلّب على المشكلة، دع عنك مجرّد ذكر التجربة، لو لم أقرأ، قبل سفري إلى البرتغال بعدة أشهر، الفصل الخامس والعشرين من المجلّد الأول من مقالات مونتين.

يروي المؤلف هناك أنّ أحد أصدقائه كان قد سمع رجلًا يشرح فقدانه لقدرته على الانتصاب حينما كان على وشك الإيلاج. أثّرَ

الإحراج بفعل هذا العجز على صديق مونتين بشدّة، إلى درجة أنّه عجز عن طرد الحادثة من ذهنه كلّما فكّر بمضاجعة امرأة، وتعاظمَتْ في داخله الخشيةُ من أن تلحق به الكارثة ذاتها إلى حدّ أنّ قضيبه عجز عن الانتصاب. ومنذئذ، بصرف النظر عن مدى اشتهائه لأيّة امرأة، بقي عاجزًا عن الانتصاب، وكانت الذكرى المشينة لكلّ محاولةٍ فاشلة تؤرّقه وتحتلّه على نحو أكبر تدريجيًا.

أصبح صديق مونتين عاجزًا جنسيًا بعد إخفاقه في تحقيق السيطرة العقلانيّة الراسخة على قضيبه، بحيث اعتبرها سمة لا يمكن فصلها عن الرجولة الطبيعيّة. لم يقم مونتين بلوم القضيب: «باستثناء العجز الكليّ، لن تصبح عاجزًا أبدًا لو تمكّنتَ من فعلها مرةً واحدة». كانت الفكرة المهيمنة أننا نمتلك سيطرةً عقليّة على أجسادنا، والهلع من فكرة مغادرة صورة الحالة الطبيعيّة تلك، هما ما تسبّبا بعجز الرجل. وكان الحل يتمثّل بإعادة رسم الصورة؛ بتقبُّل فقدان السيطرة على القضيب على أنه احتمال وارد أثناء ممارسة الجنس، لا يمكن للمرء نفيُ احتمال وقوعه - كما اكتشف الرجل المُبتلى أخيرًا. لقد تعلَّمَ، في السرير مع امرأة:

> الاعترافَ مُسبقًا أنه خاضعٌ لهذا العجز، والتحدّث عنه بصراحة، بحيث يُريح اضطرابات روحه. عبر اعتبار العلّةِ أمرًا متوقَّعًا، سينخفض شعوره بالانقباض وتخفّ وطأته عليه.

أَفْضَتْ صراحة مونتين إلى إراحة التوتّرات القابضة على روح القارئ. استُئصلت الأمزجة الفظّة للقضيب من الارتدادات المظلمة للخزي الصامت، وأُعيد تقييمها وفقًا للعين الخبيرة الراسخة لفيلسوفٍ تعجز العلل الجسديّة عن تنفيره. وثمة إحساسٌ بأن اللوم قد تقلَّصَ بفعل ما وصفه مونتين بكونه:

twitter @baghdad_library

العصيان [الشامل] لهذا العضو الذي يُقحم نفسه في غير أوانه عندما لا نرغب بذلك، كما يُقصي نفسه في غير أوانه، حين نكون في أمسّ الحاجة إليه.

يمكن للرجل الذي أَخْفَقَ في مضاجعة عشيقته وبات عاجزًا عن أيّ شيء سوى الهمهمة معتذرًا، أن يستعيد قواه ويخفّف قلق حبيبته عبر تقبُّل أن هذا العجز ينتمي إلى مجال واسع من الحظ الجنسيّ العاثر، من دون أن يكون شديد النُّدرة أو الغرابة. عرف مونتين نبيلًا من مقاطعة غاسكونيا جنوب فرنسا، أَقْدَمَ بعد إخفاقه في الانتصاب على العودة إلى المنزل وقطع قضيبه وإرساله إلى تلك المرأة «كتكفير عن إساءته لها». ولكنّ أشار مونتين بدلًا من ذلك:

لو لم يكن [الزوجان] مستعدَّيْن، ينبغي لهما ألّا يستعجلا الأمور. وعوضًا عن الوقوع في بؤس دائم بسبب صدمة اليأس بعد رفضٍ أول، من الأفضل... انتظارُ لحظةٍ ملائمة... إذ على الرجل الذي يعاني بسبب رفض عضوٍ ما الامتثال له أن يقوم بمحاولات وتمهيدات لمبادرات صغيرة متنوّعة؛ يجب ألّا يتابع بعناد إقناع نفسه بأنه عاجز إلى الأبد.

كانت تلك لغةً جديدةً، حميميّة وغير انفعاليّة، لتبيان اللحظات الأكثر وحدة في حياتنا الجنسيّة. عبر شقّ طريقه إلى المآسي الخصوصيّة في غرفة النوم، عمد مونتين إلى تفريغها من الخزي، كمحاولة لجعلنا نتصالح مع ذواتنا الجسديّة. وأسهمت شجاعته في ذكر ما يُعاش على نحو سرّي، بحيث لا نسمع به إلا نادرًا، في توسيع مجال ما يمكن لنا أن نجرؤ على البوح به لأحبّتنا ولأنفسنا – شجاعةٌ مؤسَّسةٌ على اقتناع مونتين الراسخ أنّ كلّ ما يحدث للبشر لا يمكن أن يكون غير بشريّ، وأنّ «كلّ إنسان يحمل الصيغة الكليّة للوضع

البشريّ»، وهو وضعٌ يتضمّن - من دون وجود أيّ داعٍ للخجل أو كره أنفسنا بسببه - خطر حدوث ترهّلٍ عنيدٍ في القضيبٍ أحيانًا.

عزا مونتين مشكلاتنا مع جسدنا - جزئيًا - إلى غياب النقاش الصريح بشأنها في الدوائر المهذّبة. لا تميل القصص والصور التمثيليّة إلى مماهاة الرقّة الأنثويّة مع رغبة متّقدة لممارسة الجنس، أو السُّلطة مع امتلاك عضلة عاصرة أو قضيب. لا تشجّعنا صور الملوك والنساء الأرستقراطيّات على التفكير أن هؤلاء يطلقون غازات أو يمارسون الجنس. ضخّم مونتين الصورة بلغة فرنسيّة جميلة فظّة:

Au plus eslevé throne du monde si ne sommes assis que sur nostre cul.

حتى على أعلى العروش في العالم نجلس، ولكن على مؤخّراتنا.

Les Roys et les philosophes fientent, et les dames aussi.

الملوك والفلاسفة يتبرّزون: وكذا تفعل السيّدات.

الملك هنري الثالث

twitter @baghdad_library

كاترين دو ميديتشي

كان بوسعه طرحها على نحو آخر. يستبدل «*cul*» بـ «*derrière*» أو «*fesses*». ويستبدل «*fienter*» بـ «*aller au cabinet*». يشرح قاموس راندل كوتغريف قاموس اللغتين الإنكليزيّة والفرنسيّة (لتعزيز معرفة المتعلّمين الصغار، وفائدة جميع المتعلمين الآخرين الساعين للتوصّل إلى المعرفة الأدقّ باللغة الفرنسيّة)، المطبوع في لندن عام 1611، أن مفردة «*fienter*» تشير تحديدًا إلى عملية إطراح الحشرات والطيور الطفيليّة وحيوان الغرير فقط. وقد كان سبب ميل مونتين إلى هذه اللغة القويّة بهدف تصحيح إنكارٍ قويٍّ بالقدر ذاته للجسد في أعمال الفلسفة وصالات المنازل. إذ إنّ الفكرة القائلة إنّ السيدات الراقيات لا يضطررن لغسل أيديهنّ أبدًا، وإنّ الملوك لا مؤخرات لهم، جعلت من المحتّم حالًا تذكير العالم أنهم يتبرّزون ويمتلكون مؤخرات:

النشاطات التناسليّة للبشر طبيعيّة جدًا، وضروريّة جدًا، وصحيحة جدًا: ما الذي فعلوه لجعلنا لا نجرؤ على ذكرها

> من دون إحراج، ولإقصائها من الأحاديث الجادّة؟ إننا لا نخشى النطق بمفردات يقتل، أو يسرق، أو يخون؛ ولكن لا نجرؤ على نطق تلك المفردات الأخرى إلا همسًا من بين أسناننا.

قرب قصر مونتين كانت توجد عدة غابات من أشجار الزان، إحداها باتجاه الشمال بجانب قرية كاستيلون-لا-باتاي، وأخرى إلى الشرق بجانب سانت فيفيان. لا بد أنّ ابنة مونتين، ليونور، عرفت صمت تلك الغابات وجلالها. لم تكن متشجّعةً لمعرفة أسمائها: المرادف الفرنسيّ لكلمة «شجر الزان» هو «*fouteau*». والمرادف الفرنسيّ لكلمة «يضاجع» هو «*foutre*». «كانت ابنتي – ليس لي أطفال غيرها – في سنٍّ تكون فيها الفتيات الأكثر شغفًا قادرات على الزواج قانونيًا». قال مونتين عن ليونور التي كانت في الرابعة عشرة آنذاك:

> إنها نحيلة ورقيقة؛ بحسب بشرتها كانت تبدو أصغر من سنّها، إذ رُبّيت بهدوء على يدي أمها؛ إنها بالكاد تتعلمّ كيفية التخلّص من براءة طفولتها. كانت تقرأ كتابًا فرنسيًا في حضوري عندما وردتْ أمامها تلك الكلمة المعروفة لشجر fouteau. سارعَتْ المرأة التي كانت راعيتها بجذبها بشيءٍ من الوقاحة وأرغمتها على القفز فوق ذلك الخندق الغريب.

ويشير مونتين بشيء من السخرية إلى أنّ عشرين خادمًا جلفًا كانوا سيعجزون عن تعليم ليونور بشأن ما يكمن خلف كلمة «*fouteau*» بقدر أكبر من زجرٍ صارم لتجاهل تلك الكلمة. أما بشأن

twitter @baghdad_library

المربّية، أو «العجوز الشمطاء» كما كان يسمّيها من وظَّفَها، كانت تلك القفزة ضروريّة لأنّ الفتاة الشابة لن تتمكّن بسهولة من مزج الوقار مع معرفة ما سيحدث لو وجدت نفسها، بعد عدة سنوات، في غرفة نوم مع رجل.

كان مونتين يعيب على تصوّراتنا المحافظة أنّها تتجاهل قدرًا كبيرًا من ماهيّتنا. وقد كان سبب تأليف كتابه يعود جزئيًا لكونه يحاول تصحيح هذا الأمر. وعندما تقاعد في سن الثامنة والثلاثين، تمنّى التفرّغ للكتابة، ولكنّه لم يكن واثقًا بشأن الموضوع الذي سيتناوله. تدريجيًا فحسب، خطرت له فكرة تأليف كتاب غير اعتياديّ على نحو كبير يختلف عن آلاف المجلّدات الموجودة على الرفوف نصف الدائريّة.

تجاهل ألفيّاتٍ من الخَفَر الكتابيّ الذي يُبعد المؤلّفين عن الكتابة عن أنفسهم. وجهّز نفسه لتوصيف آليات جسده وعقله بأكبر وضوح ممكن - مصرّحًا بِنِيَّته في تصدير كتابه «مقالات»، الذي صدر منه مجلّدان في بوردو عام 1580، ثم أضاف مجلّدًا ثالثًا في طبعة باريسيّة بعد ثماني سنوات:

> بعدما وجدتُ نفسي بين أولئك الناس الذين يُقال إنّهم لا يزالون يعيشون في ظل الحرّية الجميلة لقوانين الطبيعة الأوّليّة، بوسعي أن أضمن لكم أنّني راغب أشدّ الرغبة في توصيف نفسي كليًا، عاريًا تمامًا.

لم يكن ثمة مؤلّف، حتى ذلك الحين، توّاقًا لعرض نفسه على قرّائه من دون ملابس تستره. لم يكن ثمة نقص في اللوحات الشخصيّة الرسميّة ذات اللباس الكامل، أي التوصيفات بشأن

حيوات القدّيسين والبابوات، والأباطرة الرومان، والسياسيّين اليونانيّين. بل حتى كان ثمة لوحة شخصيّة رسميّة لمونتين نفّذها توما دو لو (حوالي 1620 - 1622)، تُظهر مونتين مرتديًا ملابس الطبقة الراقية في المدينة، مع وشاح وسام سان-ميشيل الذي قلّده إياه شارل التاسع عام 1571، مع تعبير مبهم، أقرب إلى التجهّم، على وجهه.

ولكن لم تكن هذه الذات الشيشرونيّة المُسَرْبَلة بالثياب الراقية هي ما كان مونتين يتمنى أن تعرضها المقالات. كان معنيًا بالإنسان ككل، بإيجاد بديلٍ للّوحات الشخصيّة التي كانت قد تجاهلت معظم ما في الإنسان. ولذا جاء كتابه ليتضمّن نقاشات عن وجباته، وقضيبه، وبرازه، ومغامراته الجنسيّة، وغازاته - وهي تفاصيل نادرًا ما كانت تُعرض في كتاب جدّي من قبل، وكانت تؤثّر بشدة على صورة الإنسان عن نفسه ككائن عاقل. وقد أعلمَ مونتين قرّاءه:

إن سلوك قضيبه يشكّل جزءًا جوهريًا من هويّته:

كل عضو من أعضاء جسدي، بالتساوي، يكوّن ذاتي: ولا

twitter @baghdad_library

يمكن لعضو واحد أن يكوّنني كإنسان على نحو تام أكثر من العضو الآخر. أَدِينُ بصورتي الكاملة لاجتماع هذه الأعضاء.

إنه وجد الجنس صاخبًا وفوضويًا:

في كل مكان آخر يمكن لك أن تحافظ على شيء من الحشمة؛ جميع النشاطات الأخرى تمتثل لقواعد اللياقة: أما ذلك النشاط الآخر فهو الوحيد الذي يمكن اعتباره عاصفًا أو سخيفًا. حاول فحسب أن تجد طريقة حكيمة وفريدة لفعلها!

إنه كان يحب الهدوء حين كان يجلس على المرحاض:

من بين جميع العمليات الطبيعيّة، تلك هي العملية التي لا أكون مستعدًا فيها لتحمُّل أيّ إزعاج.

وأنه كان شديد الانتظام بشأن الذهاب إلى المرحاض:

لا أُخلف أيّ موعد مع أمعائي، بخاصة حين أنزل من سريري (ما لم يزعجنا عمل أو مرض طارئ).

أسبغنا أهمّيةً على نمط البورتريهات الشخصيّة المحيط بنا، وهذا يعود إلى أنّنا نُكيِّف حيواتنا تبعًا لمثالها، متقبّلين مظاهر لأنفسنا حين تتوافق مع ما يذكره الآخرون عن أنفسهم. ما نجده مدعومًا بالأدلة لدى آخرين، سنلجأ إليه داخليًا، وما يصمت عنه الآخرون، قد نبقى عميانًا عنه أو نعايشه بشعور من الخزي.

حين أتخيل أكثر الرجال حكمة وأعمقهم تأملًا في أوضاع [جنسية] سأعتبر أنّ من الوقاحة ادعاء ذلك الرجل أنه متأمّل وحكيم.

ما سعى مونتين إليه ليس اعتبار أنّ الحكمة مستحيلة، بل تحديد ظلال المعنى في تعريف الحكمة بذاته. لا بد أن تتضمّن الحكمة تعايشًا مع ذواتنا الدنيا، ولا بد أن تتبنّى رؤية متواضعة بشأن الدور الذي يمكن أن يلعبه الفكر والثقافة العالية في أيّة حياة، وأن تقبل المتطلّبات العاجلة، واللاتنويريّة أحيانًا، لإطارنا الدنيويّ. كان الفلاسفة الأبيقوريّون والرواقيّون قد أشاروا أنّ بوسعنا تحقيق سيادة على أجسادنا، من دون أن تجرفنا ذواتنا الفيزيولوجيّة والعاطفيّة. إنّها نصيحة نبيلة تتداخل مع تطلّعاتنا العليا. كما أنها مستحيلة، وبذا هي غير منتجة:

> ما نفع تلك الذرى الفلسفيّة الشاهقة التي لا يمكن أن يستقر عليها أيّ إنسان، وتلك القواعد التي تفوق استطاعتنا وقدرتنا؟
>
> ليس واضحًا جدًا [للإنسان] كيفيّة تطويع التزاماته مع معايير نمطٍ مختلفٍ من الكينونة.

لا يمكن إنكار الجسد أو تجاوزه، ولكن على الأقل ليس ثمة حاجة، كما تمنّى مونتين تذكير «العجوز الشمطاء»، للاختيار بين الوقار والاهتمام بالـ *fouteau*:

> ألا يمكن لنا القول إنّه ليس ثمة شيء في داخلنا، في هذا السجن الأرضيّ، يكون جسديًا صرفًا، أو روحانيًا صرفًا، وإنّ من المضرّ والمهين أن نمزّق الإنسان الحيّ؟

twitter @baghdad_library

3

عن العجز الثقافيّ

ثمة مسبّب آخر للإحساس بالعجز هو السرعة والعجرفة اللتان يبدو أنّ الناس يعتمدون عليهما لتقسيم العالم إلى معسكرَيْن، معسكر الطبيعيّ، ومعسكر اللاطبيعيّ. تميل تجاربنا واعتقاداتنا عادةً إلى التلاشي عقب سؤال ساخر مع شيء من التحذير، «حقًا؟ يا للغرابة!»، مترافقًا مع حاجب مرفوع، يكاد يعادل إنكارًا لشرعيّتنا وإنسانيّتنا.

في صيف العام 1580، ركّز مونتين على الرغبة بالحياة، وقام برحلته الأولى خارج فرنسا، منطلقًا على صهوة حصان إلى روما عبر ألمانيا، والنمسا، وسويسرا. سافر برفقة أربعة نبلاء شبّان، بمن فيهم شقيقه بيرتران دو ماتكولون، وعدد من الخدم. كانوا يخطّطون للبقاء خارج الوطن سبعة عشر شهرًا، قاطعين 3000 ميل. عبر بلدات أخرى، شقّ الفريق طريقه في بال، بادن، شافهاوزن، أوغسبورغ، إنسبروك، فيرونا، فينيسيا، بادوفا، بولونيا، فلورنسا، سيينا – ليصلوا إلى روما أخيرًا في مساء آخر أيام تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1580.

ومع سفر الفريق، كان مونتين يراقب كيف كانت أفكار الناس بشأن الطبيعيّ تتغيّر بحدّة من مقاطعة إلى أخرى. في حانات كانتونات سويسرا، كانوا يعبترون أنّ من الطبيعيّ أن تكون الأسِرّة مرتفعة عن الأرض، بحيث يكون على المرء أن يصعد عدة درجات للوصول إليها، وأن تكون حولها ستائر جميلة، وأن يكون للمسافرين غرفٌ خاصة بهم. فيما على بعد عدة أميال. في ألمانيا، كان من الطبيعي أن تكون الأسِرّة قليلة الارتفاع عن الأرض، وألّا تضمّ الغرفة ستائر حولها، وأن ينام كلّ أربعة مسافرين في غرفة. وكان أصحاب الحانات هناك يقدّمون لحافًا من الريش بدلًا من الملاءات التي تُقدّم في حانات فرنسا. في بال، لم يكن الناس يمزجون الخمر مع الماء، ولكنّهم يقدّمون ستة أو سبعة أطباق على العشاء، أما في بادن فقد كانوا يتناولون السمك أيام الأربعاء فقط. وكانت تتم حراسة أصغر قرى سويسرا من شرطيَّيْن على الأقل؛ وكان الألمان يقرعون الأجراس كل ربع ساعة، فيما يقرعونها كل دقيقة في بلدات أخرى. وفي لنداو، كانوا يقدّمون شوربة السفرجل، ويقدَم صحن اللحم قبل الشوربة، ويضاف نبات الشّمّر إلى الخبز أثناء خبزه.

كان المسافرون الفرنسيّون يشعرون بانزعاج كبير من تلك الاختلافات. وكانوا يبتعدون عن بوفيهات الفنادق ولائحة أطعمتها الغريبة، طالبين أطباقهم المعتادة التي يعرفونها من الوطن. ولم يحاولوا التحدّث إلى أيّ أحد يرتكب خطأً عدم التحدث بلغتهم، ويقضمون لقمهم بحرص من خبز الشّمر وكان مونتين يراقبهم من طاولته:

twitter @baghdad_library

حينما يخرجون من قراهم، يحسّون كأنهم أسماك خرجت من المياه. وكلما ابتعدوا يحنّون إلى طرقهم ويلعنون الطرق الأجنبيّة. ولو صادفوا مواطنًا لهم سيحتفون بالحادثة بنكد واحتراس صامت يسافرون ملتحفين بعباءاتهم ويحمون أنفسهم من عدوى الطقس المجهول.

في منتصف القرن الخامس عشر، في مقاطعات ألمانيا الجنوبيّة، تم تطوير طريقة جديدة لتدفئة المنازل: الـ كاستينوفن [*kastenofen*]، موقد حديديّ قائم بذاته على شكل صندوق، مصنوع من صفائح مستطيلة الشكل ملحومة معًا، يمكن إشعال الحطب أو الفحم فيه. في الشتاءات الطويلة، كانت مزاياه كبيرة. يمكن للمواقد المغلقة ان تعطي أربعة أضعاف حرارة النار المكشوفة، مع استهلاكها كمية أقل من الوقود، ودونما حاجة للتنظيف. كان الغلاف يمتص الحرارة وينشرها ببطء وتساوٍ عبر الهواء. وتُثبَّت أعمدة حول الموقد لتجفيف الملابس، بل كان بإمكان العائلات استخدام مواقدهم كأماكن للاجتماع حولها في خلال الشتاء.

ولكن لم ينبهر الفرنسيّون بهذا. إذ وجدوا أنّ المواقد المكشوفة أرخص تكلفة في البناء؛ وهاجموا المواقد الألمانية لكونها لا تقدّم مصدرًا للإضاءة، وتمتص كمية كبيرة من رطوبة الهواء، ما يبعث إحساسًا خانقًا في الغرفة.

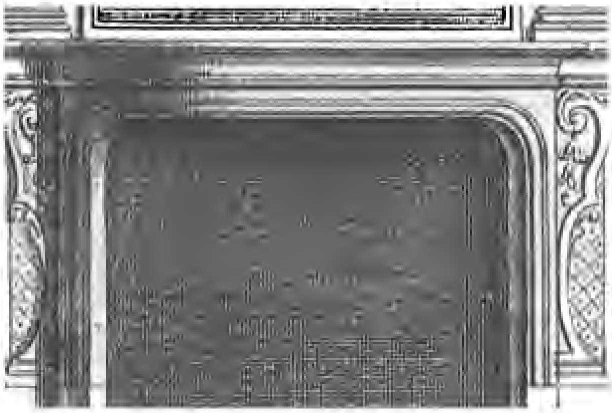

كانت المسألة متعلقة بسوء فهم مناطقيّ. في أوغسبورغ في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1590، التقى مونتين بألمانيٍّ أبدى نقدًا مطوّلًا للطريقة التي كان فيها الفرنسيّون يدفئون بيوتهم بالمواقد المكشوفة، ثم تابع كلامه ممتدحًا مزايا الموقد الحديديّ. وعند سماع أنّ مونتين سيقضي أيامًا قليلة في البلدة (كان قد وصل في الخامس عشر، وسيغادر في التاسع عشر)، أبدى الرجل أسفه، معدّدًا من بين مساوئ مغادرة أوغسبورغ «ثقل الرأس» الذي سيعاني منه حالَ عودته إلى المواقد المكشوفة - وهو «ثقل الرأس» ذاته الذي كان الفرنسيّون يشتكون طويلًا من أنّ المواقد الحديديّة تسبّبه.

تفحّص مونتين القضيّة في مناطق متقاربة. في بادن، خُصصت له غرفة بموقد حديديّ، وحالما اعتاد على الرائحة المحدَّدة التي يطلقها، قضى ليلةً مريحة. وقد لاحظ أنّ الموقد سمح له بارتداء ثوب من دون عباءة فرو، وبعد عدة أشهر، في ليلة باردة في إيطاليا،

twitter @baghdad_library

أبدى ندمه بسبب غياب المواقد في حانته. ولدى عودته إلى الوطن، أَدْرَجَ مزايا كل نظام من نظامَيْ التدفئة:

صحيحٌ أنّ المواقد الحديدية تعطي حرارة ثقيلة الوطأة، عدا عن أنّ مواد الصناعة تطلق رائحة عند ارتفاع الحرارة تسبّب صداعًا لدى غير المعتادين عليها ... لكن من جهة أخرى، بما أنّ الحرارة التي تُعطيها متساوية، ومستمرة ومنتشرة، دون وجود اللهب المرئيّ أو الدخان أو الجفاف الذي تسبّبه المواقد المكشوفة لدينا، فهذا يعطيها أسبابًا كثيرة تؤهّلها لمنافسة مواقدنا.

وهكذا، فإنّ ما أَزْعَجَ مونتين كانت الاقتناعات العنيدة غير المدقَّقة لكل من الرجل الأوغسبورغيّ والفرنسيّين بشأن أنّ نظام التدفئة لدى كلّ منهم أرقى من الآخر. ولو قام مونتين، عند عودته من ألمانيا، بوضع موقد حديدي من أوغسبورغ في مكتبته، لكان مواطنوه سيقابلونه بتشكيك يُبدونه عند مواجهة أيّ أمر جديد:

لدى كل أمّة عادات وممارسات لا تُعتَبر مجهولةً لدى الأمم الأخرى فحسب، بل همجيّةً ومثارًا للعجب أيضًا.

ولكن، بالطبع، لم يكن ثمة ما هو همجيّ أو عجيب بشأن الموقد الحديديّ أو المدفأة. يبدو أنّ تعريف الطبيعيّ الذي يطرحه أيّ مجتمع لا يلتقط إلا جزءًا ممّا يكون منطقيًا في الواقع، مُقصيًا بإجحاف أقسامًا كبيرة من التجربة معتبرًا إياها غير ذات صلة. وعبر التبيان للرجل الأوغسبورغيّ وجيرانه الغاسكونيّين أنّ للموقد الحديديّ والمدفأة المكشوفة مكانةً محفوظةً في المجال الهائل لأنظمة التدفئة المقبولة، كان مونتين يحاول توسيع المفهوم

المناطقيّ لقرّائه بشأن ماهيّة الطبيعيّ - متتبّعًا خطى فيلسوفه المفضّل:

عندما سألوا سقراط من أين جاء، لم يقل «من أثينا»، بل «من العالم».

وقد تكشَّفَ هذا العالم مؤخّرًا لنجد أنّه أكثر فرادةً مما يتوقّع أيّ شخص في أوروبا. يوم الجمعة، في 12 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1492، قبل واحد وأربعين عامًا من ولادة مونتين، وصل كريستوفر كولومبوس إلى إحدى جزر أرخبيل الباهاماس عند مدخل خليج فلوريدا، وتواصل مع بعض هنود جزيرة غواناهاني الذين لم يسبق لهم أن سمعوا بيسوع، وكانوا يمشون وهم عراة.

أبدى مونتين اهتمامًا نهِمًا. في المكتبة الدائريّة كان ثمة كتب متنوّعة عن حياة القبائل الهنديّة في أميركا، من بينها كتاب فرانشيسكو لوبيز دي غومارا التاريخ العام للهنود، وكتاب غيرولامو بينتزوني تاريخ العالم الجديد، وكتاب جان دو ليري رحلة إلى البرازيل. وقد قرأ أنّ سكّان أميركا الجنوبيّة يحبّون أكل العناكب، والجنادب، والنمل، والسحالي، والوطاويط: «كانوا يطبخونها ويقدّمونها مع صلصات متنوّعة». وكان ثمة قبائل أميركيّة تكشف فيهنّ العذارى أعضاءهنّ التناسليّة، فيما تشارك العرائس في حفلات جنس جماعيّة في يوم زواجهنّ، ويُسمَح للرجال بالزواج المثليّ، ويُطبَخ الموتى، ثم تُسحق أجسادهم وتُمزَج مع الخمر ليشربها أقاربهم في حفلات روحانيّة. وكان ثمة بلدان تقف فيها النساء أثناء التبوّل فيما يقرفص الرجال، ويترك الرجال فيها شعر صدورهمناميًا ويحلقون شعر الظهر. وبلدان يُختن فيها الرجال، وفي أخرى يشعرون بخوف

twitter @baghdad_library

شديد لو تعرّضت حافّة رأس القضيب لضوء الشمس لذا «يعمدون بحرص إلى شدّ الجلد فوقها، ثم يربطون أطرافه بأوتار صغيرة». وهناك أمم تحيّي فيها الناس عبر إدارة ظهرك نحوهم، ويبصق فيها الملك ليتلقّاها عضو الحاشية المفضّل بكفّه، وعندما يُفرغ أمعاءه، يسارع الخدم إلى «تجميع برازه في قماش كتّاني». ويبدو أنّ لكل بلد تصوّره الخاص عن الجمال:

في البيرو، الآذان الكبيرة جميلة: يقومون بمطّها قدر استطاعتهم، على نحو فنيّ. ثمة رجل لا يزال إلى اليوم يقول إنه رأى بلدًا في الشرق تكون فيه عادة مطّ الأذنين وإغراقها بالمجوهرات منتشرة بفخر بحيث غالبًا ما كان قادرًا على إدخال ذراعه، وثيابه وكل ما إلى ذلك، في الفتحات التي تثقبها النسوة في شحمات آذانهنّ. وفي أماكن أخرى، ثمة أمم يحرص فيها الناس على تسويد أسنانهم، ويشمئزّون من رؤية الأسنان البيضاء. وفي بقاع أخرى يصبغونها بالأحمر... نساء المكسيك يعتبرن الجبين المنخفض علامة على الجمال: لذا، حينما يُزِلْن الشعر من باقي أجزاء أجسادهنّ، يتشجّعن دومًا على جعل حواجبهنّ عريضة ويمددنها بفنّية. ويفتخرن بالنهود الضخمة التي يمكن لهنّ مدّها فوق أكتافهنّ لإرضاع أطفالنّ.

تعلّم مونتين من جان دو ليري أنّ قبائل توبي في البرازيل يعيشون حياتهم عراة تمامًا من دون إبداء أيّ إحساس بالخزي (في الواقع، عندما حاول الأوروبيّون تقديم ملابس لنساء التوبي، بدأن

بالضحك وأرجعن الملابس، وهنّ يشعرن بالحيرة إزاء إقدام أيّ شخص على دفن نفسه داخل أيّ شيء خانق).

كان الرجال والنساء عراةً كما خرجوا من الرّحم. جان دو ليري، رحلة إلى البرازيل (1578)[1]

إشارة دو ليري (الذي قضى ثماني سنوات بين القبائل) كانت تُعنى بتصحيح الشائعات السائدة في أوروبا أن أجساد التوبي مليئة بالشعر كأجساد الحيوانات (دو ليري: «أجسادهم ليست مغطّاة بالشعر كما نعتقد في هذه البلاد»). كان الرجال يحلقون شعر رؤوسهم، بينما النساء يُطلن شعرهنّ، ويربطنه في ضفائر حمراء جميلة. وكان هنود التوبي يحبّون الاغتسال؛ وكلما كانوا يرون نهرًا، كانوا يسارعون للقفز فيه ويفركون أجساد بعضهم بعضًا. بل قد يغتسلون اثنتي عشرة مرة في اليوم.

---

(1) جميع اقتباسات دو ليري اللاحقة هي بالفرنسيّة في الأصل. [المترجم].

twitter @baghdad_library

كانوا يعيشون في مبانٍ تشبه المرائب ينام فيها 200 شخص تقريبًا. وكانت أسرّتهم مصنوعة من القطن ومرفوعةً إلى أعمدة كالأراجيح الشبكيّة (عندما كانوا يذهبون للصيد، كان التوبي يأخذون أسرّتهم معهم، ويقضون قيلولتهم معلّقين بين الأشجار). كل ستة أشهر، كانت القرية تنتقل إلى مكان جديد لأنّ السكّان يعتبرون أن تغيير المناظر يُشعرهم بالتحسّن («لم يكن لديهم تبرير آخر، سوى أنّ التغيير يُشعرهم بتحسّن كبير» - دو ليري). كانت حياة التوبي منظّمة إلى حد كبير، إلى حدّ أنهم قد يعمّرون مئة عام من دون أن تجد شعرة بيضاء واحدة في شيخوختهم. وكانوا مضيافين كثيرًا. عندما يصل أي زائر إلى القرية، كانت النساء يغطّين وجوههنّ، ويبدأن بالبكاء، والتساؤل: «كيف حالك؟ لقد تكبّدتَ عناء المجيء لزيارتنا!». ويُقدّم للزائرين فورًا مشروب التوبي المفضّل المصنوع من جذور النبات والذي تبدو حمرته شبيهةً بنبيذ الكلاريت، الذي تستسيغه المعدة برغم طعمه اللاذع.

كان يُسمَح لرجال التوبي بالزواج أكثر من مرة، ويُقال إنهم كانوا مخلصين لهن جميعًا. «منظومتهم الأخلاقيّة بأسرها لا تضم إلا بندين وحيدين: العزم في المعركة، والحب لزوجاتهم»، بحسب مونتين. ويبدو أنّ الزوجات كنّ سعيدات بهذا الوضع، إذ لا يُظهرن أدنى بادرة غيرة (كانت العلاقات الجنسيّة مريحة، إذ كان الأمر المحرَّم الوحيد هو عدم جواز إقامة علاقة جنسيّة مع الأقرباء المباشرين). استطاب مونتين بذكر التفاصيل، فيما زوجته في الطابق السفليّ من القصر:

ثمة سمة جميلة لدى زوجاتهم تستحق الذكر: بينما زوجاتنا متحمّسات في معارضة تلطّفنا وحبّنا لنساء أخريات، فإن زوجاتهنّ متحمّسات بالقدر ذاته لتسهيل حصول أزواجهن على زوجات أخريات. فلكونهنّ حريصات على سمعة أزواجهنّ أكثر من أيّ شيء آخر، كنّ يسعين بحرص لجلب أكبر عدد ممكن من الزوجات الأخريات، إذ إنّ هذا دليل على بسالة أزواجهنّ.

كان هذا كلّه فريدًا بلا شك. لم يعتبر مونتين أن أيًا من هذه الأمور غير طبيعيّة.

كان يمثّل أقليّةً. بعد اكتشاف كولومبوس لأميركا بفترة وجيزة، وصل المستعمرون الإسبان والبرتغاليّون من أوروبا لاستغلال الأراضي الجديدة واعتبروا أنّ السكّان الأصليّين أفضل من الحيوانات بقدر طفيف. كان الفارس الكاثوليكيّ فيليغاغنون يعتبرهم «وحوشًا بوجوه بشريّة» (هم ليسوا سوى وحوشٍ بوجوه بشريّة»)[1]؛ فيما حاجج الوزير الكالفينيّ ريشيه أنهم لا يمتلكون حسًا أخلاقيًا («أذهانهم الفظّة لا تميّز بين الخير والشر»)؛ أما الطبيب لوران جوبير فقد أكّد، بعد فحصه خمس نسوة برازيليات، أنهنّ لا يَحِضْنَ، وبذا فهنّ لا ينتمين تصنيفيًا إلى العرق البشريّ.

بعد تجريدهم من إنسانيّتهم، بدأ الإسبان بذبحهم كالحيوانات. مع حلول العام 1534، بعد اثنين وأربعين عامًا من وصول كولومبوس، كانت إمبراطوريّتا الآزتك والإنكا قد دُمّرتا، واستُعبد أهلهما أو

---

(1) الاقتباسات رجودة بين قوسين، حتى نهاية الفقرة، بالفرنسيّة في الأصل. [المترجم].

twitter @baghdad_library

قُتلوا. وقد قرأ مونتين عن الهمجيّة في كتاب بارتولوميو لاس كاساس «توصيفٌ موجَز عن تدمير الهنود»، (الصادر في إشبيلية عام 1552، وتُرجم الكتاب إلى الفرنسيّة عام 1580 على يد جاك دو ميغرود بعنوان طغيانات وفظائع الإسبان المرتكَبة في الأنديز التي سموّها العالم الجديد). قُمع الهنود بسبب حُسن ضيافتهم، وضعف أسلحتهم. فتحوا قراهم ومدنهم أمام الإسبان، ليجدوا أنّ ضيوفهم قد انقلبوا عليهم حينما كانوا في أضعف حالات استعدادهم. لم تكن أسلحتهم البدائية تُقارَن بالمدافع والسيوف الإسبانيّة، ولم يُبدِ الغزاة أيّة رحمة تجاه ضحاياهم. قتلوا الأطفال، وشقّوا بطون النساء الحوامل، وفقأوا العيون، وحرقوا عائلات بأكملها وهم على قيد الحياة، وأشعلوا النيران في القرى ليلًا.

درّبوا الكلاب على الدخول في الغابات التي هرب إليها الهنود كي تمزّقهم إلى أشلاء.

أُرسل الرجال ليعملوا في مناجم الذهب والفضة، مقيّدين معًا بأطواق حديديّة. عندما يموت رجل، يُقص جسده من السلسلة، فيما يتابع زملاؤه العمل. معظم الهنود لم يكونوا يستمرون أكثر من ثلاثة أسابيع في المناجم. وكانت النساء تُغتصَب وتُشوَّه أمام أعين أزواجهنّ.

كانت ثمة طريقة تشويه مفضّلة لديهم عبر قطع الذقون والأنوف. ونقل لاس كاساس كيف أنّ امرأة شنقت نفسها مع طفلها، عندما رأت القوات الإسبانية تتقدّم مع الكلاب. وصل جنديّ، شطر

twitter @baghdad_library

الطفل إلى نصفين بسيفه، وأعطى أحد النصفين لكلبه، ثم طلب إحضار راهب ليشرف على الطقوس الأخيرة كي يضمن الرضيع مكانًا له في جنّة المسيح.

مع فصل النساء عن الرجال، وإحساسهم بالعزلة والقلق، عمد الهنود إلى الانتحار بأعداد كبيرة. بين ولادة مونتين عام 1533 وصدور الكتاب الثالث من المقالات عام 1588، كان عدد السّكان الأصليّين في العالم الجديد قد انحدر من 80 مليونًا إلى 10 ملايين شخص تقريبًا.

قام الإسبان بذبح الهنود بضمير مرتاح لأنّهم كانوا واثقين أنّهم يعرفون ماهيّة الإنسان الطبيعيّ. وكان عقلهم يُنبئهم أنّ الإنسان الطبيعيّ هو الذي يرتدي ملابس ركوب الخيل، ويمتلك زوجة واحدة، ولا يأكل العناكب، وينام في سرير:

> نعجز عن فهم أيّ شيء من لغتهم، وعاداتهم، وحتى ملامحهم وملابسهم شديدة التباين عن ملامحنا وملابسنا. مَن منّا لم يعتبرهم متوحّشين وهمجيّين؟ من منّا لم يعز صمتهم إلى البلادة والجهل الوحشيّ؟
>
> في نهاية الأمر، إنهم... لا يدركون عادة تقبيل الأيدي، وانحناءاتنا المنخفضة والمعقّدة.

ربما كانوا يبدون أشبه بالبشر: «آه! ولكنّهم لا يرتدون سروال ركوب الخيل ..».

خلف المجزرة يكمن تفكيرٌ مضطربٌ. يتم الفصل بين الطبيعيّ واللاطبيعيّ عادةً عبر صيغة من المنطق الاستقرائيّ، حيث نستنتج فيه قانونًا عامًا من أمثلة محدَّدة (بحسب علماء المنطق، عبر ملاحظة

أنّ A1 تساوي ø، وA2 تساوي ø، وA3 تساوي ø، نصل إلى استنتاج أنّ «جميع القيم A تساوي ø»). وبهدف إصدار حُكم ما إذا كان الشخص ذكيًا، سنبحث عن السمات التي تكون سائدة لدى جميع الأذكياء الذين التقينا بهم حتى اليوم. ولو التقينا شخصًا ذكيًا يشبه 1، وآخر يشبه 2، وثالثًا يشبه 3، سنقرّر على الأرجح أن الأذكياء يقرأون كثيرًا، ويرتدون ملابس سوداء، ويبدون أقرب إلى العزلة. ثمة خطر أننا سنعتبره أحمق، وربما نقتل، شخصًا يشبه 4.

twitter @baghdad_library

كان المسافرون الفرنسيّون الذين شعروا بالرعب لدى رؤية المواقد الألمانيّة في غرف نومهم قد عرفوا عددًا من المواقد الجيدة في بلدهم قبل وصول ألمانيا. ربما كان أحدها يشبه 1، والآخر يشبه 2، والثالث يشبه 3، وكانوا سيَخلُصون انطلاقًا من هذا إلى أن جوهر نظام التدفئة الجيد هو المجمر المكشوف.

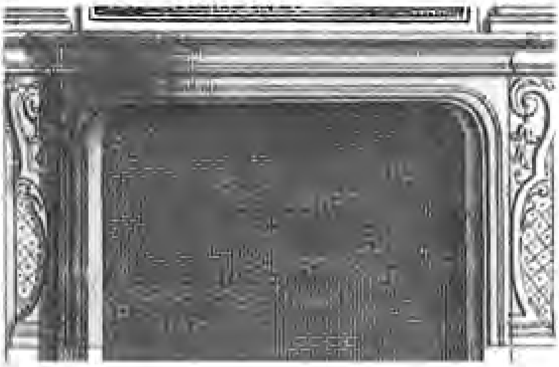

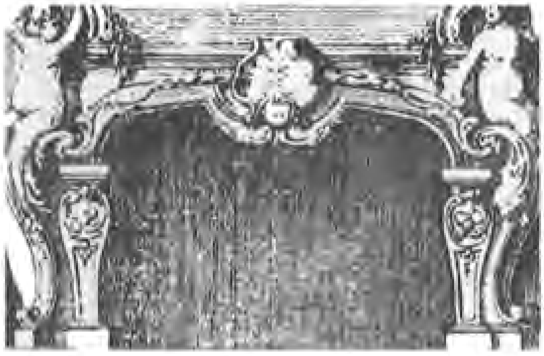

يشجب مونتين التعجرف الفكريّ الموجود. كان هناك همجيّون في أميركا الجنوبيّة؛ ولكنّهم ليسوا الذين يأكلون العناكب:

كل إنسان يطلق صفة الهمجيّ على كل ما هو غير معتاد عليه؛ ليس لدينا معيار آخر للحقيقة والعقل سوى مثال وصيغة آراء وعادات بلدنا. هناك، نجد دومًا الدين الكامل، ونظام الحُكم الكامل، والطريقة الكاملة الأكثر تطوّرًا لفعل أيّ شيء!

لم يكن يحاول التعمية على الفوارق بين الهمجيّ والمتحضر؛ ثمة اختلافات في القيمة بين عادات البلدان (النسبويّة الثقافيّة فظّة كالقوميّة). كان يصحّح الطريقة التي نبيّن فيها التمييز. قد يكون لبلدنا فضائل كثيرة، ولكنّها لا تعتمد على كون هذا البلد بلدنا. وقد يكون للأرض الأجنبيّة زلّات كثيرة، ولكن لا يمكن مماهاتها مع الحقيقة المجرّدة بكون عاداتها غريبة. كانت القوميّة والاعتياد معيارَيْن سخيفَيْن لتحديد ما هو صحيح.

twitter @baghdad_library

كانت التقاليد الفرنسيّة تقول إنّ على من لديه وسخ في تجويفه الأنفيّ أن ينفخه في منديل. ولكن كان لدى مونتين صديق توصّل إلى استنتاج، بعد دراسته للمسألة، أن من الأفضل للمرء أن ينظّف أنفه بأصابعه مباشرة:

> مدافعًا عن تصرّفه... سألني لمَ يجب على المخاط القذر أن يكون متميّزًا إلى حدٍّ يرغمنا فيه على تحضير كتّان جيّد لاستقباله ثم نلفّه ونحمله بحرص بأنفسنا... اعتبرت أنّ ما قاله ليس غير منطقيّ تمامًا، ولكنّ العادة منعتني من ملاحظة تلك الغرابة التي نعتبرها شنيعةً في عادات مماثلة في بلد آخر.

كان التأمّل الدقيق بدلًا من التحامل هو الوسيلة لتقييم السلوك، وكان سبب حنق مونتين هو أولئك الذين يساوون بطيشٍ بين غير-المعتاد وغير الملائم متجاهلين الدرس الأكثر جوهريّة في التواضع الفكريّ الذي قدّمه أعظم الفلاسفة القدماء:

> أحكم الرجال على الإطلاق، عندما سُئل عما يعرف، أجاب أن الشيء الوحيد الذي عرفه هو أنّه لا يعرف شيئًا.

ما الذي ينبغي علينا فعله إذًا لو وجدنا أنفسنا بمواجهة إشارة مستترة إلى الغرابة المتجلّية في السؤال الساخر المشوب بشيءٍ من التحذير «حقًا؟ يا للغرابة!» المترافق مع حاجب مرفوع، الذي يومئ بخفوت إلى إنكار للشرعيّة والإنسانيّة – وهي ردة فعل واجهها صديق مونتين في غاسكوني حين نظّف أنفه بأصبعه، والتي أفضت، في صيغتها الأكثر تطرّفًا، إلى إبادة قبائل أميركا الجنوبيّة؟

ربما علينا تذكُّر الدرجة التي تترسّخ فيها الاتّهامات بالغرابة

مناطقيًا وتاريخيًا. وكي نخفّف قبضتها علينا، لسنا بحاجة إلا إلى أن نكون منفتحين أنفسنا على تنوّع العادات عبر الزمان والمكان. ما يُعتبر غريبًا لدى جماعة في لحظةٍ ما قد يبقى كذلك دومًا. قد نقطع الجسور في أذهاننا.

هذا ما يُعتبر غريبًا

كان مونتين قد ملأ مكتبته بكتب أعانته على قطع جسور التحامل. كان ثمة كتب تاريخيّة، وكتب رحلات، وتقارير البعثات وقباطنة البحر، وأدب أراضٍ أخرى ومجلّدات برسوم توضيحيّة عن قبائل ترتدي ملابس غريبة وتأكل أسماكًا مجهولة الاسم. عبر هذه الكتب، كان بوسع مونتين امتلاك الشرعيّة لجوانب [من نفسه] لم يكن ثمة دليل عليها في الجوار - الجوانب الرومانيّة، الجوانب اليونانيّة، جوانب نفسه التي كانت أكثر مكسيكيّة وتوبيّة من كونها غاسكونيّة، الجوانب التي كانت تتشهّى امتلاك ست زوجات أو ظهر محلوق الشعر أو الاغتسال اثنتي عشرة مرة؛ كان قادرً ا على الإحساس بوطأة أقل من الوحدة مع تلك الكتب عبر تقليب صفحات حوليّات تاسيتوس، وتاريخ غونزاليس دي مندوزا عن الصين، وتاريخ غولار

twitter @baghdad_library

عن البرتغال، وتاريخ ليبيلسكي عن فارس، ورحلات ليون الأفريقيّ حول أفريقيا، وتاريخ لوسيغنانو عن قبرص، ومجموعة بوستيل من التواريخ التركية والشرقيّة، وكوزموغرافيا موينستر الكونيّة (التي عرضت صور «حيوانات غريبة»).

لو كان يشعر بوطأة الادّعاءات التي يُسبغها الآخرون على الحقيقة الشاملة، كان يستطيع، بالطريقة ذاتها، تكديس النظريات عن الكون التي يعتنقها الفلاسفة القدماء العظيمون، ثم يشهد، برغم ثقة كلّ مفكّر أنه يحوز الحقيقة الكلّية، التباعد المضحك الناتج منها. وبعد دراسة مقارنة كهذه، اعترف مونتين بسخرية بعدم امتلاكه أدنى دليل يمكن له قبوله:

> «أفكار» أفلاطون، ذرّات أبيقور، هيولى وخواء ليوسيبوس وديموقريطوس، مياه تالس، لا نهائيّة الطبيعة عند أناكسيماندر، أثير ديوجينيس، أرقام وتناظر فيثاغورس، لا نهاية بارمينيدس، وحدة موسايوس، نار وماء أبولودوروس، الجزيئات المتجانسة عند أناكساغوراس، التنافر والتناغم عند إمبيدوكليس، نيران هرقليطس، أو أي رأي آخر نابع من التضارب اللامحدود للأحكام والعقائد التي ينتجها عقلنا البشريّ الرائع، بكل ثقته ووضوحه.

عملت اكتشافات العوالم الجديدة والنصوص القديمة على تقويض ما كان يصفه مونتين بـ«تلك العجرفة البائسة الشغوفة بالقتال التي تمتلك إيمانًا وثقة كلّيةً بنفسها»:

> كلٌّ من قام بتجميع ذكيّ للحماقات العنيدة للحكمة البشريّة سيجد حكاية عجائبيّة ليرويها... بوسعنا الحُكم على ما

نعتبر أنه الإنسان، عن طريق إحساسه وعقله، عندما نجد تلك الأخطاء الواضحة والشنيعة حتى في هذه السمات المهمّة التي رفعت الذكاء البشريّ إلى مستويات عالية.

كما ساعدت في قضاء سبعة عشر شهرًا من التجوال في أرجاء أوروبا على صهوة الخيل. وقد ساهمت دلائل البلدان الأخرى وطرائق حياتها في تلطيف الجو ثقيل الوطأة لمنطقة مونتين. إذ ما كان يعتبره مجتمعٌ ما غريبًا، قد يرحّب به مجتمعٌ آخر بشكل طبيعيّ.

قد تُعيد أراضٍ أخرى لنا حالةً من الاحتماليّة التي تُخمدها العجرفة المناطقيّة؛ إنها تشجّعنا على جعلنا أكثر تقبّلًا لأنفسنا. إنّ مفهوم الطبيعيّ الذي تطرحه أيّة منطقة - أثينا، أوغسبورغ، سوزكو، مكسيكو، روما، إشبيلية، غاسكوني - لا يملك فسحةً إلا لعدة مظاهر من طبيعتنا، محيلًا بإجحاف كل ما تبقّى لكونه همجيًا وغريبًا. قد يتمكّن كل شخص من استيعاب الصيغة الكلّية للوضع البشري، ولكن يبدو أنْ ليس ثمة بلد قادر على تحمّل تعقيد هذا الوضع.

من بين النقوش السبعة والخمسين التي رسمها مونتين على دعامات سقف مكتبته، ثمة سطر قاله ترنتيوس:

.Homo sum, Humani a me nihil alienum puto

أنا إنسان، لا شيء إنسانيًا غريبًا عنّي.

عبر اقتحام الحدود، على صهوة الخيل وفي الخيال، دعانا مونتين إلى استبدال التحاملات المحلية والتقسيمات الذاتيّة التي تنتجها [تلك الحدود] بهوّيات أقل تقييدًا كمواطنين في هذا العالم.

ثمة عزاء آخر بشأن الاتّهامات بالغرابة هو الصداقة، فالصديق،

twitter @baghdad_library

من بين أمور أخرى، هو شخص طيّبٌ بما يكفي لاعتبار أنّ معظم ما فينا طبيعيّ أكثر مما يعتبره معظم الناس. قد نتشارك أحكامًا مع أصدقاء قد تكون في الجلسات العاديّة محظورة لكونها لاذعة، أو جنسيّة، أو اكتئابيّة، أو سخيفة، أو ذكيّة، أو حسّاسة – الصداقة مؤامرة صغيرة ضدّ ما يعتبره الناس معقولًا.

مثل أبيقور، آمن مونتين أن الصداقة مكوِّن جوهريّ للسعادة:

> باعتقادي، لا يمكن لحلاوة الرفقة شديدة التناغم والتوافق أن تكلّف غاليًا أبدًا. أوه! صديق! يا لصدق ذلك الحُكم القديم، إنّ تآلف المرء أحلى من الماء، وأكثر ضرورة من النار.

أحيانًا، كان محظوظًا بما يكفي لمعايشة صداقة كهذه. في سن الخامسة والعشرين، تم تقديمه إلى كاتب في الثامنة والعشرين من عمره وعضو في برلمان بوردو، إتين دو لا بويسيه. كانت صداقةً من النظرة الأولى:

> كان كلّ منا يبحث عن الآخر قبل أن نلتقي بسبب الأخبار التي كانت ترد... احتضن كلٌّ منا الآخر بالاسم فقط. وعند لقائنا الأول، الذي تصادفَ أن كان في مهرجان محتشد في بلدة، وجدنا كل منا نفسه منجذبًا للآخر، يعرفه تمامًا، مرتبطًا به بشدة، بحيث لم يكن ثمة من هو أقرب إلينا من بعضنا بعضًا منذ ذلك الحين.

كانت الصداقة مميَّزة جدًا، كما يؤمن مونتين، بحيث لا تحدث إلا مرة كل 300 عام؛ لم يكن فيها أيّ شيء مشابه للتحالفات الفاترة المترافقة مع هذا المصطلح:

من كنّا ندعوهم أصدقاء وما كنّا نعتبرها صداقات عادةً لم تكن أكثر من معارف وعلاقات اعتياديّة مرتبطة بمصادفة أو شيء من الاستقرار، بحيث ترتبط أرواحنا في ما بينها. في الصداقة التي أقصدها، كانت الأرواح ملتحمةً ومتناغمةً في انصهار كليّ بحيث تمحو الدرزة التي تربطها معًا إلى درجة تلاشيها التام.

لم تكن الصداقة لتكون قيّمة إلى هذا الحد لو لم يكن معظم الناس مخيّبين للآمال على نحو كبير - لو لم يضطّر مونتين لإخفاء كثيرٍ من ذاته عنهم. كان عمق ارتباطه بلا بويسيه مؤشّرًا على المدى الذي كان مرغَمًا فيه، في علاقاته مع الآخرين، على تقديم مجرّد صورة منقَّحة من ذاته لتجنُّب الشك والحواجب المرفوعة. بعد سنوات طويلة، عمد مونتين إلى تحليل مصدر مشاعره تجاه لا بويسيه:

له وحده كان امتياز رؤية صورتي الحقيقيّة.

أي أنّ لا بويسيه - وحده من بين معارف مونتين - فهمه تمامًا. أتاح له أن يكون على طبيعته؛ عبر فطنته السيكولوجيّة، مكّنه من أن يكون كذلك. سمح بوجود مجال للأبعاد القيّمة، التي كانت متجاهَلة حتى تلك اللحظة، من شخصيّة مونتين - ما يشير إلى أنّنا ننتقي أصدقائنا لا لكونهم لطفاء أو ممتعين، بل كذلك - وعلى نحو أشدّ أهميّة - لأنّهم يدركون ماهيّتنا الحقيقيّة.

كانت الحياة الهانئة قصيرة على نحو مؤلم. بعد أربع سنوات من اللقاء الأول، في آب/ أغسطس 1563، أصيب لا بويسيه بتشنّجات

twitter @baghdad_library

معويّة وتوفي بعد عدة أيام. كانت هذه الحادثة ستحتلّ مخيلة مونتين إلى الأبد:

> في الحقيقة، لو قارنتُ بقيّة حياتي... مع تلك السنوات الأربع التي كنتُ محظوظًا فيها للتمتّع بالرفقة والصداقة الجميلة لرجل مثله، لم تكن سوى دخان ورماد، ليل مظلم وكئيب. منذ ذلك اليوم بعد أن فقدته... أكتفي بتمضية أيامي بسأم.

عبر صفحات المقالات، كان ثمة تعبيرات عن التّوق إلى توأم روحيّ يمكن مقارنته بالرفيق الراحل. بعد ثمانية عشر عامًا من وفاة لا بويسيه، كانت نوبات الاكتئاب لا تزال تنتاب مونتين أحيانًا. في أيار/ مايو 1581، في فيلا قرب لوكا، حيث استقرّ قرب النهر، كتب في دفتر أسفاره أنّه قضى يومًا بأكمله مرهَقًا بفعل «أفكار مؤلمة عن السيّد دو لا بويسيه. احتلّني هذا المزاج فترة طويلة، من دون شفاء، بحيث آذاني كثيرًا».

لم يكن سيعيش صداقةً مماثلة أبدًا، ولكنّه اكتشف الصيغة الأسمى من التعويض. في المقالات، قام عبر وسيلة أخرى بإعادة خلق الصورة الحقيقيّة لذاته التي أدركها لا بويسيه. أصبح هو نفسه على الورق كما كان هو نفسه برفقة صديقه.

كان فعل الكتابة مدفوعًا بخيبة الأمل من المحيطين به، ولكنها كانت ممتزجة – مع ذلك – بالأمل بشأن أن يكون ثمة شخص آخر في مكان ما سيفهمه؛ كان كتابه موجَّهًا إلى الجميع وغير موجَّه إلى أحد بالتحديد. كان مدركًا لمفارقة التعبير عن أعماق ذاته للغرباء في المكتبات:

أشياء كثيرة لم أكن مهتمًا بالبوح بها لأي شخص بذاته
أصبحت أبوح بها للجميع، ولمن يودّ معرفة أشدّ أفكاري
سرّيةً، بدأتُ أحيلُ أعزّ أصدقائي إلى رفّ المكتبة.

ومع ذلك، لا بد أن نكون ممتنّين للمفارقة. باعة الكتب هم الوجهة النفيسة للوحيدين، بفضل أعداد الكتب التي أُلّفت لأنّ الكتّاب لم يجدوا أحدًا يبوحون له.

ربما شرع مونتين بالكتابة لتلطيف إحساسه الشخصيّ بالوحدة، ولكن يمكن لكتابه أن يُسهم بطريقة ما بتلطيف إحساسنا نحن بالوحدة. صورة إنسان صريحة مكشوفة عن نفسه - يذكر فيها الضعف الجنسيّ وإطلاق الغازات، ويكتب فيها عن صديقه الراحل ويفسّر فيها حاجته إلى الهدوء عند جلوسه في المرحاض - تُمكّننا من أن نبدي قدرًا أقل من الذاتيّة حيال جوانب من أنفسنا لم يكن يتم التطرّق إليها في الأحاديث والصور الاعتياديّة، جوانب تبدو فيها جزءًا لا يقل أهميّة من حقيقتنا.

twitter @baghdad_library

4
عن العجز الفكري

ثمة افتراضات بارزة بشأن ما هو مطلوب لتكون شخصًا ذكيًا:
ما الذي ينبغي على الأذكياء معرفته
أحدها، بحسب ما يتم تعليمه في كثير من المدارس والجامعات، هو أنّ على الأذكياء معرفة كيفيّة الإجابة عن أسئلة مثل:
1 - حدد الأطوال أو الزوايا المعلَّمة برمز x في المثلثات الآتية.

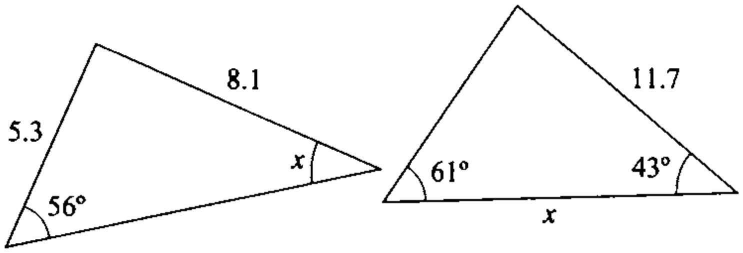

2 - أين هي جملة الفاعل، والجملة الملحَقة، والفعل الرابط بين المبتدأ والخبر، والمحدِّدات (إن وجدت) في الجمل الآتية: الكلاب أعزّ أصدقاء الإنسان؛ لوسيليوس شرير؛ كل الوطاويط أعضاء من زمرة القوارض؛ لا شيء أخضر في الغرفة؟
3 - ما هي محاججة توما الأكويني بشأن المسبّب الأول؟
4. ترجم:

Πᾶσα τέχνη καὶ πᾶσα μέθοδος, ὁμοίως δὲ πρᾶξίς τε καὶ προαίρεσις, ἀγαθοῦ τινὸς ἐφίεσθαι δοκεῖ· διὸ καλῶς ἀπεφήναντο τἀγαθὸν οὗ πάντ' ἐφίεται. (διαφορὰ δέ τις φαίνεται τῶν τελῶν· τὰ μὲν γάρ εἰσιν ἐνέργειαι, τὰ δὲ παρ' αὐτὰς ἔργα τινά· ὧν δ' εἰσὶ τέλη τινὰ παρὰ τὰς πράξεις, ἐν τούτοις βελτίω πέφυκε τῶν ἐνεργειῶν τὰ ἔργα.) πολλῶν δὲ πράξεων οὐσῶν καὶ τεχνῶν καὶ ἐπιστημῶν πολλὰ γίνεται καὶ τὰ τέλη· ἰατρικῆς μὲν γὰρ ὑγίεια, ναυπηγικῆς δὲ πλοῖον, στρατηγικῆς δὲ νίκη, οἰκονομικῆς δὲ πλοῦτος.
(Aristotle, *Nicomachean Ethics*, I i–iv)

(أرسطو، الأخلاق إلى نيقوماخوس، I i–iv)

5 – ترجم:

In capitis mei levitatem iocatus est et in oculorum valitudinem et in crurum gracilitatem et in staturam. Quae contumelia est quod apparet audire? Coram uno aliquid dictum ridemus, coram pluribus indignamur, et eorum aliis libertatem non relinquimus, quae ipsi in nos dicere adsuevimus; iocis temperatis delectamur, immodicis irascimur.

(سينيكا، عن صرامة الإنسان الحكيم، XVI. 4)

كان مونتين قد واجه أسئلة مماثلة وأجاب عنها على نحو جيد. وقد أُرسل إلى إحدى أفضل المؤسسات التعليميّة في فرنسا، كوليج دو غوين في بوردو، التي تأسست عام 1533 لتحل محلّ كليّة الفنون القديمة والمتواضعة في المدينة. عندما بدأ ميشيل تلقّي دروسه هناك في سن السادسة، كانت المدرسة قد نمّت سمعة وطنيّة بوصفها مركزًا للتعليم. وكان الكادر يضمّ مديرًا متنوّرًا، هو أندريه دو غوفيا، وهو باحث معروف في الشؤون اليونانيّة، ونيكولا دو غروشي، باحث أرسطيّ، وغيلوم غيرينته، والشاعر الاسكتلنديّ جورج بوكانان.

twitter @baghdad_library

لو حاول المرء تعريف فلسفة التعليم التي تضطلع بها كوليج دو غوين، أو تلك الخاصة بمعظم المدارس والجامعات التي كانت قبلها وبعدها، قد يشير المرء تقريبيًا إلى أنّها كانت مستندة إلى فكرة أنّ تنمية المعرفة تقوم على تعلّم الطالب بشكل أكبر عن العالم (التاريخ، والعلم، والأدب). ولكنّ مونتين، بعد اتباعه منهاج الدراسة في الكليّة حتى تخرّجه، أضاف شرطًا مهمًا:

> لو كان الإنسان حكيمًا، فإنّه سيخمّن القيمة الحقيقيّة لأيّ شيء عبر مدى نفعه وملاءمته لحياته.

فقط ذاك الذي يجعلنا نشعر بالتحسّن هو ما قد يستحق الفهم.

ثمة مفكّران قديمان عظيمان قد حضرا على نحو بارز في منهاج كوليج دو غوين واعتُبرا مثالَيْن عن الذكاء. كان الطلاب يتعرّفون على كتابَيْ القياس والبرهان لأرسطو، حيث تميّز الفيلسوف اليونانيّ بالمنطق، وصرّح أنه لو كانت A متضمّنةً في كل B، وB متضمَّنةً في كل C، ستكون A متضمَّنةً في كل C بالضرورة. وحاجج أرسطو أنّه لو أثبتت فرضيّة ما أو نفت أن يكون P جزءًا من S، سيكون كلّ من P وS طرفيها، بحيث يكون P الخبر، وS الفاعل، كما أضاف أنّ جميع الفرضيّات إما شاملة أو محدَّدة، تثبت أو تنفي أن يكون P متضمَّنًا في كل S أو جزءًا منه. ولدينا أيضًا الباحث الرومانيّ ماركوس تيرينتيوس فارو الذي نظّم مكتبة ليوليوس قيصر وألّف ستمئة كتاب، بما فيها موسوعة عن الفنون الليبراليّة وخمسة وعشرون كتابًا عن علم التأثيل [أصل الكلمات وتاريخها] واللسانيات.

لم يكن مونتين ليبقى من دون تأثّر. إذ من الشجاعة أن تؤلّف رفًا من الكتب بشأن أصول الكلمات وأن تكتشف القضايا المنطقيّة

الإيجابيّة الشاملة. وعلى أية حال، لو اكتشفنا أنّ الذين اضطلعوا بهذه المهام لم يكونوا أكثر سعادة، بل ربما كانوا أقل سعادة فعليًا ممّن لم يسمع بالمنطق الفلسفيّ على الإطلاق، قد نتعجّب ونطرح أسئلة على أنفسنا.

درس مونتين حياة كلٍّ من أرسطو وفارو، وطرح سؤالًا:

> ما النفع الذي اكتسبه كلٌّ من أرسطو وفارو من سعة اطّلاعهما الهائلة؟ هل حرّرتهما من العلل البشريّة؟ هل خلّصتهم من الخيبات التي تحدث لأيّ بوّاب عادي؟ هل يمكن للمنطق أن يعزّيهما بشأن مرض النقرس ...؟

كي نفهم لمَ كان الرجلان شديدَي الاطّلاع والتعاسة، ميَّزَ مونتين بين تصنيفين للمعرفة: التعلّم والحكمة. تحت تصنيف التعلّم أدرَجَ، من بين مواضيع أخرى، المنطق، التأثيل، القواعد، اللغة اللاتينيّة، اللغة الإغريقيّة. وتحت تصنيف الحكمة، أدرَجَ ضربًا من ضروب المعرفة اتّسم بكونه أشدّ اتّساعًا واطّلاعًا وقيمةً، وكلّ شيء يمكن أن يُعيْن الإنسان على العيش الهانئ، أي - بحسب مونتين - أن يُعيْنه على العيش بسعادة وأخلاقيّة.

كانت مشكلة كوليج دو غوين، برغم حرفيّة كادرها ومديرها، هي تفوّقها في نقل العلم وإخفاقها الكليّ في نقل الحكمة - مكرّرةً على مستوى مؤسّساتيّ الأخطاءَ التي عكّرت حياتَيْ فارو وأرسطو:

> مسرور لعودتي إلى موضوع عبثيّة تربيتنا: لم تكن غايتها جعلنا خيّرين وحكماء، بل متعلّمين. وقد نجحت في هذا. ولكنّها لم تعلّمنا كيفيّة السعي نحو الفضيلة واعتناق الحكمة: لقد أَكْرَهَتْنا على معرفة اشتقاقهما وأصلهما اللغويّ ...

twitter @baghdad_library

كنا نتعلم تلقائيًا، «هل يعرف اليونانيّة أو اللاتينيّة؟»، «هل يتقن كتابة الشعر والنثر؟» ولكن ما يهمّ على نحو أكبر هو ما نضعه في آخر اللائحة: «هل أصبح أفضل وأكثر حكمة؟». لا ينبغي علينا اكتشافُ مَنْ يفهم على نحو أكبر بل مَنْ يفهم على نحو أفضل. كلّ ما نعمل عليه هو ملء الذاكرة، تاركين فراغًا لمسألة إدراك الصح والخطأ.

لم يكن بارعًا في الرياضة على الإطلاق: «في الرقص، ولعب كرة المضرب والمصارعة، كنت عاجزًا عن بلوغ مهارةٍ بدرجةٍ ضحلة وطفيفة؛ أما في السباحة، وقفز الحواجز، والوثب والقفز، كانت المهارة معدومة تمامًا». ومع ذلك، كان اعتراض مونتين على الافتقار إلى نقل الحكمة عند معظم الأساتذة شديد الصرامة، بحيث لم يتردد في اقتراح تغيير هائل في الصفوف التعليميّة لشباب فرنسا.

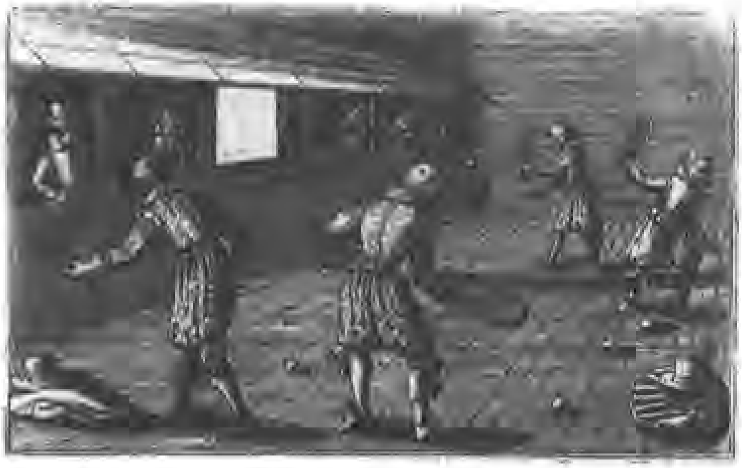

لو لم تتحرّك أرواحنا على نحو أفضل، ولو لم نمتلك حُكمًا أصحّ، سأقترح على الفور أن يقضي الطالب وقته في لعب كرة المضرب.

كان سيفضّل بالطبع أن يرتاد الطلّاب المدرسة، ولكنّ المدارس التي تعلّمهم الحكمة لا الأصل اللغويّ للكلمات، والتي يمكن لها تصحيح الانحراف الفكريّ المديد حيال المسائل المجرّدة. كان

تالس الميلوتوسيّ من الأناضول مثالًا مبكّرًا عن هذا الانحياز، حيث احتُفي به عبر العصور لمحاولته في القرن السادس قبل الميلاد أن يقيس السماوات، عدا عن تحديده ارتفاع الهرم الأكبر في مصر بحسب نظريّة المثلّثات المتماثلة - وهو إنجاز معقّد ومدهش بلا شك، ولكن لم يكن هو الإنجاز الذي تمنّى مونتين أن يهيمن على منهاجه التعليميّ. كان يتعاطف على نحو أكبر مع الفلسفة التعليميّة الضمنيّة لواحد من معارف تالس الجريئين الشباب:

> لطالما شعرتُ بالامتنان لتلك الفتاة من ميليتوس التي، حينما رأت الفيلسوف المحلّي... وعيناه تحدّقان إلى الأعلى، مشغولًا باستمرار بشأن حساب قوس السماء، قامت باعتراضه لتنبّهه أنّ ثمة وقتًا كافيًا سيتوفّر لديه ليشغل ذهنه بأشياء فوق السُّحب حين يُنهي تأمّله في كل شيء تحت قدميه... بوسعكم توجيه التقريع ذاته الذي وجَّهَتْه تلك الفتاة إلى تالس إلى كلٍّ مُهتمٍّ بالفلسفة: إنه يُخفق في رؤية ما تحت قدميه.

ولاحَظَ مونتين في بقاع أخرى نزعة مماثلة إلى ممارسة نشاطات استثنائيّة نخبويّة على حساب نشاطات أخرى أكثر تواضعًا برغم كونها متمتّعة بالقدر ذاته من الأهمّية - وكما فعلت الفتاة من ميليتوس، حاول إعادتنا إلى الأرض:

> اقتحام جدار ضخم، إقامة سفارة، حُكم أمة، كلّها أفعال مبهرجة. أما التقريع، والضحك، والشراء، والبيع، والحب، والكراهية، والعيش برفق وعدل مع الأسرة - ومع نفسك - وأن لا تتهاون مع نفسك أو تزيّف ذاتك، فهي أمور أكثر أهمية، وندرة، وصعوبة.

twitter @baghdad_library

بصرف النظر عما سيقوله الناس، ستعزز مثل هذه الحيوات المعزولة واجباتٍ ستكون بالقدر ذاته من صعوبة وتوتّر تلك الحيوات.

إذًا، ما الذي كان يتمنّى مونتين أن يتعلمه الطلاب في المدرسة؟ ما نمط الاختبارات التي يمكن لها قياس الذكاء الحكيم الذي يفكّر به، نمط بعيد جدًا عن المهارات العقليّة للتعيسَيْن أرسطو وفارو؟

كانت الاختبارات ستطرح أسئلة بشأن تحدّيات الحياة اليوميّة: الحب، الجنس، المرض، الموت، الأطفال، المال، الطموح.

اختبار للحكمة المونتينيّة

1 – منذ سبعة أو ثمانية أعوام، على بعد فرسخَيْن من هنا، كان ثمة قرويّ لا يزال حيًا؛ كان ذهنه مؤرَّقًا دومًا بغيرة زوجته؛ ذات يوم عاد إلى المنزل من عمله لتستقبله بنكَدها المعتاد؛ أَشْعَرَتْه بالغضب الشديد فلوّح بالمنجل الذي كان لا يزال في يده وبتر فجأةً الأعضاء التي تُسبِّب لها تلك الانفعالات ورماها في وجهها. (المقالات، II. 29)

أ. كيف يمكن للمرء أن يحلّ النزاعات الأسريّة؟

ب. هل كانت الزوجة نكديّة أم أنها تعبّر عن مشاعرها؟

2 – تأمّل هذين الاقتباسين:

أودّ أن يلاقيني الموت وأنا أزرع الملفوف، من دون أن أقلق بشأنه أو بشأن الزراعة التي لم تكتمل.

بالكاد يمكنني تمييز الملفوف من الخس. (المقالات، II. 17)

ما هي المقاربة الحكيمة للموت؟

3 – لعلّ من الأشد بساطة وإثمارًا أن تدفع النساء كي يُدْرِكْنَ

باكرًا ماهيّة الواقع الفعليّ [الحجم القضيب] بدلًا من السماح لهنّ بالقيام بتخمينات تبعًا لخيالهنّ الجامح: بدلًا من ماهيّة أعضائنا الفعليّة، تقودهنّ آمالهنّ ورغباتهنّ لاستبدال الأعضاء بأعضاء أخرى مضاعفة الحجم ثلاث مرات... يا للأذى العظيم الذي تسبّبه تلك الرسومات الضخمة للأعضاء التناسليّة التي يخربشها الصبيان على ممرات وسلالم قصورنا الملكيّة! ينبع منها سوء فهم قاسٍ بشأن قدراتنا الطبيعيّة. (المقالات، 5 .III)

كيف ينبغي لرجلٍ يمتلك «واقعًا فعليًا» صغيرًا أن يتطرق للموضوع؟

4 - أعرف نبيلًا أقام حفلة ممتعة في صالة منزله ثم عمد، بعد أربعة أو خمسة أيام، إلى التندّر (إذ لم يكن الكلام حقيقيًا) أنه جعلهم يأكلون فطيرة قطط؛ إحدى السيّدات الشابات في الحفلة أصيبت بالذعر فانهارت مصابةً بتلبّك معويّ خطير وحمّى شديدة: كان من المستحيل إنقاذها. (المقالات: 21 .I)

حلّل توزيع المسؤوليّة الأخلاقيّة.

5 - لو لم يكن التحدّث مع الذات يُعتبَر جنونًا، لن يمرّ يومٌ عليّ من دون أن تسمعني وأنا أهمس لنفسي، مهاجمًا نفسي، «أيها القذارة البائسة!» (المقالات، 38 .I)

أشدّ مشاعرنا فظاظةً هي احتقار كينونتنا. (المقالات، 13 ،III)

ما مقدار الحب الذي ينبغي أن يُبديه المرء لنفسه؟

إعطاء الناس أوراق اختبار تقيس الحكمة بدلًا من التعلّم قد يُفضي إلى إعادة تنظيم مباشرة لهرميّة الذكاء - وإلى نخبة جديدة

twitter @baghdad_library

مفاجئة. كان مونتين مبتهجًا بترقّب الناس المعارضين الذين سيُعتبَرون اليوم أذكى من المرشّحين المحتفى بهم الذين غالبًا ما يكونون تقليديّين لا يعوَّل عليهم.

رأيت في حياتي مئات من الحرفيّين والمزارعين الذين هم أذكى وأكثر حكمة من رؤساء الجامعات.

ما ينبغي أن يبدو عليه الأذكياء

من السائد افتراضُ أننا نتعامل مع كِتابٍ شديد الذكاء عندما لا نفهم فحواه. لا يمكن، في نهاية المطاف، شرح الأفكار العميقة بلغة الأطفال. ومع ذلك، بالكاد يمكن توصيف ترافق الصعوبة والعمق بكونه برهانًا واضحًا على وجود انحراف سائد في المجال الأدبيّ مستمَد من الحياة العاطفية، حيث يمكن للأشخاص الغامضين والمحيِّرين أن يشكّلوا مصدر احترام في العقول المتواضعة يعجز عنه الواضحون والموثوقون.

لم يكن لدى مونتين أدنى توجّس من الاعتراف بمشكلته مع الكتب الغامضة. إذ كتب: «أعجز عن إقامة علاقة طويلة معها. أكتفي بحبّ [الكتب] السهلة الممتعة التي تحفّز اهتمامي».

لستُ مهيّأً لإرهاق عقلي من أجل أيّ شيء، ولو كان هذا بهدف التعلم، بصرف النظر عن مدى قيمته. كلُّ ما أبتيغه من الكتب هو منحُ لذّةٍ لنفسي عبر تسليةٍ محترمةٍ... ولو صادفتُ مقاطع صعبة أثناء قراءتي لن أقضم أظافري بسببها: بعد محاولة أو اثنتين سأتركها.. ولو أرهقني كتاب سأنتقل إلى آخر.

ولكن هذا هراء، أو ربما معابثة ماكرة من شخص يمتلك ألف مجلّد على رفوق مكتبته ومعرفة موسوعيّة بالفلسفتين اليونانيّة واللاتينيّة. حين يستمتع مونتين بإظهار نفسه كرجل ضحل ميّال إلى النعاس أثناء النقاشات الفلسفيّة، لا بد أن يكون هذا مكرًا لغاية في نفسه. فالتصريحات المتكررة بشأن الكسل والبطء كانت وسائل تكتيكيّة لتقويض فهمٍ فاسدٍ بشأن الذكاء والكتابة الجيّدة.

وكما أشار مونتين، ليس ثمة أسباب موجبة كي تكون كتب الإنسانيّات صعبة أو مملة؛ فالحكمة لا تستلزم مفردات أو علمَ نحوٍ تخصصيًا، ولا يستفيد الجمهور من إضجاره. عند استخدامه بعناية، يمكن أن يكون السأم مؤشّرًا قيّمًا على مزايا الكتب. وبالرغم من أنّه لن يكون حَكَمًا فعّالًا أبدًا (إذ قد ينحدر في صيغه الأكثر تردّيًا إلى تجاهلٍ وتململٍ عنيدَيْن)، يمكن أن يُسهم أخذُ مستويات السأم الخاص بناً بالاعتبارٍ في تلطيف التحمّل المفرط للهراء. أولئك الذين لا يستجيبون لسأمهم أثناء القراءة، مثل أولئك الذين لا يعيرون انتباهًا للألم، قد يتسبّبون بزيادة معاناتهم على نحو غير ضروريّ. أيًا تكن أخطار التعرّض للسأم على نحو خاطئ، ثمة مآزق كثيرة بالقدر نفسه في عدم السماح لأنفسنا بفقدان الصبر أثناء القراءة.

twitter @baghdad_library

يمنحنا كلُّ عملٍ صعبٍ خيارًا نحكم فيه إما على المؤلّف بكونه أحمق لعدم وضوح أفكاره، أو على أنفسنا بكوننا حمقى لعدم استيعاب ما يحدث. يحثّنا مونتين على لوم المؤلّف. فالأسلوب النثريّ العصيّ على الفهم يميل إلى كونه ناتجًا عن الكسل أكثر من الذكاء؛ وما يُقرأ بسهولة نادرًا ما يكون قد كُتب بسهولة. وإلا فإنّ نثرًا كهذا سيُخفي غيابًا للمضمون؛ أن تكون الكتابة عصيّةً على الفهم يعني تقديم حمايةٍ فريدةٍ ضد عدم امتلاك شيء لتقوله:

> الصعوبة عملةٌ يستحضرها المتعلّمون كي لا تكشف خواء دراساتهم، ويميل الغباء البشريّ إلى قبولها مُسبقًا.

ليس ثمة سبب يدفع الفلاسفة إلى استخدام مفردات ليست متداولة في الشارع أو السوق:

> كما هي الحال بشأن الملابس، إنها علامةٌ على ذهنيّةٍ جميلةٍ تسعى إلى لفت الانتباه عبر اعتناق موضةٍ شخصيّةٍ أو غير معتادة، كذلك هو الكلام؛ ينبع البحث عن تعبيرات جديدة ومفردات قليلة التداول من طموحٍ تنظيريٍّ مراهقٍ. أتمنّى لو كان بوسعي تقييد نفسي بالمفردات المتداولة في سوق باريس المركزيّة.

ولكنّ الكتابة البسيطة تستلزم شجاعةً، إذ هناك مجازفة أن يتم تجاهل الكاتب، وإقصاؤه لكونه متواضع الفهم من جانب مَنْ يمتلكون إيمانًا عنيدًا بأنّ النثر العويص هو دمغةُ الذكاء. قويٌّ جدًا هذا الانحياز، بحيث تساءل مونتين ما إذا كان غالبيّة الباحثين الجامعيّين سيعطون سقراط حقّه، وهو رجل أقرّوا بتفوّقه على

الجميع، لو اقترب منهم في بلداتهم، من دون برستيج محاورات أفلاطون، بعباءته المتّسخة، متحدّثًا بلغة بسيطة:

صيغةُ محادثات سقراط التي أَوْرَثَنا إياها أصدقاؤه لم تسترعِ انتباهنا إلا لكوننا سُحرنا بالاتّفاق العام حيالها. لم يكن ذلك بفضل معرفتنا؛ إذ إنها لا تتلاءم مع ممارساتنا: لو ظهر شيءٌ مشابه لها هذه الأيام، ثمة قلّة ممّن سيصنّفونها بكونها ذات مستوى عالٍ. لا يمكننا تقدير فضائل لا تتحدّد، وتتضخم، وتُمجَّد بفعل البراعة الماكرة. فمثل تلك الفضائل التي تَرِد تحت مسمّى السذاجة والبساطة ستغيب فورًا عن الأنظار الفظّة كأنظارنا ... بالنسبة إلينا، أليست السذاجة صنوًا لتواضع الفهم، وسمةً تستحق الشجب؟ جعل سقراط روحه تتحرّك بالمعدل الطبيعيّ للناس العاديّين: كذا يتحدث الفلاح؛ كذا تتحدث المرأة وتُستمَدّ استقراءاته ومقارناته من نشاطات البشر الأكثر اعتياديّة وانتشارًا؛ يمكن لأيٍّ كان فهمها. تحت تلك الصيغة البسيطة لن ندرك اليوم أبدًا نبل وسموّ مفاهيمه المذهلة؛ نحن مَنْ نحكم على كلّ مَنْ لا يتميّز بسعة الاطّلاع بكونه ضئيل القيمة وعاديًا، ومَنْ لا يتنبّه إلى الأشياء الثمينة إلا حين تُعرَض بزهوٍّ صارخٍ.

لا بدّ من أخذ الكتب بجدّية، حتى حين تكون لغتها بسيطة وأفكارها واضحة - وكذلك، أن نمتنع عن اعتبار أنفسنا حمقى لو - بفعل الفقر في الميزانيّة أو التعليم - كانت ثيابنا بسيطة، ومفرداتنا ليست أعظم من مفردات بائع في السوق.

twitter @baghdad_library

ينبغي عليهم معرفة الوقائع، ولو لم يعرفوها وكانوا – إضافة إلى ذلك – شديدي الحماقة بحيث يخطئون معرفتها في كتاب ما، عليهم أن لا يتوقّعوا أدنى رحمة من الباحثين الذين سيمتلكون تبريرًا لتقريعهم، والإشارة بلطف متكبّر إلى أنّ تاريخًا ما خاطئٌ، أو أنّ كلمة ما اقتُبست على نحو غير صحيح، أو أنّ مقطعًا ما خارج السياق أو مصدرًا مهمًا قد أُغفل.

ومع ذلك، بحسب مخطط مونتين للذكاء، ما يهمّ في الكتاب هو النفع والملاءمة في ما يخص الحياة؛ النّقل الدقيق لما كتبه أفلاطون أو ما عناه أبيقور أقل أهميّةً عند المقارنة مع الحُكم ما إذا كان ما قالاه مثيرًا للاهتمام ويمكن له في الساعات الأولى [من مأساتنا] أن يُعينَنا في مواجهة القلق أو الوحدة. لا تَكْمُنُ مسؤوليّة مؤلّفي الإنسانيات بشأن الدقة شبه العلميّة، بل بشأن السعادة والصحّة. وقد نَفَّسَ مونتين عن غضبه في وجه من رفضوا هذه النقطة:

> لا يحدِّدُ الباحثون المهتمّون بإطلاق الأحكام على الكتب أيّةَ قيمةٍ لشيءٍ بخلاف التعليم، ولا يسمحون بأيّ نشاط فكريّ عدا المتعلق بالبحث والاطّلاع. أخطِئ التمييز بين صنفين من البشر ولن يتبقّى أيّ شيء لديك لتقوله، أليس كذلك! بحسب ما يقولون، أخفقْ في معرفة أرسطو الخاص بك، وستخفق في معرفة نفسك.

المقالات بذاتها كانت تضم اقتباسات مغلوطة متكررة، وعبارات منسوبة على نحو خاطئ، وانحرافات لا منطقيّة في المحاججات وإخفاقات في تعريف المصطلحات. ولم يكترث المؤلف لهذا:

> أقوم بالكتابة في المنزل، وسط الريف، حيث ليس ثمة أحد ليساعد أو يصحّح، وحيث لا أستقبل أبدًا أيَّ شخص يتقن لاتينيّة صلاة الرب، دع عنك الفرنسيّة العاديّة.

بالطبع، كان ثمة أخطاء في الكتاب («كتابتي مليئة بها»، كان يتباهى)، ولكنّها لم تكن لتَحْكُمَ على المقالات بالإخفاق، كما أنّ الدقّة لم تكن لتضمن قيمة الكتاب. كانت خطيئةً أكبر أن تكتب شيئًا لا يطمح لأن يكون حكيمًا مقارنةً بالخلط بين سكيبيو إيميليانوس (حوالى 185 – 129 ق. م) مع سكيبيو أفريكانوس (236 – 183 ق.م).

من أين ينبغي على الأذكياء استقاء أفكارهم

من أناس أكثر ذكاء منا. ينبغي عليهم قضاء وقتهم في الاقتباس وإدراج تعليقات بشأن السلطات العظيمة التي تحتلّ الأغصان العليا لشجرة المعرفة. يجب أن يكتبوا رسائل فلسفيّة عن الفكر الأخلاقيّ لأفلاطون أو أخلاقيات شيشرون.

كان مونتين يدين كثيرًا لهذه الفكرة. فوضع مقاطع متكررة من التعليقات في المقالات، ومئات الاقتباسات من مؤلّفين كان مونتين يعتبرهم قد التقطوا نقاطًا بدقة وسلاسة أكبر من قدرته هو. اقتبس أفلاطون 128 مرة، ولوكريتيوس 149، وسينيكا 130.

من المغري اقتباس المؤلفين حين يعبّرون عن جوهر أفكارنا ولكن بوضوح ودقّة سيكولوجيّة لا يمكننا مضاهاتها. إنهم يعرفوننا أفضل مما نعرف أنفسنا. ما هو خجول ومضطرب داخلنا يُعبَّر عنه ببلاغة وسلاسة عندهم، خطوط أقلامنا والحواشي التفسيريّة في هوامش كتبهم، واستعاراتنا منهم، تومئ إلى المكان الذي نجد فيه أجزاءً منا، جملة أو اثنتان مبنيّتان على جوهر المادة التي سُكّت منها

twitter @baghdad_library

أذهاننا – وسيكون التطابق مدعاةً للذهول لو كان العمل قد كُتب في عصر العباءات الرومانيّة والأضحيات الحيوانيّة. ندعو هذه الكلمات إلى كتبنا كملجأ لتذكيرنا بماهيّتنا.

ولكن على عكس ما تفعله من تنوير لتجاربنا ودفعنا إلى الاكتشاف، قد تُفضي الكتب العظيمة إلى خلق ظلّ إشكاليّ. قد تقودنا إلى إقصاء مظاهر من حياتنا ليس ثمة شهادة مكتوبة بشأنها. وبعيدًا عن توسيع أفقنا، قد تؤدّي على نحو مجحف إلى تكريس حدود لنا. عرف مونتين رجلًا بدا أنه دفع ثمة حبّه للكتب غاليًا:

> كلّما طلبتُ من [هذا] الشخص أن يخبرني بما يعرفه عن شيء ما، كان يهرع ليريني كتابًا: لم يكن يغامر بإخباري عن وجود جَرَب على مؤخّرته من دون الرجوع إلى معجمه لاكتشاف معنى جَرَب ومؤخرة.

مثل هذه المعارضة للثقة بتجاربنا البعيدة عن الكتب قد لا تكون خطيرة لو كان يمكن الاعتماد على الكتب للتعبير عن إمكانيّاتنا كلّها، لو كانت تعرف مواضع الجرب التي فينا كلها. ولكن كما أدرك مونتين، الكتب العظيمة تبقى صامتة حيال كثير من المواضيع، وبذا لو أتحنا لأنفسنا تحديد نطاقات فضولنا، ستُسهم في تراجع تطوّر عقولنا. بيَّنَ لقاءٌ في إيطاليا هذه المسألة:

> في بيزا، قابلت رجلًا لطيفًا بدا أرسطيًا إلى درجة أن جوهر أساسات أفكاره يقول إنّ حجر الأساس ومقياس جميع الأفكار المنطقيّة لكل حقيقةٍ يكمن بالضرورة في التناغم مع تعاليم أرسطو، وكلّ ما عدا ذلك ليس سوى جنون ووهم: فأرسطو رأى كل شيء، وفعل كل شيء.

بالطبع، أرسطو رأى وفعل الكثير. ولعلّه كان الأكثر شموليّة من بين جميع المفكّرين القدماء، إذ تناولت أعماله مختلف آفاق المعرفة (عن النشوء والفساد، عن السماوات، الأرصاد الجويّة، عن الروح، أعضاء الحيوان، حركات الحيوان، تفنيدات سفسطائيّة، الأخلاق النيقوماخية، الفيزياء، السياسة).

ولكنّ جوهر مقياس إنجاز أرسطو وَلَّدَ إرثًا إشكاليًا. ثمة مؤلّفون يتجاوز ذكاؤُهم الشّديد نطاقَ مصلحتنا. بعد أن قالوا الكثير، بدوا وكأنهم امتلكوا الكلمة الأخيرة. تعمل عبقريّتهم على كبح إحساس اللاتبجيل الجوهريّ في أعمال ورثتهم. ربما ساهم أرسطو، للمفارقة، في منع أولئك الذين يجلّونه بشدّة من التصرّف مثله. وصل هو إلى مستوى العظمة بمجرّد التشكيك بقدر كبير من المعرفة التي تكرّست قبله، لا عبر رفض قراءة أفلاطون أو هيرقليطس، بل عبر توجيه انتقادات بارزة لبعض نقاط ضعفهم استنادًا إلى تقدير نقاط قوّتهم. أن نتصرّف تبعًا للروح الأرسطيّة، كما أدرك مونتين ولم يدركه الرجل من بيزا، قد يعني السماح بشيءٍ من الابتعاد الذكيّ حتى عن أعظم السلطات المكرّسة.

ومع ذلك، من المفهوم تفضيل الاقتباس وإدراج التعليقات بدلًا من التحدث والتفكير عن أنفسنا. فالتعليق بحاشيةٍ على كتابٍ أَلَّفَه شخص آخر، بالرغم من كونه جهدًا مرهقًا عمليًا، يستلزم ساعات من البحث والتفسير، مُحصَّنٌ من أشنع حالات الهجوم التي قد تصيب الأعمال الأصليّة. قد يتم انتقاد المعلّقين لإخفاقهم في التعامل بعدل مع أفكار المفكّرين العظيمين؛ ولكنّهم لن يتحمّلوا

twitter @baghdad_library

المسؤوليّة عن الأفكار بذاتها - وهذا سببٌ دَفَعَ مونتين لتضمين عدد كبير من الاقتباسات والحواشي في المقالات:

أجعل الآخرين أحيانًا يقولون ما عجزتُ عن إدراجه بنفسي بسبب ضعف لغتي، وأحيانًا بسبب ضعف أفكاري [و] أحيانًا لأكبح طيش تلك الانتقادات الشرسة التي تتنطّع لمهاجمة الكتابات بكلّ أنواعها، بخاصة الكتابات الحديثة لمؤلّفين لا يزالون على قيد الحياة لا بد أن أُخفي ضعفي تحت شهرة أولئك العظماء.

من المدهش رؤية مدى الجدّية التي سيتم التعامل بها معنا بعد موتنا بعدة قرون. فالعبارات التي تُعتبَر مقبولة عندما تصدر من أقلام مؤلفين قدماء ستبدو سخيفة لو عبَّرَ عنها المعاصرون. لا يميل النقّاد إلى الانحناء أمام الآراء الأعظم للذين ارتادوا الجامعة معهم. لن يُسمَح لهؤلاء الأفراد بالتحدّث كما لو كانوا فلاسفة قدماء. «لم يهرب أحدٌ من دفع جزاء أنّه قد وُلِدَ»، كَتَبَ سينيكا، ولكن لن يُنصَح رجلٌ انتابته المشاعر ذاتها في عصور لاحقة بالتحدّث هكذا ما لم يُظهِرْ نزعةً خاصة للذل. مونتين، الذي لم يفعل هذا، اعتزلَ الحياة، ثم أدلى باعتراف في نهاية المقالات، كان آسرًا لفرط هشاشته:

لو كنت أمتلك الثقة لفعل ما أشاء حقًا، كنتُ سأجهر بما كنتُ أخفيه لنفسي، وليحدث ما يحدث.

إذا كان مونتين يفتقر إلى الثقة فهذا لأنه كلما كان الآخرون أقرب إليه زمانيًا ومكانيًا ستكون فرصته في أن تؤخذ أفكاره بجدية، مثل سينيكا وأفلاطون، ضعيفة.

> في غاسكوني، يتعاملون بشيءٍ من الطرافة حين يرون اسمي مطبوعًا.
>
> ويتم تقديري على نحو أكبر كلّما تعاظمت معرفتهم بي في الوطن.

في سلوك أسرته والمقرّبين منه، أولئك الذين سمعوا شخيره وشاهدوه يغيّر ملاءات السرير، لم يكن ثمّة أدنى وجود لذلك الاحتفاء الباريسيّ، دع عنك حضوره بعد الموت:

> قد يبدو إنسانٌ ما للعالم بمثابة أعجوبة: ومع ذلك، لن تجد زوجته أو خادمه ما يستحق الذكر فيه. قلّة هم الذين كانوا عجائب بالنسبة إلى عائلاتهم.

قد نأخذ هذا بطريقتين: إما أنّه ليس ثمة أحد مذهل أصلًا، لأنّ العائلة والمقرّبين فقط هم القريبون بما يكفي لإدراك الحقيقة المخيّبة للآمال. أو أنّ كثيرين مثيرون للاهتمام ولكنْ لو كانوا قريبين منا مكانًا وزمانًا، سنميل إلى عدم أخذهم بجدّية كبيرة، بحسب انحيازٍ أعمى ضد ما هو موجود.

لم يكن مونتين يشفق على نفسه؛ بل كان يستخدم نقد الأعمال المعاصرة الأكثر طموحًا كمؤشّر لحافزٍ مُضرٍّ يتعلق بكون الحقيقة كامنةً دومًا بعيدًا عنا، في جو آخر، في مكتبة قديمة، في كتب الناس الذين عاشوا منذ زمن سحيق. تتعلق المسألة ما إذا كانت حرية الوصول إلى الأشياء الثمينة أصلًا محصورةً بحفنةٍ من العباقرة الذين ولدوا في الفترة بين بناء البارثينيون ونهب روما، أو - كما طرح مونتين - مفتوحةً عليك وعليّ أيضًا.

twitter @baghdad_library

أُشير إلى مصدر شديد التفرّد من الحكمة، أكثر تفرّدًا حتى من الخنزير المُبحِر عند بيرّو، وهندي التوبي، أو المزارع الغاسكونيّ: إنه القارئ. لو لجأنا على نحو ملائم إلى تجاربنا وتعلَّمْنا أن نعتبر أنفسنا مرشَّحين ملائمين لحياةٍ فكريّةٍ تكون، كما أشار مونتين، مفتوحةً أمام الجميع بحيث يتوصّلون إلى أفكار ليست أقل قيمةً من أفكار الموجودين في الكتب القديمة العظيمة.

الفكرة ليست سهلة. تتم تربيتنا بحيث نُرْفِقُ الفضيلة مع الخضوع للسلطات المقدّسة، بدلًا من إرفاقها برحلة اكتشاف في المجلدات التي نقطعها يوميًا أنفسنا عبر آلياتنا الإدراكية.

حاول مونتين إعادتنا إلى أنفسنا:

> نعلم كيفيّة القول «هذا ما قاله شيشرون»؛ «هذه أخلاقيات أفلاطون»؛ «تلك هي كلمات أرسطو حرفيًا». ولكن ما الذي ينبغي علينا قوله فعلًا؟ ما الأحكام التي سنطلقها؟ ما الذي نفعله؟ يمكن للببغاء أن يتحدّث كما نتحدث.

الترديد الببغائيّ ليس وسيلةَ الباحث لتوصيف ما يتوجّب فعله لكتابة حاشية. ثمة مجموعة من الحجج التي يمكن لها أن تبيّن قيمةَ إنتاجِ تأويلٍ للفكر الأخلاقيّ الخاص بأفلاطون أو أخلاقيات شيشرون. شدّد مونتين على التردّد والسّأم بدلًا من ذلك. ثمة مهارة أقل في الأعمال الثانويّة («للابتكار سموٌّ أعلى بدرجة لا يمكن مقارنتها بالاقتباس»)، الصعوبة تقنيّة، مسألةُ صبرٍ وقراءةٍ هادئةٍ. علاوة على ذلك، إنّ كثيرًا من الكتب التي تحثّنا الأعراف الأكاديميّة على ترداد أفكارها ليست مدهشة بحد ذاتها. إذ إنّها شغلت مكانًا مركزيًا في المنهاج التعليميّ لأنها كانت أعمالًا لمؤلّفين مكرّسين،

فيما يتم تقويض مواضيع بالأهميّة ذاتها، بل ربما أكثر أهميّة، لأنّ السلطات الفكريّة الكبيرة لم تُوصِ بها. لطالما كان يتم اعتبار علاقة الفن بالواقع موضوعًا فلسفيًا جدّيًا، على نحو جزئيّ لأنّ أفلاطون كان أول من طرحه؛ فيما لم يتم اعتبار علاقة الخجل بالمظهر الشخصيّ كذلك، وذلك لأنها لم تسترعِ انتباه أيّ فيلسوف قديم.

على ضوء هذا التبجيل اللامنطقيّ للتراث، ظنَّ مونتين أنّ من الواجب الاعتراف لقرّائه أنه - فعليًا - اعتقد أن أفلاطون قد يكون محدودًا وضحلًا:

> هل سيُجيز عصرنا لتشكيكي متهوّر بالتفكير أنّ محاوراته قد أسهمت بخنق أفكاره ببطء، وبالتحسّر على الوقت الضائع على تلك المناقشات التمهيديّة الطويلة العقيمة لرجل كان لديه أمور أفضل ليقولها؟

(ثمة ارتياح سيتبع فكرة مونتين هذه، إذ ثمة كاتب مكرّس يعطي شيئًا من المصداقيّة لتشكيكات صامتة متردّدة بشأن كاتب آخر). أما في ما يخص شيشرون، لم تكن ثمة حاجة للاعتذار قبل الهجوم:

> مقاطعه التقديميّة، وتعريفاته، وتقسيماته الفرعيّة، وبحثه في أصول الكلمات تلتهم معظم عمله... لو قضيتُ ساعةً من الوقت في قراءته (وهذا كثير بالنسبة إليّ) ثم حاولت استعادة لبّ وجوهر ما استخلصت منه، لن أجد معظم الأحيان سوى الرياح.

أبدى الباحثون مثل هذا الاهتمام بالكتّاب الكلاسيكيّين، بحسب مونتين، انطلاقًا من رغبة مختالة كي يتم اعتبارهم مثقّفين عبر ترافق

twitter @baghdad_library

أسمائهم مع الأسماء المكرّسة. وكانت النتيجة في القراءة العموميّة جبلًا من الكتب العويصة جدًا، المفتقرة إلى الحكمة على نحو كبير.

> ثمة كتبٌ مكرّسة للتحدث عن الكتب أكثر من أيّ موضوع آخر: وكل ما نفعله هو إدراج الحواشي في ما بينها. الحصيلة ليست سوى قفير نحل غارق بالحواشي: أما المؤلّفون فقلّة.

ولكنّ الأفكار المهمة، كما أكّد مونتين، توجد في كلّ حياة. بصرف النظر عن مدى تواضع قصصنا، بوسعنا توليدُ أفكارٍ عظيمةٍ من أنفسنا أكثر من تلك التي نستمدّها من جميع الكتب القديمة:

> لو كنتُ باحثًا جيدًا، كنت سأكتشف ما يكفي من الحوادث في تجربتي لتجعلني حكيمًا. كل من يستذكر آخر نوبات غضبه... سيدرك بشاعة هذا الشعور أكثر من أرسطو. وكلّ من يستذكر الأمراض التي أصابته، تلك التي هدّدت حياته وتلك الحوادث الصغيرة التي غيَّرَتْهُ من وضعٍ إلى آخر، سيجعل من نفسه شخصًا مُهيَّأً لتقلّبات المستقبل واستكشاف وضعه. حتى حياة قيصر أقل أهميّة كمثال، مقارنةً بحياتنا ذاتها؛ فالحياة، أكانت إمبراطوريّة أم عاديّة، حياةٌ تتأثّر بكل ما يمكن أن يحدث للإنسان.

وحدها الثقافة البحثيّة على نحو هائل هي ما تجعلنا نفكّر بطريقة مغايرة:

> إننا أكثر غنى مما نظن، كلٌّ واحدٍ منا كذلك.

قد نتوصّل جميعنا إلى أفكار حكيمة لو توقفنا عن اعتبار أنفسنا

غير ملائمين للواجبات لأننا لا نعيش قبل 2000 عام، ولسنا مهتمين بمحاورات أفلاطون، ونعيش بهدوء في الريف:

بإمكانك ربط الفلسفة الأخلاقيّة بأسرها بالحياة الشخصيّة العاديّة وكذا بالحياة المترفة.

لعلّ غايته بتوضيح المغزى على نحو غير مسبوق هي ما دفعت مونتين لتقديم هذا الكَمّ الكبير من المعلومات عن أدقّ تفاصيل حياته العاديّة والشخصيّة - لمَ أراد أن يخبرنا:

أنّه لا يحب التفّاح:

لستُ مغرمًا ... بأيّة فاكهة عدا البطّيخ.

إنّ لديه علاقة مضطربة مع الفجل:

وجدتُ بدايةً أن الفجل جيّد لي؛ ثم وجدت العكس؛ والآن عاد التوافق مجددًا.

وإنه مارس أكثر العادات الصحّية تقدّمًا بما يخص الأسنان:

أسناني لطالما كانت جيّدة جدًا تعلّمت منذ الطفولة مسحها بمنديلي، عند الاستيقاظ، وقبل وبعد الطعام.

إنّه كان يأكل بسرعة كبيرة:

لفرط سرعتي غالبًا ما أعضّ لساني، وأحيانًا أصابعي.

إنّه يحب مسح فمه:

بإمكاني تناول العشاء من دون غطاء طاولة، ولكنّني سأتضايق كثيرًا لو تناولت العشاء من دون منديل نظيف

twitter @baghdad_library

أشعر بالندم لأنّنا لم نتّبع التقاليد التي بدأها ملوكنا، أي تبديل المناديل، كالصحون، عند كل وجبة.

أمورٌ نافلةٌ ربما، ولكنّها تذكيراتٌ رمزيّةٌ أنّ ثمةَ «أنا» مفكّرة خلف هذا الكتاب، وأنّ ثمة فلسفة أخلاقيّة قد كُرّست - ويمكن تكريسها مجددًا - انطلاقًا من روح عادية كارهة للفاكهة.

شيشرون 106 - 43 ق. م

ليس ثمة داعٍ لتثبيط الهمّة لو كنا، من الخارج، نبدو وكأننا لا نساوي شيئًا مقارَنةً بأولئك الذين تبصّروا في الماضي.

في الصورة التي أعاد مونتين رسمها عن الإنسان الملائم شبه العاقل، من الممكن أن لا نتحدّث اليونانيّة، وأن نطلق الغازات،

ونغيّر وجهة نظرنا بعد وجبة طعام، ونسأم من الكتب، ولا نعرف شيئًا عن الفلاسفة القدماء، وأن نخلط بين اثنين يحملان اسم سكيبيو.

فالحياة الفاضلة العاديّة الساعية إلى الحكمة من دون أن تكون بعيدة عن الحماقة، هي إنجاز كافٍ بذاته.

twitter @baghdad_library

V

العزاء

بشأن انكسارات القلب

twitter @baghdad_library

1

بما يخص مآسي الحب، قد يكون هو الأفضل بين الفلاسفة:

الحياة، 1788 - 1860

ولد أرتور شوبنهاور في دانتسغ عام 1788. في سنواته الأخيرة استَذْكَرَ هذا الحدث بندم: «بإمكاننا اعتبار حياتنا حلقةً مزعجة غير ذات نفع في السكون المبهج للخواء». ويؤكّد: «لا بدّ أنّ الوجود البشريّ نوعٌ من الخطأ؛ قد يُقال عنه، ´إنّه سيّىء اليوم وسيزداد سوؤه يوميًا، إلى أن يحدث الأسوأ على الإطلاق». لم يُبدِ والد شوبنهاور، هاينرش، وهو تاجر ثريّ، وأمه يوهانا، سيّدة بارزة في

المجتمع وأصغر من والده بعشرين عامًا، اهتمامًا كبيرًا بابنهما الذي أصبح أحد أعظم التشاؤميّين في تاريخ الفلسفة. «حتى حين كنتُ طفلًا في السادسة، وجدني والداي في حالةٍ من اليأس العميق بعد عودتهما من نزهتهما أحد المساءات».

هاينرش شوبنهاور

يوهانا شوبنهاور

twitter @baghdad_library

1803 – 1805 بعد انتحار والده (الذي اكُتشفت جثّته طافيةً في قناة قرب مستودع منزل العائلة)، ورث الفتى شوبنهاور ذو السبعة عشر عامًا ثروةً ستضمن عدم اضطراره إلى العمل أبدًا. لم تُسهم هذه الفكرة بأدنى درجةٍ من الراحة. إذ يستذكر لاحقًا: «حين كنتُ في السابعة عشرة، دون تعليم مدرسيّ نظامي، جذبني بؤس الحياة كما جذب بوذا في شبابه حين شهد المرض، والشيخوخة، والألم، والموت. كانت الحقيقة هي أنّ هذا العالم لا يمكن أن يكون نتاجًا لكائن مُحبّ، بل كائن شرير، أوجدَ الخلق كي يبتهج لمرأى معاناتهم؛ كذا وُضعت المعطيات، وكان للاعتقاد الذي يتبنّى هذا الاتّجاه اليد الطولى».

مدرسة إيغل هاوس، ويمبلدون

أُرسل شوبنهاور إلى لندن ليتعلم الإنكليزيّة في مدرسة داخليّة، إيغل هاوس في ويمبلدون. بعد تلقّيه رسالةً منه، ردّ صديقُه لورنز ماير، «آسف لأنّ إقامتك في إنكلترا جعلتك تكره الأمّة بأسرها».

وبرغم تلك الكراهية، تمكَّنَ من إتقان اللغة على نحو تام تقريبًا، وغالبًا ما كانوا يظنّونه إنكليزيًا أثناء الحديث.

جال شوبنهاور أنحاء فرنسا، وزار مدينة نيم التي كان المهندسون الرومان منذ 1800 سنة تقريبًا قد ضخّوا المياه فيها في أنابيب عبر جسر بون دو غار العظيم ليضمنوا حصول المواطنين على مياه الاستحمام دومًا. ولكنّ شوبنهاور لم يكن مأخوذًا بما رآه من الآثار الرومانيّة: «سرعان ما تدفع تلك الآثار تفكير المرء إلى آلاف أجساد البشر المتحلّلة».

كانت أم شوبنهاور تتذمّر من ولع ابنها بـ«التفكّر بالبؤس البشريّ».

1809 - 1811 درس شوبنهاور في جامعة غوتنغن وقرّر أنّه سيصبح فيلسوفًا: «الحياة عمل مؤسف، وقد توصّلت إلى قرارٍ بوجوب قضائها في التأمّل فيها».

في نزهة إلى الريف، اقترح صديقٌ أنّ عليهما محاولة لقاء امرأة.

twitter @baghdad_library

طرد شوبنهاور الفكرة محاججًا أنّ «الحياة شديدة القصر والإرباك وسريعة الزوال بحيث لا تستحق عناء القيام بمجهود كبير».

شوبنهاور شابًا

1813 يزور أمه في مدينة فايمار. كانت يوهانا شوبنهاور قد صادقت المقيم الأشهر في المدينة، يوهان فولفغانغ فون غوته، الذي كان يزورها بانتظام (ويحب التحدث مع صوفيا خادمة يوهانا، وأديل أخت أرتور الصغرى). بعد لقاءٍ أوّل، وصف شوبنهاور غوته بكونه «هادئًا، اجتماعيًا، لطيفًا، ودودًا: فليُمجَّد اسمه إلى الأبد وأكثر!». ويقول غوته، «بدا الشاب شوبنهاور لي شابًا غريبًا مثيرًا للاهتمام». لم تكن مشاعر شوبنهاور تجاه الكاتب موحّدةً على الدوام. عندما غادر الفيلسوف مدينة فايمار، أهداه غوته سطرين من الشِّعر:

لو أردتَ استخلاص اللذة من الحياة،
لا بدّ أن تُسبغَ قيمةً على العالم.

ولكن لم يكن شوبنهاور معجَبًا بهذا، إذ أَدْرَجَ اقتباسًا من شامفور إلى جانب نصيحة غوته في دفتره: «من الأفضل تقبُّل الناس كما هم لا أن ترى فيهم ما ليسوا عليه».

1814 – 1815 يرحل شوبنهاور إلى درسدن ويكتب أطروحته (عن الجذر الرباعيّ لمبدأ العلّة الكافية). كان قليل الأصدقاء ويدخل في الحوارات دون سقف توقّعات عالٍ: «أحيانًا أتحدّث إلى الرجال والنساء كما تتحدّث البنت الصغيرة إلى دميتها. هي تعرف، طبعًا، أنّ الدمية لن تفهمها، ولكنّها تخلق لنفسها متعة التواصل عبر خداع ذاتيّ واعٍ ومُبهج». ثم أصبح زبونًا دائمًا لحانةٍ إيطاليّة تقدّم وجباته المفضّلةَ – سلامي فينيسيّ، نقانق بالكمأة، ولحم خنزيرٍ بارميّ.

1818 يُنهي كتاب العالم إرادةً وتمثّلا، الذي يعلم أنه تحفة فعليّة. يفسّر الكتاب ندرة أصدقائه: «بالكاد يمكن للعبقريّ أن يكون اجتماعيًا، إذ ما الحوارات التي يمكن أن تكون شديد الذكاء والإمتاع فعليًا كما هي مونولوغاته الخاصة؟»

1818 – 1819 يسافر شوبنهاور إلى إيطاليا للاحتفاء بإنهاء كتابه. يستمتع بالفن، والطبيعة، والمناخ، برغم استمرار هشاشة مزاجه: «لا بدّ أن نكون مدركين دومًا لحقيقة أنّه ما من إنسان شديد البعد عن الحالة التي سيكون فيها مستعدًا لإمساك سيفٍ أو سمٍّ لإنهاء وجوده؛ أمّا البعيدون عن تصديق هذا، سرعان ما سيقتنعون بالعكس عبر حادث، أو مرض، أو تغيّرٍ قاسٍ في الحظ – أو الطقس». يزور فلورنسا، وروما، ونابولي، وفينيسيا، ويلتقي عددًا من النساء الفاتنات في حفلات: «كنتُ سأتعلّق بهنّ – لو أنهنّ قَبِلْنَ بي». يساعد الرفض في خلق رأيٍ أنّ: «وحده الذكر الألمعيّ، حين

twitter @baghdad_library

يحفّه دافع جنسيّ، سيكون قادرًا على اعتبار الجنس القاصر، ضيّق الكتفين، عريض الرّدفين، قصير الساقين، هو الجنس المطلق».

1819 صدر العالم إرادةً وتمثّلا. بيع منه 230 نسخة. «كل تاريخ حياة هو تاريخ من المعاناة»؛ «لو كان بوسعي التخلّص من وهم اعتبار جيل الخبثاء والحمقى مساوين لي، سيكون هذا مصدر عونٍ كبيرٍ لي».

1820 يحاول شوبنهاور الحصول على منصب جامعيّ في قسم الفلسفة في برلين. يُلقي محاضرات عن «كُلّ الفلسفة، أي النظرية المتعلقة بجوهر العالم والذهن البشريّ». حضرها خمسة طلّاب. فيما كان يمكن سماع منافسه هيغل، في بناء مجاور، وهو يحاضر في جمهور يبلغ الثلاثمئة. يقيّم شوبنهاور فلسفة هيغل: «أفكارها الأساسيّة هي الوهم الأسخف، عالمٌ مقلوبٌ رأسًا على عقب، تهريجٌ فلسفيّ ... أما مضامينها فهي التمظهر الأجوف والأشدّ خواءً للكلمات حين ينطق بها المغفّلون، وتمثّلاتها ... هي الهراء الفارغ والأشدّ تنفيرًا الذي يماثل تشدّق المعتوه». بدايات التحرّر من سحر العالم الأكاديميّ: «كقاعدة، لم يحدث أن تناولَ أحدٌ الفلسفة بجدّية، وآخِرهم هو المُحاضر في الفلسفة بكل تأكيد، وهذا يماثل أنّه، كقاعدة، ليس ثمة من يؤمن بالمسيحيّة بقدرٍ أقلّ من البابا».

1821 يقع شوبنهاور في غرام كارولين ميدون، وهي مطربة في التاسعة عشرة من العمر. استمرت العلاقة عشر سنوات على نحو متقطّع، ولكن لم يكن لدى شوبنهاور نيّة لجعل الارتباط رسميًا: «أن تتزوّج يعني فعلَ كلّ ما يمكن ليصبح كلُّ طرفٍ موضع اشمئزاز الآخر». ومع ذلك كان مغرمًا بفكرة تعدّد الزوجات: «من

بين المزايا الكثيرة لتعدد الزوجات، هو أنّ الزوج لن يعقد صلاتٍ شديدة القرب مع أهل زوجته، وهذا هو العامل الذي يشكّل مصدر خوف حاليًا يكبح انتشار الزواج. عشر حموات بدلًا من واحدة!».

1822 يسافر إلى إيطاليا مرةً ثانية (ميلان، فلورنسا، فينيسيا). وقبل رحيله، يطلب من صديقه فريدريك أوسان البحث عن «أيّ ذِكْرٍ لي في الكتب، والجرائد، والدوريّات الأدبيّة، وما إلى ذلك». ولكنّ أوسان لم يستغرق وقتًا طويلًا للانتهاء من تلك المهمّة.

1825 بعد إخفاقه كأكاديميّ، حاول شوبنهاور أن يصبح مترجمًا. ولكن الناشرين رفضوا عروضه لترجمة كانط إلى الإنكليزيّة ورواية ترسترام شاندي إلى الألمانيّة. وأعرب في رسالة عن رغبة كئيبة باحتلال «موقع في الحياة البورجوازيّة»، ولكنّه لم يحقّق أمنيته. «لو كان ثمة ربٌّ قد خلق هذا العالم، لم أكن لأرغب أن أكون هذا الرب؛ إذ إنّ بؤسه ويأسه سيكسران قلبي». لحسن الحظ، كان بإمكانه الاعتماد على إحساس مريح بشأن قيمته في اللحظات القاسية: «كم ينبغي عليّ أن أتعلّم ... أنّ روحي وعقلي في مسائل الحياة اليوميّة يبدوان كتلسكوب في صالة أوبرا أو مدفع أثناء صيد الأرانب؟».

1828 يبلغ الأربعين. كان يعزّي نفسه «بعد بلوغه الأربعين، بالكاد سيكون أيّ رجلٍ كفؤ متحرّرًا من مسحةٍ ما من بغض البشر».

1831 في الثالثة والأربعين الآن، مقيمًا في برلين، يفكّر شوبنهاور مجددًا بالزواج. يحوّل أنظاره إلى فلورا فايس، وهي فتاة جميلة مفعمة بالحيويّة كانت قد بلغت السابعة عشرة للتو. خلال حفلة على قارب،

twitter @baghdad_library

وفي محاولة لاجتذابها، يبتسم ويقدّم لها بعض العنب الأبيض. تبوح فلورا لاحقًا في مفكّرتها: «لم أكن راغبةً بها [حبّات العنب]. شعرت بالاشمئزاز لأنّ العجوز شوبنهاور قد لمسها، ولذا تركتها تنزلق، بلطف، نحو المياه خلفي». يغادر شوبنهاور برلين على عجل: «ليس للحياة قيمة جوهريّة أصيلة، ولكنّها تستمر بفعل الرغبة والوهم».

1833 يستقر في شقة متواضعة في فرانكفورت عند نهر الماين، وقد كانت بلدة تضم 50 ألف نسمة. يصف المدينة، وهي المركز المصرفيّ في أوروبا الكوتننتاليّة، بكونها «أمةً صغيرة من المتحمّسين، صارمةً، فظّةً من الداخل، مزهوّةً باستقلالها الإداري، وفخورةً بمزارعيها الذين لا أحب الاقتراب منهم».

أصبحت علاقاته المقرّبة الآن مع كلاب البودل التي أحسّ بأنها تمتلك لطفًا وحنانًا يفتقر إليه البشر: «رؤية أيّ حيوان تمنحني السعادة مباشرةً وتُطْرِب قلبي». كان يغدق مشاعره على تلك الكلاب، مخاطبًا إياها «سيّدي»، ويبدي اهتمامًا كبيرًا برعاية الحيوانات: «الكلب شديد الذكاء، صديق الإنسان الحقيقيّ والأشد إخلاصًا، يُربَط بسلسلة بجانبه! لم يسبق لي أن رأيت كلبًا إلا وأحسست نحوه بأعلى درجات التعاطف، ونحو سيّده باحتقار عميق. أستذكر برضى حالةً كتبت عنها التايمز منذ عدة سنوات، حين كان اللورد X يربط كلبه الضخم بسلسلة. في أحد الأيام، حينما كان ينزّهه في الفناء، مدّ يده إلى رأس الكلب ليربّت عليه، فمزّق الكلب ذراعه من أعلاها إلى أسفلها، وقد كان محقًّا تمامًا! ما عناه بهذا كان: ´أنت لست سيّدي، بل شيطاني الذي يُحيل حياتي القصيرة جحيمًا!` آمل أن يحدث هذا مع كلّ من يقيّد الكلاب بسلاسل».

كان الفيلسوف يتّبع روتينًا يوميًا صارمًا. كان يكتب ثلاث ساعات في الصباح، ثم يعزف على الفلوت (روسيني) لساعة، ثم يضع ربطة عنق بيضاء لتناول الغداء في المطعم الإنكليزيّ في ساحة روسماركت بفرانكفورت. كان ذا شهيّة هائلة للطعام، ويدسّ منديلًا أبيض كبيرًا في ياقته. كان يرفض التعرّف إلى الزبائن الآخرين أثناء تناول الطعام، ولكن يشارك في محادثات أحيانًا على فنجان قهوة. يصفه أحدهم بكونه «ساخطًا على نحو هزليّ، ولكنّه في الواقع رجلٌ فظٌّ حسن الطباع لا يؤذي أحدًا».

ونقل آخر أنّ شوبنهاور يتباهى على نحو متكرر بأسنانه الممتازة كدليل على كونه أرقى من الناس الآخرين، أو بحسب كلماته، أرقى من «عموم ثنائيّي الأقدام».

بعد الغداء، يرتاح شوبنهاور في مكتبة ناديه المجاور كازينو

twitter @baghdad_library

سوسايتي، حيث يقرأ التايمز - الجريدة التي يعتبر أنّها أفضل مَنْ تخبره بمآسي العالم. منتصف العصر، يبدأ نزهته مشيًا لساعتين مع كلبه على ضفاف الماين، متمتمًا مقطوع الأنفاس. مساءً، يذهب إلى الأوبرا أو المسرح حيث غالبًا ما يُغضبه ضجيج المتأخّرين، ومن يثيرون الفوضى أو يسعلون - ويكتب للسلطات حاثًّا على إجراءات صارمة ضدّهم. ورغم قراءته واحترامه الكبير لسينيكا، إلا أنّه لا يتفق مع حُكم الفيلسوف الروماني بشأن الضوضاء: «لطالما كنتُ من أصحاب رأي أنّ كميّة الضجيج التي يمكن لأيّ شخص احتمالها تتناسب عكسًا مع قواه العقلية ... فالشخص المعتاد على صفق الأبواب بدلًا من إغلاقها بيده ... ليس مجرد سيىء السلوك، بل هو جلف ومحدود التفكير أيضًا ... ولن نصبح متحضّرين تمامًا إلا حين لن يعود من حقّ أيّ شخص التشويش على وعي أيّ كائن مفكّر عبر الصفير، الصياح، الجأر بالصوت عاليًا، الطرق المتكرر، الفرقعة بالسوط ... وما إلى ذلك».

1840 يشتري كلبة بودل بيضاء جديدة ويسمّيها أتما، على اسم روح-العالم عند البراهمانيين. كان منجذبًا عمومًا إلى الأديان الشرقيّة وإلى البراهمانيّة خصوصًا (كان يقرأ عدة صفحات من سِفر اليوبانيشاد الهندوسيّ كل ليلة). ويصف البراهمانيّين بكونهم «أنبل وأقدم البشر»، ويهدّد بطرد خادمة التنظيف لديه، مارغريتا شْنِبْ، حين تعصي أوامره بوجوب تنظيف تمثال بوذا في مكتبه.

كان يقضي فتراتٍ متزايدة من الوقت وحيدًا. وكانت أمه تبدي قلقًا بشأنه: «شهران في غرفتك دون رؤية أيّ شخص، هذا ليس جيدًا يا بنيّ، ويُحزنني، إذ لا يمكن للإنسان ولا يتوجّب عليه عزل نفسه بهذه الطريقة». ويستغرق بالنوم فتراتٍ متعاظمةً خلال النهار: «لو

كانت الحياة والوجود وضعًا قابلًا للاستمتاع، سيتجنَّب الجميع من الاقتراب من الحالة اللاواعية للنوم ليصحو مجددًا بسعادة. ولكنّ العكس تمامًا هو الوضع الفعليّ، إذ يتّجه الجميع بتلهّفٍ شديد إلى النوم غير راغبين بالاستيقاظ مجددًا». ويبرّر شهيّته للنوم عبر مقارنة نفسه باثنين من مفكّريه المفضّلين: «تتزايد حاجة البشر إلى النوم مع تعاظم تطوّرهم... وزيادة فاعليّة دماغهم. يقول مونتين عن نفسه إنه كان دومًا من ثقيلي النوم، بحيث قضى جزءًا كبيرًا من حياته نائمًا؛ وإنّه كان حتى في سنّ متقدّمة ينام ثماني أو تسع ساعات متواصلة. كما نُقل عن ديكارت أنّه كان ينام كثيرًا».

1843 ينتقل شوبنهاور إلى منزل جديد في فرانكفورت، رقم 17 في شارع شون آوسِخْت قرب نهر الماين في مركز البلدة (الترجمة الإنكليزيّة لاسم الشارع: إطلالة جميلة). وقد عاش في هذا الشارع بقيّة حياته، رغم أنّه انتقل عام 1859 إلى المنزل رقم 16 بعد جدالٍ مع صاحب المنزل بسبب الكلب.

twitter @baghdad_library

1844 أصدر طبعة ثانية ومجلدًا آخر من العالم إرادة وتمثّلا. ويشير في التصدير: «لا إلى معاصريّ أو مواطنيّ، بل إلى البشريّة أكرّس عملي الذي اكتمل الآن، واثقًا أنّه لن يكون غير ذي قيمةٍ للبشريّة، حتى لو كان سيتم الاعتراف بهذه القيمة ببطء، كما هو المصير الحتميّ للخير بأيّ صيغة كان». بيع من الكتاب أقل من 300 نسخة: «تكمن سعادتنا العظمى في أن يتم احترامنا؛ ولكن لا يميل من يحترمنا إلى التعبير عن احترامهم، حتى لو كان مبعث الاحترام جميع الأسباب الممكنة. وبذا، فإنّ أسعد إنسان هو من استطاع احترام نفسه بإخلاص، مهما حدث».

1850 تموت أتما. يشتري كلب بودل بنيًا اسمه بَتْس، الذي يصبح كلبه المفضّل. وحين كانت تمرّ فرقة عسكريّة قرب منزله، كان شوبنهاور يوقف أحاديثه ويضع كرسيًا قرب النافذة بحيث يمكن لبَتْس مشاهدتها. وكان أطفال الحي يسمّون هذا الكلب «شوبنهاور الصغير».

1851 ينشر مختارات من المقالات والأقوال المأثورة، ملاحق وحذوفات. ولدهشة المؤلّف العظيمة، يحقق الكتاب رواجًا كبيرًا.

1853 تتّسع شهرته في أرجاء أوروبا («كوميديا الشهرة»، كما يسمّيها). وتُلقى محاضرات عن فلسفته في جامعات بون، وبريسلاو، وبينا. ويتلقّى رسائل من المعجبين. وترسل له أمرأة من سيليزيا قصيدةً مُوحية طويلة. كما يكتب إليه رجل من بوهيميا ليخبره أنه يضع إكليلًا من الأزهار على صورته يوميًا. «بعد أن قضى المرء حياةً طويلةً من التجاهل وعدم الاكتراث، يأتون في النهاية بطبولهم وأبواقهم ظانّين أنّ هذا أمرٌ ذو قيمة» كان ردّه، ولكن مع وجود رضى: «هل تمكّنَ أيّ شخص بعقلٍ كبير يومًا من بلوغ هدفه

وخلق عملٍ دائم بلا انقطاع لو جعل الأزيز المزعج للرأي العام نجمَه الهاديَ، أي آراء ذوي العقول الصغيرة؟» فالفرانكفورتيّون ذوو العقول الفلسفيّة يشترون كلاب البودل ويربّونها.

1859 لأنّ الشهرة تجتذب اهتمامًا أكبر من النساء، بدأت حدّة آرائه بشأنهنّ تخفّ. فقد كان يعتبرهنّ «صالحات لأنّ يكنّ ممرّضات ومعلّمات لطفولتنا المبكّرة، لأنهنّ، على نحو دقيق، صبيانيّات، سخيفات، قصيرات النظر، أي - بكلمة واحدة - طفلات كبيرات، طوال حياتهنّ»، والآن صار يعتبرهنّ قادرات على الإيثار والتبصّر. تأتي نحّاتة فاتنة ومعجبة بفلسفته، إليزابيت ناي (متحدّرة من عائلة مارشال خدم عند نابوليون)، إلى فرانكفورت في تشرين الأول/ أكتوبر في شقّته لشهر كي تنحت تمثالًا نصفيًا له.

«تعمل طوال اليوم في شقّتي. وحين أعود من المطعم بعد الغداء، نشرب القهوة معًا، ونجلس متجاورَيْن على الصوفا، فأشعر كما لو كنّا متزوّجَيْن».

1860 توعّك صحّي متزايد يشير إلى النهاية التي تقترب:

twitter @baghdad_library

«بإمكاني احتمال فكرة أنّ الدود سيلتهم جسدي قريبًا؛ ولكنّ فكرةَ أنّ أساتذة الفلسفة سينتقدون فلسفتي تجعلني أرتعد». في نهاية أيلول/ سبتمبر، بعد نزهة على ضفاف الماين، عاد إلى المنزل يشكو من ضيق التنفّس، وفارق الحياة، وهو لا يزال على اقتناعه أنّ «الوجود البشريّ لا بد أنّ يكون نوعًا من الخطأ».

تلك كانت حياة فيلسوف ربما كان قد منح القلبَ عونًا لا نظير له.

2

قصّة حبٍّ معاصرة
مع ملاحظات شوبنهاوريّة

رجل يحاول العمل في قطار بين إدنبرة ولندن. إنها بداية الظهيرة في يوم ربيعيّ دافئ.

الورق والمفكّرة على الطاولة أمامه، وكتابٌ مفتوحٌ على مسند ذراع الكنبة. ولكن كان الرجل عاجزًا عن إبقاء أفكاره متّزنةً منذ مغادرة نيوكاسل، عندما دخلت امرأةٌ عربة القطار وجلست قرب

الممرّ. وبعد لحظات من النظر بهدوء عبر النافذة، ركّزتْ انتباهها على كومة مجلات. كانت تقرأ مجلة فوغ منذ إقامتها في دارلنغتن. إنها تُذكِّر الرجلَ بلوحةٍ لكريستن كوبكي عن السيّدة هويغ-غولدبرغ (برغم عدم تمكّنه من تذكّر أيٍّ من هذين الاسمين)، التي رآها، وأحسّ بانجذابٍ وحزن غريبين تجاهها، في متحف في الدنمارك قبل عدة سنوات.

ولكن، على عكس السيّدة هويغ-غولدبرغ، كانت الفتاة بشعرٍ بنّي قصير وترتدي الجينز، وحذاءً رياضيًا، وكنزةً ذات ياقةٍ على شكل حرف V بلون الكناري الأصفر فوق تي-شيرت. انتبه إلى ساعة ديجيتال رياضيّة كبيرة تتعارض مع معصمها الضئيل المنمَّش. تخيّل نفسه وهو يمرّر يده عبر شعرها الكستنائيّ، مدلّكًا مؤخرة عنقها، داسًا كفّه داخل كمّ كنزتها، مراقبًا إياها تنام بجانبه، وشفتاها مفتوحتان قليلًا. تخيَّل نفسه يعيش معها في منزل في جنوب لندن، في شارعٍ مؤطَّر بأشجار الكرز. خمّن أنّها عازفة تشيلو

twitter @baghdad_library

ربما، أو مصممّة غرافيك، أو طبيبة متخصّصة في الأبحاث الجينيّة. ذهنه يضجّ بسيناريوات للحديث. فكّر بسؤالها عن الوقت، عن قلم رصاص، عن مكان الحمّام، عن انطباعات عابرة عن الطقس، أو أن يلقي نظرةً على مجلّاتها. كان يتوق إلى حادث قطار يقذف عربتهما إلى أحد حقول الشعير الواسعة التي يعبرونها الآن. خلال تلك الفوضى، سيقودها بأمان إلى خيمةٍ قريبةٍ جهّزها رجال الإسعاف، حيث سيُقدَّم لهما شايٌ دافئ، ويمضيان الوقت وكلٌّ منهما يحدّق بعيني الآخر. بعد سنوات، سيجتذبان الاهتمام لدى كشف أنّهما التقيا في الحادثة المأساوية لاصطدام قطار إدنبرة إكسبرس. ولكن بما أنّ احتمال خروج القطار عن مساره بدا مستبعَدًا، ورغم علمه بمدى سخف الفكرة وشناعتها، بدا الرجل عاجزًا عن كبح نفسه من النحنحة مميلًا جسده إلى الأمام ليسأل الملاك ما إذا كانت تمتلك قلمًا إضافيًا. بدا الأمر مثل القفز عن حافّة جسرٍ شاهق العلوّ.

1 – لم يكن الفلاسفة ميّالين عادةً لأن تأخذهم المشاعر: بدت مآسي الحب شديدة الصبيانيّة بحيث لا تستحقّ الدراسة، ومن الأفضل ترك الموضوع للشعراء والهستيريّين. ليست مهمّة الفلاسفة تأمُّل الرسائل المعطَّرة المحمولة باليد. وقد كان شوبنهاور محتارًا بفعل هذا التجاهل:

لا بدّ أن نكون متفاجئين لأنّ مسألةً تلعب عمومًا دورًا مهمًا في حياة الإنسان قد تمّ تجاهلها على نحو كليّ تقريبًا حتى الآن من الفلاسفة، ولا تزال معروضةً أمامنا كمادة فجّة لم يتم التعامل معها بعد.

بدا التجاهل نتيجةً لإنكارٍ مختالٍ لجانب من الحياة اخترقَ

الصورة الذاتيّة العقلانيّة للإنسان. وقد شدّد شوبنهاور على هذا الواقع الغريب:

> الحب ... يقاطع في كل ساعة أكثر الأعمال جدّية، ويعكّر حتى أعظم العقول أحيانًا. إنه لا يتردّد... في التدخّل في مفاوضات السياسيّين واستقصاءات المتعلّمين. كما يعرف كيف يسرّب رسائل الحب وتفاصيله حتى إلى الحقائب الوزاريّة والمخطوطات الفلسفيّة... ويستلزم أحيانًا التضحية... بالصحة، أو الثروة، أو المكانة والسعادة.

2 – على نحو مشابه لكاتب المقالات الغاسكونيّ الذي ولد قبله بـ 225 عامًا، كان شوبنهاور معنيًّا بما يجعل الإنسان – الذي يُفترّض أنه الأكثر عقلانيّة بين جميع الكائنات – أدنى من رشيد. كان ثمة مجموعة أعمال لمونتين في مكتبة شقّة شون آوسخت. وكان شوبنهاور قد قرأ كيف يمكن للعقل أن يُطاح عن عرشه بفعل إطلاق ريح، أو غداء دسم، أو إظفر قدمٍ مغروزٍ في الجلد، وقد اتّفق مع رأي مونتين أنّ عقولنا خاضعةٌ لأجسادنا، برغم إيماننا المتعجرف بالرأي المعاكس.

3 – ولكنّ شوبنهاور أوغل أكثر. بدلًا من الاعتماد على أمثلة باهتة عن إطاحة العقل عن عرشه، أعطى اسمًا لقوّةٍ توجد داخلنا أحسَّ أنّها تتفوّق دومًا على العقل، قوة شديدة بما يكفي لإحباط جميع خطط العقل وأحكامه، وقد سمّاها إرادة العيش (*Wille zum Leben*) – التي تُعرَّف بكونها دافعًا كامنًا داخل البشر لإبقائهم أحياء وقادرين على التناسل. وقد

twitter @baghdad_library

تسبّبت إرادة العيش حتى للاكتئابيّين الانتحاريّين بالقتال من أجل حياتهم حين تُهدَّد بفعل تحطّم سفينة أو مرض خطير. كما أنّه يضمن أن يتم اجتذاب عواطف الأفراد الأكثر انضباطًا ونزوعًا إلى العقل بفعل رؤية الرضع الضاحكين، وحتى لو لم يتأثّروا مباشرةً، فإنّ من الأرجح أن يميلوا إلى الأطفال في شتى الأحوال، ويبتهجون عند ولادتهم. وإنّ إرادة العيش هي التي تدفع الناس لفقد عقولهم أمام المسافرين الجميلين العابرين الذين يصادفونهم في عربات قطارات المسافات الطويلة.

4 - ربما كان شوبنهاور مستاءً من الفعل الفوضويّ للحب (إذ ليس من السهل تقديم العنب لفتيات المدارس)؛ ولكنّه رفض اعتباره مجرّد عاملٍ لا متناغم أو عَرَضيٍّ. إنّه متناغمٌ كليًا مع وظيفة الحب:

> لمّ كلّ هذا الضجيج؟ ما سبب كل هذا الإلحاح، والهياج، والكرَب، والتعب؟ ... لمَ ينبغي على تفصيلٍ نافلٍ أن يلعب دورًا محوريًا كهذا ...؟ ليس من النافل وجوده في هذه المسألة؛ على العكس، تكمن أهميّة المسألة في الحفاظ التام على جدّية وحماسة الجهد. فالهدف الأسمى لجميع علاقات الحب أكثر أهميّة فعليًا من جميع الأهداف الأخرى في حياة الإنسان؛ ولذا فهو جديرٌ حقًا بالجدّية الكبيرة التي يسعى من خلالها الجميع نحوه.

وما الهدف؟ ليس التشارك أو الراحة الجنسيّة، التفاهم أو التسلية. يهيمن العامل الرومانسيّ على الحب لأنّ:

ما يتمّ إقراره عبره ليس أقل من تشكيل الجيل التالي الوجود والتكوين الخاص للجنس البشريّ في الأزمنة القادمة.

وبما أنّ الحبّ يدفعنا بمثل هذه القوّة باتجاه ثاني الاشتراطَين العظيمين لإرادة العيش، والذي يعتبره شوبنهاور أكثر هواجسنا حتميّة وقابليّة للفهم.

5 - ولا تتعارض حقيقةُ أنّ استمراريّة النوع نادرًا ما ترد في أذهاننا حين نطلب رقم هاتف [ممّن نُعجَب بهم] مع هذه النظريّة. إننا، بحسب شوبنهاور، مقسومون إلى ذاتٍ واعية وأخرى لا واعية، تسيطر اللاواعية على إرادة العيش، فيما تكون الواعية خاضعةً لها وعاجزةً عن معرفة جميع خططها. وبدلًا من أن يكون كيانًا مهيمنًا، يتم اعتبار العقل الواعي - على نحو جزئيّ - خادمًا لإرادة عيشٍ مهيمنة مهووسة بالأطفال:

twitter @baghdad_library

لا ينفذ [العقل] إلى الورشة السرّية لقرارات الإرادة. إنّه صديقٌ للإرادة بالطبع، ولكنّه صديق لا يعرف كلّ شيء.

والعقل لا يفهم إلا ما هو لازمٌ لاستمراريّة التناسل – وهذا ما قد يعني فهمًا لقدرٍ ضئيلٍ من الأشياء:

[إنه] يبقى ... مُقصًى على نحو كبير من الإملاءات الفعليّة والقرارات الجدّية لإرادته.

وهذا الإقصاء يفسّر كيف أنّنا قد لا نحسّ على نحو واعٍ بما هو أكثر من تلهّفٍ شديدٍ لرؤية شخصٍ ما مجددًا، فيما يتم دفعنا على نحو لا واعٍ عبر قوة تهدف إلى إعادة إنتاج الجيل التالي.

لمَ ينبغي أن يكون مثل هذا الخداع ضروريًا أصلًا؟ لأننا، بحسب شوبنهاور، لن نوافق كليًا على إعادة الإنتاج ما لم نكن قد فقدنا عقلنا أساسًا.

6 – هذا التحليل يَخْرق صورة الذات العاقلة بكل تأكيد، ولكنّه يواجه – على الأقل – اقتراحاتٍ تقول إنّ الحب الرومانسيّ ابتعاد قابل للتجنّب عن الواجبات الأكثر جدّية، وإنّ من الممكن أن نجد عذرًا لأولئك الشباب الذين لديهم الكثير من الوقت ليغشى عليهم في ضوء القمر ولينتحبوا ناطويلًا في أسرّتهم، ولكن سيكون من الجنون وغير الضروريّ لمن هم أكبر سنًا أن يهجروا أعمالهم لأنّهم لمحوا وجهًا في قطار. وعبر فهم الحب بكونه مفتاحًا حتميًا من الناحية البيولوجيّة لاستمراريّة النوع، تدعونا نظريّة شوبنهاور عن الإرادة إلى تبنّي موقفٍ أكثر تسامحًا تجاه السلوك الغريب الذي يُخضعنا إليه الحب أغلب الأحيان.

الرجل والمرأة جالسان إلى طاولة قرب النافذة في محل يونانيّ شمال لندن. زبديّة من الزيتون بينهما، ولكنّ أيًا منهما عاجزٌ عن ابتكار طريقةٍ لنزع النوى بتهذيب ضروريّ، لذا تركاه من دون أن يمسّاه.

لم تكن تحمل قلمًا عاديًا، لذا أعطته قلم رصاص. وبعد هنيهة، عبّرت عن مدى كرهها للرحلات الطويلة في القطار، وهي ملاحظة متكلّفة منحته الشجاعة الكافية التي كان يحتاج إليها. لم تكن عازفة تشيلو، أو مصممة غرافيك، بل محاميّة متخصّصة في تمويل الشركات تعمل في شركة في المدينة. كانت أصولها من نيوكاسل، ولكنها عاشت في لندن طوال السنوات الثماني الماضية. ومع توجّه القطار نحو إيوستن، كان قد حصل على رقم هاتفها وموافقة على دعوة للعشاء.

twitter @baghdad_library

يصل النادل ليسجّل طلباتهما. تطلب سَلَطة وسمكًا. كانت عائدة من عملها للتو، وترتدي بدلة رماديّة فاتحة، والساعة الديجيتال ذاتها.

جرى الحديث. قالت إنّ هوايتها المفضلة أثناء العطل هي تسلّق الصخور. بدأت هوايتها في المدرسة، وسافرت منذ ذلك الحين في رحلات إلى فرنسا، وإسبانيا، وكندا. تصف إثارة التعلّق على ارتفاع مئات الأقدام فوق الوادي، والتخييم في الجبال العالية، حيث تتشكّل أعمدة الجليد داخل سقف الخيمة في الصباح. أما رفيق عشائها فيشعر بالدوار عند الطابق الثاني من البنايات. ولعها الآخر هو الرقص، إذ كانت تعشق الطاقة وإحساس الحرّية. وكانت تبقى مستيقظة طوال الليل حين يكون هذا بإمكانها. فيما كان يفضّل الهجوع إلى سريره عند الحادية عشرة والنصف. تحدّثا عن العمل. كانت تعمل على قضيّة بشأن حقوق الترخيص. كان مصمّم غلّايات من فرانكفورت قد ادّعى بشأن انتهاك لحقوق الملكيّة قامت به شركة بريطانيّة. الشركة مسؤولة قانونيًا بحسب القسم 60، 1، أ، من قانون الترخيص للعام 1977.

لم يهتمّ كثيرًا بمتابعة التوصيف المفصّل للقضيّة، ولكنّه كان مقتنعًا بذكائها الشديد، وتناغمهما الممتاز.

1 – أحد الألغاز العويصة في الحب هو «لِمَ هو؟»، و«لِمَ هي؟».

لِمَ استقرّت رغبتنا بقوّة، من بين جميع المرشَّحين الآخرين، على هذا الكائن؟، لمَ عمدنا إلى تفضيلهم فوق الجميع مع أنّ حديثهم على العشاء لم يكن الأكثر إمتاعًا دومًا، وعاداتهم ليست الأكثر تناسبًا؟ ولماذا، برغم النوايا الطيّبة، كنّا عاجزين عن تنمية ميلٍ جنسيّ تجاه آخرين ممّن كانوا، ربما، جذّابين على نحو أكبر بل لعلهم كانوا الأكثر ملاءمة للعيش معهم؟

2 - آلية الاختيار لم تفاجئ شوبنهاور. نحن لسنا أحرارًا أثناء الوقوع في الحب مع الجميع لأنّنا عاجزون عن إنجاب أطفال أصحّاء مع الجميع. تدفعنا إرادة العيش الخاصة بنا باتجاه الناس الذين سيرفعون فرصنا في إنتاج ذرّية جميلة وذكيّة، وتُبعدنا عمّن يقلّل تلك الفرص ذاتها. الحب ليس سوى التجلّي الواعي للاكتشاف الخاص بإرادة العيش بشأن الشريك المثاليّ:

> اللحظة التي يبدأ فيها [شخصان] بتبادل مشاعر الحب - أن يتولّع كلٌّ منهما بالآخر، بحسب التعبير الإنكليزيّ الأكثر ملاءمة - ينبغي اعتبارها تمامًا التشكيل الفعليّ الأول لفردٍ جديد.

في اللقاءات الأولى، وتحت غطاء الثرثرة العادية، سيقدّر لا وعي كلا الطرفين ما إذا كان ثمة طفلٌ ملائم سينتج يومًا ما عن هذه العلاقة:

> ثمة ما هو فريدٌ في الجدّية اللاواعية العميقة التي يقيّم عبرها اثنان من الشباب، من جنسين مختلفين، بعضهما بعضًا عندما يلتقيان للمرة الأولى، وفي البحث والنظرات

twitter @baghdad_library

المستقصية التي يتبادلانها، والتدقيق الحريص في جميع ملامح وأجزاء كلٍّ منهما. هذا التدقيق والتفحّص يعني تأمّل عبقريّة النوع المتعلقة بالفرد الذي يمكن أن ينتج عن علاقتهما.

3 - وما الذي تسعى إليه إرادة العيش عبر هذا التدقيق؟ الدليل على الأطفال الأصحّاء. لا بدّ أن تضمن إرادة العيش أن يكون الجيل التالي ملائمًا سيكولوجيًا وفيزيولوجيًا بدرجةٍ كافيةٍ تعينه على النجاة في العالم الخطير، وبذا فإنها تسعى إلى أن يكون الأطفال متناسبين تمامًا من ناحية الأطراف (أن لا يكونوا شديدي الطول أو القصر، البدانة أو النحافة)، ومستقرّي العقل (أن لا يكونوا شديدي الجُبن أو التهوّر، البرود أو الانفعال، ... إلخ).

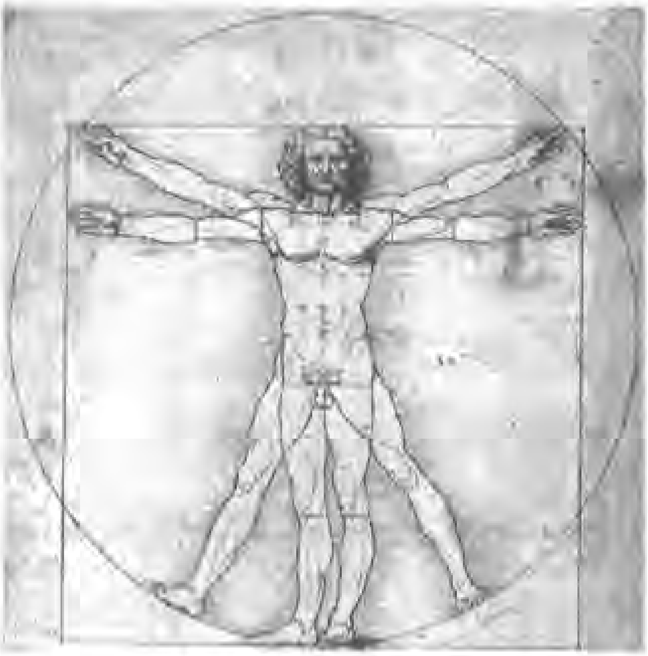

بما أنّ والدينا ارتكبوا أخطاء في مغازلاتهم، من الأرجح أنّنا لن نكون متوازنين على نحو مثاليّ. إذ نولد عادةً شديدي الطول، أو

الذكورة، أو الأنوثة؛ أنوفنا كبيرة، وذقوننا صغيرة. لو سُمح لهذه التفاوتات أن تستمر، أو تتعاظم، سيسقط الجنس البشريّ في هوّة الغرابة خلال فترة قصيرة. ولذا، لا بد لإرادة العيش أن تدفعنا باتجاه الناس القادرين، مع أخذ عيوبهم بالاعتبار، على إلغاء عيوبنا (أنف كبير مع أنف منمنم سيَعِدان بأنف تام)، وبذا ستُعيننا على استعادة التوازن الفيزيزلوجيّ والسيكولوجيّ في الجيل التالي.

> يسعى الجميع، من خلال الفرد الآخر، إلى إلغاء نقاط ضعفهم، وعيوبهم، وتشوّهاتهم عن الشكل النموذجيّ، كيلا تستمر لديهم أو ربما تتنامى لتصبح تشوّهات كاملة عند الطفل الذي سينجبونه.

أعطت نظريّةُ التحييد شوبنهاور الثقة للتنبّؤ بمسارات الانجذاب. فالنسوة القصيرات يقعن في حبّ الرجال الطوال، ولكن نادرًا ما يقع الرجال الطوال في حب نسوة طويلات (بسبب خشيتهم اللاواعية من احتمال إنجاب عمالقة). أما الرجال الأنثويّون الذين لا يحبّون الرياضة سينجذبون غالبًا إلى النساء المسترجلات اللواتي يمتلكن شعرًا قصيرًا (ويرتدين ساعات متينة):

> تحييد فردانيّتين يستلزم أن تتناغم الدرجة المحددة من ذكورته على نحو تام مع الدرجة المحددة من أنوثتها، بحيث يلغي تحيزٌ كلٍّ منهما تحيُّزَ الآخر تمامًا.

4 - للأسف، قادت نظرية الانجذاب شوبنهاور إلى خُلاصة شديدة الكآبة، بحيث يكون من الأفضل للقرّاء الموشكين على الزواج ألّا يقرأوا الصفحات القليلة القادمة كيلا يضطروا إلى إعادة التفكير بخططهم؛ تحديدًا، يعتبر شوبنهاور أنّ

twitter @baghdad_library

الشخص الذي يكون شديد الملاءمة لطفلنا لن يكون، في الغالب الأعم من الحالات، شديد الملاءمة لنا (بالرغم من عجزنا عن إدراك هذا في الوقت المناسب لأنّ إرادة العيش كانت تُعمينا).

«أن تتلازم الملاءمة مع الحب المتّقد لهي أندر ضربة حظ جيّد على الإطلاق»، كما أشار شوبنهاور. فالعاشق الذي ينقذ طفلنا من امتلاك ذقن كبيرة أو نزعة مخنّثة، نادرًا ما يكون هو الشخص الذي يجعلنا سعداء طوال حياتنا. فالسعي وراء السعادة الشخصيّة وإنجاب أطفال أصحّاء مشروعان متعارضان على نحو جذريّ. يُربكنا الحبّ بخبث ليدفعنا إلى اعتبارهما مشروعًا واحدًا لعدد كبير من السنوات. ولا ينبغي أن نُفاجأ بالزيجات بين أشخاص لم يكونوا أصدقاء في يوم من الأيام:

> الحب يفرض نفسه على الأشخاص الذين سيكونون، بمعزل عن العلاقة الجنسيّة، كارهين، مزدرين، بل وحتى متنافرين مع الحبيب. ولكنّ إرادة [الحفاظ على] النوع أقوى بكثير من إرادة الفرد، بحيث يُغمض العاشق عينيه عن جميع السمات التي تناقض طباعه، ويتغاضى عن كل شيء، ويسيء الحُكم على كل شيء، ويربط نفسه إلى الأبد بموضوع شغفه. وبذا يصبح مفتونًا كليًا بذلك الوهم الذي سيتلاشى حالما تتحقّق إرادة النوع، مخلّفةً وراءها شريكًا مكروهًا في الحياة. انطلاقًا من هذا فحسب، من الممكن تفسير السبب بشأن أننا غالبًا ما نرى أناسًا عاقلين جدًا، بل وشديدي التفوّق، مرتبطين بنساء سليطات أو

خبيثات، من دون أن نتمكّن من استيعاب السبب الذي دفعهم إلى اتّخاذ مثل هذا الخيار ... فالإنسان الواقع في الحب قد يُدرك بوضوح ويحسّ بمرارة بعيوب زوجته غير القابلة للاحتمال في الطباع والشخصية، والتي تنذره بحياةٍ كاملةٍ من البؤس، ولكن هذا لا ينفّره برغم ذلك ... إذ إنّه لا يسعى في نهاية المطاف إلى مصلحته، بل إلى مصلحة شخص ثالث سيأتي إلى الوجود، بالرغم من انغماسه في وهم أنّ ما يسعى إليه فعليًا هو مصلحته الخاصة.

يمكن رؤية قدرة إرادة العيش على توسيع غاياتها بدلًا من سعادتنا بوضوح كبير، بحسب تضمينات نظريّة شوبنهاور، في الفتور والكآبة التي عادةً ما تحفّ الزوجين بعد ممارسة الجنس مباشرةً:

ألم تنتبهوا كيف أنّه (بعد الجِماع تُسمَع ضحكة الشيطان؟)

illico post coitum cachinnus auditor Diaboli?

لذا في أحد الأيام، ستتقدّم امرأة مسترجلة ورجلٌ مخنّث من المذبح بدوافع لن يدركاها هما، أو أيّ أحد آخر (عدا قلّة قليلةٍ من الشوبنهاوريّين بين الحضور). ولاحقًا فحسب، بعد تحقّق مطالب الإرادة، ووجود طفلٍ فظٍّ يركل الكرة في حديقة من حدائق الضواحي، ستُكتشف الخدعة. سيفترق الزوجان أو سيقضيان العشاءات بصمتٍ عدائيّ. وقد عرض علينا شوبنهاور خيارًا –

يبدو أنّه، عند عقد الزواج، إما أنّ الفرد، أو مصلحة النوع، ستنتهي بنتيجةٍ سيئة...

twitter @baghdad_library

- بالرغم من أنّه تركنا مع شيءٍ من الشك بأن القدرة الأكبر للنوع ستضمن مصالحها:

سيُنجب الجيل التالي على حساب الحاضر.

يدفع الرجل فاتورة العشاء ويسأل، بهدوء مدروس، عن رأيها بالقدوم إلى شقته لتناول مشروب. تبتسم وتحدّق باتجاه الأرض. تحت الطاولة، تطوي المنديل الورقيّ إلى مربّعات أصغر فأصغر. تقول، «سيكون هذا رائعًا، ولكن عليّ أن أستيقظ مبكرًا للحاق بطيارتي إلى فرانكفورت من أجل ذلك الاجتماع، في الخامسة والنصف، وربما أبكر. لنتركها إلى مرة أخرى. سيكون هذا رائعًا. حقًا، سيكون». ابتسامة أخرى. يتمزّق المنديل بفعل الضغط.

يُخفّف اليأس بوعدٍ منها أنها ستهاتفه من ألمانيا، ولا بد أن يلتقيا مرة أخرى قريبًا، ربما يوم عودتها فورًا. ولكن لا مكالمات حتى ذلك اليوم الموعود حين تتصل به من كابينة في مطار فرانكفورت. في الخلفيّة حشودٌ وأصواتٌ آليّة تُعلن إقلاع الرحلات إلى الشرق. تخبره أنّ بإمكانها رؤية طائرات ضخمة عبر النافذة وأنّ هذا المكان يبدو كالجحيم.

تقول إنّ رحلة لوفتهانزا اللعينة قد أُجّلت، وإنّها ستحاول الحصول على مقعد في خطوط طيران أخرى، ولكن لا يتوجّب عليه الانتظار. ثم هنيهة صمت قبل أن تتأكّد الأنباء السيّئة. الأمور معقّدة قليلًا في حياتها الآن حقًا، تتابع، وهي لا تعلم ما تريده تمامًا، ولكنّها تحتاج إلى فترة من الابتعاد وقليلٍ من الوقت، ولو كان الأمر يناسبه، ستتصل به حالما يصفو ذهنها قليلًا.

1 - ربما كان الفيلسوف سيقدّم تفسيرات صارمة عن أسباب وقوعنا في الحب، ولكن ثمّة عزاء بشأن الرفض - عزاء معرفة أنّ ألمنا طبيعيّ. لا ينبغي أن نشعر بالارتباك بسبب فداحة الانزعاج الذي قد ينتج عن بضعة أيام من الأمل فحسب. سيكون من غير المنطقيّ أن يكون بإمكان قوّة شديدة بما يكفي لدفعنا باتجاه إنجاب الأطفال - لو أخفقت في تحقيق هدفها - أن تتلاشى من دون إحداث خراب. لا يمكن للحب أن يحثّنا على تكبّد عناء زيادة النوع عبر التناسل من دون أن يعِدَنا بأقصى سعادة يمكن لنا تخيّلها. وأنْ نُصدَم بسبب مدى الألم الذي يخلّفه الرفض يعني تجاهل ما يتضمّنه القبول. يجب ألّا نسمح لمعاناتنا أن تترافق مع الإشارات أن ثمة ما هو غريبٌ في المعاناة الشديدة. إذ لا بدّ من أنّ هناك أمرًا غريبًا يحدث لو لم نُعانِ.

2 - وكذلك، نحن لسنا غير جديرين بالحب. وليس ثمة ما هو خطأ فينا بذاتنا. شخصياتنا ليست منفّرة، ووجوهنا ليست بغيضة. انهار الاتّحاد لأننا كنا غير ملائمين لإنجاب طفل

twitter @baghdad_library

متوازن مع شخصٍ بعينه. ليس ثمة حاجة كي نكره أنفسنا. ويومًا ما، سنصادف شخصًا يمكن أن يجدنا رائعين وسيشعر أنه طبيعي بدرجةٍ استثنائيّة ومنفتحٌ معنا (لأن ذقننا وذقنه ستشكّلان اجتماعًا مرغوبًا من وجهة نظر إرادة العيش).

3 - ولا بد أن نتعلم، خلال الوقت، التسامح مع مَنْ رفضنا. لم يكن الانفصال خيارهم. ففي كل محاولة مخفقة من أيّ شخص لإعلام شخص آخر أنهما يحتاجان مزيدًا من الفسحة أو الوقت، وأنّهما يترددان في الارتباط أو يخشيان الحميميّة، سيعمد الرافض إلى عَقْلَنَة حُكم سلبيّ لاواعٍ من حيث الجوهر شكَّلَتْه إرادة العيش. وقد يكونُ عقلهم قدْ قدّر مزايانا، فيما لم توافق عليها إرادة العيش فأنبأتهم بهذا بطريقةٍ لا تحتمل أيّة محاججة - عبر استنزاف رغبتهم الجنسيّة بنا. ولو انجذبوا إلى أشخاص أقلّ ذكاءً منا، لا ينبغي أن نتّهمهم بالضحالة. ولا بدّ أن نتذكّر، كما يفسّر شوبنهاور، أنّ:

> ما يتمّ البحث عنه في الزواج ليس المتعة على المستوى الفكري، بل إنجاب الأطفال.

4 - لا بدّ أن نحترم قرار الطبيعة المناهض للإنجاب الذي يتضمّنه كل رفض، كما نحترم صاعقة البرق أو تدفّق اللافا - حادث شنيع ولكنّه أعظم من قدرتنا. وينبغي أن نستقي العزاء من التفكير بأن الافتقار إلى الحب:

> بين رجل وامرأة يعني التصريح أن ما سينجبانه لن يكون أكثر من كائن تعيس مشوّه السمات، مفتقرًا إلى التناغم بحدّ ذاته.

ربما كنا سعداء مع أحبّائنا، ولكنّ الطبيعة لم تكن كذلك - وهذا سبب أكبر يدفعنا إلى إرخاء قبضتنا عن الحب.

لفترةٍ من الوقت، بقي الرجل أسير الاكتئاب. في العطلة الأسبوعيّة، يتنزّه في حديقة باترسي، ويجلس على مقعد يطلّ على نهر التيمز. حاملًا معه نسخةً من كتاب غوته آلام فرتر الشاب، الذي صدر بطبعته الأولى في لايبزغ عام ١٧٧٤.

ثمة أزواج وزوجات يدفعون عربات أطفال، أو يمسكون أيدي أطفالهم. بنت صغيرة بفستان أزرق مغطّى بالشوكولا، تشير إلى طائرة تهبط باتجاه مطار هيثرو. «بابا، هل الرب هناك؟» تسأل، ولكنّ الأب على عجلة ومعكّر المزاج، فيحملها ويقول إنّه لا يعلم، كما لو أنّها قد سألته عن الاتجاهات.

ولدٌ في الرابعة يقود دراجته ثلاثيّة العجلات باتجاه شجيرة، وينادي أمه التي كانت قد أغلقت عينيها للتو على بساطٍ مفروشٍ على بقعة عشبٍ بالية. تطلب من زوجها مساعدة الطفل. يرد بفظاظة إنّه دورها. فتؤكّد أنّه دوره. يصمت. تشتمه ثم تنهض.

twitter @baghdad_library

زوجان كبيرا السن على مقعد مجاور يتشاركان شطيرة بيضٍ ورَشاد[1] بصمت.

1 - يطلب منا شوبنهاور ألا نُفاجأ بالبؤس. وألّا نبحث عن مغزى من حياتنا، أو حين نتزوج أو نصبح آباء.

2 - ثمة كثيرٌ من الكتب عن العلم الطبيعيّ في مكتبة شوبنهاور - من بينها كتاب وليم كيربي ووليم سبنس مقدّمة إلى علم الحشرات، وكتاب فرانسوا أوبيه عن النحل، وكتاب كاديه دو فو الخلد: سلوكه، عاداته، ووسائل قتله. قرأ الفيلسوف عن النمل، والخنافس، والنحل، والذباب، والجنادب، والخلد، والطيور المهاجرة، ولاحَظَ بحنوّ وحيرة كيف تُظهر كل هذه الكائنات التزامًا شديدًا وصارمًا بالحياة. أحسّ بشيء من التعاطف تجاه الخلد، حيوان بشع مشوَّه يسكن الممرات الضيّقة الرطبة، نادرًا ما يظهر في ضوء النهار، وتبدو صغاره أشبه بديدان لزجة - ولكنّه، برغم هذا، يبذل كل جهده للبقاء والاستمراريّة:

> الحفر بنشاط بكفّيه الضخمتين اللتين تشبهان المجرفة هو العمل الذي يشغل حياته بأسرها؛ ليل دائمٌ يطوّقه؛ يملك عينين كعينَيْ الجنين كي يتجنّب الضوء ما المغزى من مسار الحياة هذا المليء بالمعاناة والخليّ من اللذة؟ انشغالات ومشكلات الحياة لا تتناسب أبدًا مع مردودها أو الانتفاع منها.

(1) أعشاب تشبه أوراقها أوراق البقدونس.

بدا كلّ كائن على الأرض، بالنسبة إلى شوبنهاور، منغمسًا بالقدر نفسه في وجود عبثيّ بالقدر نفسه:

> تأمّل العمل المتواصل للنمل الصغير المسكين حياة معظم الحشرات لا تعدو أن تكون جهدًا متواصلًا لتحضير الغذاء والتركيز على الذرّية المستقبليّة التي ستفقس من بيوضها. وبعد أن تستنفد الذرّية الغذاء وتقطع مرحلة اليرقة، ستدخل الحياة لتعاود الواجب ذاته مجددًا منذ البداية لا نملك إلا أن نسأل عن مغزى هذا كله ونطلب مسرّةً عابرةً صغيرة ... بين الحين والآخر، بين ... الحاجات والجهد المتواصل.

3 - لم يكن الفيلسوف محتاجًا إلى توضيح هذه المتوازيات. نسعى إلى علاقات الحب، ونثرثر في المقاهي مع شركاء محتمَلين، وننجب أطفالًا، بالخيارات ذاتها التي تكون متوفّرة للخلد والنمل - ونادرًا ما نكون أكثر سعادة.

twitter @baghdad_library

4 - لم يكن يقصد دفعنا إلى اليأس، بل تحريرنا من التوقّعات التي تُفضي إلى المرارة. ومن المعزّي، حين يخذلنا الحب، أن نسمع أنّ السعادة لم تكن جزءًا من الخطة. ولعلّ من المفارقة أنّ أشدّ المفكّرين سوداويّةً هم الأكثر مؤاساةً:

ثمة خطأ متأصّل وحيد، ألا وهو فكرة أنّنا نعيش كي نكون سعداء ... وطالما أنّنا نصرّ على هذا الخطأ المتأصّل سيبدو العالم مليئًا بالتناقضات. إذ في كلّ خطوة، في الأشياء الكبيرة والصغيرة، نحن مقيَّدون باختبار أنّ

العالم والحياة ليسا موجودَيْن بهدف الحفاظ على وجود سعيد بكل تأكيد ولذا نجد أنّ ملامح جميع العجائز تقريبًا تحمل التعبير الذي يمكن أن ندعوه خيبة الأمل.

لم يكونوا ليصبحوا خائبي الأمل في شيخوختهم لو أنّهم دخلوا الحب بالتوقّعات الصحيحة:

ما يُسبّب انزعاج وتعاسة ... سن الشباب ... هو السعي وراء السعادة بناءً على الافتراض الأكيد أنّنا سنجدها في الحياة. انطلاقًا من هذا، سينبع الأمل المنغمس في الوهم، عدا عن عدم الرضا. فالصور الخدّاعة لسعادةٍ غامضةٍ في أحلامنا تحلّق أمامنا بأشكال عشوائيّة، لذا نبدأ بحثًا عبثيًا عن أصلها سيكتسب الشبابُ الكثيرَ لو تمكّنوا، عبر النّصح والإرشاد الدائمَيْن، من تخليص أذهانهم من الفكرة الخاطئة القائلة إنّ لدى العالم صفقةً عظيمةً سيعرضها علينا.

twitter @baghdad_library

3

نملك ميزةً واحدةً تجعلنا متفوّقين على حيوان الخلد. ربما يتعيّن علينا القتال من أجل البقاء والبحث عن شركاء وإنجاب أطفال كما يفعل، ولكن بإمكاننا، إضافة إلى هذا، الذهاب إلى المسرح، والأوبرا، والصالات الموسيقيّة، وأن نهجع إلى أسرّتنا مساءً لنقرأ الروايات والفلسفة والقصائد الملحميّة - وفي هذه النشاطات بالذات أشار شوبنهاور إلى وجود مصدر أسمى للراحة من متطلّبات إرادة العيش. ما نصادفه في الأعمال الفنّية والفلسفيّة هو نُسخٌ موضوعيّة من آلامنا ونضالاتنا، ضمن أصوات ولغة وصور. لا يُرينا الفنانون والفلاسفة ما تركناه وراءنا فحسب، بل يقدّمون تجاربنا بتأثير وذكاء أكبر مما باستطاعتنا؛ إنّهم يشكّلون مظاهر حياتنا التي نعتبرها ملكًا لنا ولكن دون أن نتمكّن من فهمها بوضوح بأنفسنا. إنّهم يفسّرون وضعنا لنا، وبذا يعينوننا كي نكون أقل عزلة، وأقل عرضةً للاضطراب بسببها. قد نكون مضطرين للاستمرار في الحفر تحت الأرض، ولكن - عبر الأعمال الإبداعيّة - ستتمكّن على الأقل من اكتساب لحظاتٍ للتبصّر في آلامنا، ما يوفّر علينا مشاعر الاستنفار والعزلة (بل وحتى الاضطهاد) التي تحفّنا بسببها. بوسائلهما المختلفة، يعمل كل من الفن والفلسفة على مساعدتنا، بحسب كلمات شوبنهاور، على تحويل الألم إلى معرفة.

كان الفيلسوف يُجلّ صديق أمه يوهان فولفغانغ فون غوته لأنّه حوَّلَ كثيرًا من آلام الحب إلى معرفة، بخاصة في الرواية التي نشرها وهو في الخامسة والعشرين، وروّجت اسمه في أنحاء أوروبا. تصف آلام فرتر الشاب الحب غير المتبادل الذي يحسّ به شاب تجاه امرأة

شابة (الفاتنة لوته التي كانت تتشارك مع فرتر في حب رواية [أوليفر غولدسميث] قسّ ويكفيلد، وترتدي فساتين بيضاء بأشرطة ورديّة على الأكمام)، ولكنّها تصف - في الوقت ذاته - علاقات الحب الخاصة بآلاف القرّاء (يُقال إنّ نابوليون قرأ الرواية تسع مرات). تتحدّث الأعمال الفنيّة العظيمة إلينا من دون أن تعرفنا. وكما أشار شوبنهاور:

> الشاعر ... يأخذ من الحياة ما هو خاص وفرديّ، ويصفه بدقّة كما هو في فردانيّته؛ ولكنّه بهذا يكشف الوجود البشريّ بأكمله بالرغم من أنّه يبدو معنيًّا بما هو خاص، هو معنيٌّ فعليًا بما هو موجود في كل مكان وزمان. وانطلاقًا من هذا تبرز جملٌ، بخاصة لدى الشعراء الدراميّين، تصلح للتطبيق المتكرر في الحياة الواقعيّة، من دون أن تكون أقوالًا مأثورةً أصلًا.

لم يتعرّف قرّاء غوته على أنفسهم في آلام فرتر الشاب فحسب، بل فهموا أنفسهم على نحو أفضل بالنتيجة، إذ كان غوته قد أوضَحَ قدرًا كبيرًا من لحظات الحب الغريبة الزائلة، لحظات كان قرّاؤه قد عايشوها من قبل، من دون أن يفهموها بالضرورة. وكشَفَ قوانين محدَّدة للحب، كان شوبنهاور قد سمّاها «أفكارًا» أساسيّة للسيكولوجيا الرومانتيكيّة. إذ عمد، مثلًا، إلى التقاط بارع للطريقة اللطيفة ظاهريًا - برغم قسوتها الفعليّة - التي يتعامل فيها الشخص الذي لم يقع في الحب مع الشخص الذي وقع فيه. في نهاية الرواية، معذَّبًا بمشاعره، ينهار فرتر أمام لوته:

> يصيح، «لوته، لن أراكِ مجددًا أبدًا!» - فترد: «لم لا؟ فرتر، قد نرى بعضنا، ولا بد من أن نرى بعضنا مجددًا، ولكنْ خفّف هياجك. أوه، لمَ كان عليك أن تولد بهذا الطّبع الحاد،

twitter @baghdad_library

هذا الشغف الجموح لكلّ شيء قريبٍ منك!» ثم تابعت ممسكةً يده: «أتوسّل إليك، كن أكثر هدوءًا. فكّر بالمسرّات الكثيرة التي تقدّمها لك روحك، ومعرفتك، ومَلَكاتك!».

لا يتوجّب علينا العيش في ألمانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كي نقدّر ما يتضمّنه هذا المقطع. ثمة قصص أقل عددًا من الناس الموجودين على سطح الأرض، تتكرّر فيها الحبكات باستمرار فيما تتغيّر الأسماء والخلفيّات. «جوهر الفنّ هو أنّ حالته الوحيدة تنطبق على آلاف»، هذا ما كان يجزم به شوبنهاور.

وتبعًا لهذا، سيكون ثمّة عزاء عند إدراك أنّ حالتنا ليست سوى واحدة من بين آلاف. قام شوبنهاور برحلتين إلى فلورنسا، عام 1818 ثم عام 1822. ولا بد أنّه زار كنيسة برانكاتشي في سانتا ماريا دل كارمن، حيث كان مازاتشو قد رسم عدّة لوحات جصّية جداريّة بين عامي 1425 و1426.

لم يكن أسى آدم وحواء عند مغادرتهما الجنّة خاصًا بهما وحدهما. في وجهيهما ووضعيّة جسديهما، كان مازاتشو قد صوَّر جوهر الأسى، فكرة الأسى الدقيقة، فكانت لوحته الجداريّة رمزًا كونيًا لعدم معصوميّتنا ولهشاشتنا. إذ طُردنا جميعًا من الجنّة السماويّة.

ولك عبر قراءة حكايةٍ مأساويّة عن الحب، سيُرقّي عاشقٌ مرفوضٌ نفسه فوق وضعه؛ لن يعود إنسانًا وحيدًا يعاني، بعزلة وارتباك، بل سيُمسي جزءًا من مجموعةٍ هائلةٍ من البشر الذين كانوا قد وقعوا في الحب عبر الزمن مع بشر آخرين في الاندفاع المؤلم لزيادة النوع. ستفقد معاناته شيئًا من حدّتها، لتصبح أكثر قابليّة للفهم، وأقلّ من أن تكون لعنةً فرديّة. ويقول شوبنهاور عن الشخص القادر على تحقيق موضوعيّةٍ كهذه:

> في مسار حياته وإخفاقاتها، سينظر بقدرٍ أقلّ إلى جعبته الفرديّة مقارنةً بجعبة البشريّة ككلّ، وبذا سيجعل من نفسه ... عارفًا أكثر منه مُعانيًا.

يجب أن نسعى دومًا، بين فترات الحفر في الظلمة، إلى تحويل دموعنا إلى معرفة.

twitter @baghdad_library

VI

العزاء

بشأن المصاعب

twitter @baghdad_library

1

قلة من الفلاسفة ركّزوا على الشعور بالبؤس. إذ ارتبطت الحياة الحكيمة عادةً بمحاولةٍ لتقليل المعاناة: القلق، واليأس، والغضب، وازدراء الذات، والأسى.

2

ثم مجددًا، كما أشار فريدريك نيتشه، دائمًا ما كان أغلب الفلاسفة «مغفّلين». «قدَري أن أكون أول إنسان محترم»، قال بدرجةٍ من الإحراج في خريف العام 1888. «لديّ خوفٌ رهيبٌ من أن يتمّ اعتباري مقدَّسًا يومًا ما»؛ ثم حدّد التاريخ قرابة فجر الألفيّة الثالثة: «لنفترض أنّه سيُسمَح للناس بقراءة [أعمالي] حوالى العام 2000». وكان واثقًا من أنّهم سيستمتعون بقراءتها:

> يبدو لي أنّ وضع كتابٍ لي بين يديّ شخصٍ ما هو إحدى أندر المزايا التي يمكن للمرء منحها لنفسه. بل وأفترض حتّى أنّه سيخلع حذاءه عندئذٍ – دع عنك البوط.

إنها ميزة لأنّ نيتشه وحده، من بين جميع المغفّلين، أدرك أنّه سيتم الترحيب بكلّ أنواع المصاعب من جانب مَنْ سيسعون إلى الإنجاز:

أنت ترغب، لو كان هذا بالإمكان - وليس ثمة «لو كان بالإمكان» أشدّ جنونًا من هذا - أن تُلغي المعاناة؛ ونحن؟، يبدو لي حقًا أننا سنزيدها بل وسنجعلها أسوأ مما كانت عليه من قبل!

برغم كونه حريصًا على تمني الأفضل لأصدقائه، كان نيتشه يعلم في قرارة نفسه ما يحتاجون إليه:

لأولئك البشر ممّن أنا معنيٌّ بهم بهذا القدر أو ذاك، أتمنّى المعاناة، والأسى، وسوء المعاملة، والإهانات - أتمنّى أن لا يبقوا غريبين عن ازدراء الذات العميق، وعن عذاب الارتياب بالذات، وعن بؤس القهر.

الأمر الذي ساعد في تفسير قيمة عمله، حتى لو قالها بنفسه:

أعظم هديّة تلقّتها [البشريّة] على الإطلاق.

3

لا ينبغي أن نخاف من المظاهر الخارجيّة.

في أعين الناس الذين يروننا للمرة الأولى ... عادةً ما لا نساوي شيئًا أكثر من مجرد سمةٍ فرديّة واحدة تبرز للعين وتحدّد الانطباع الكامل الذي نأخذه. وبذا يمكن عادةً رؤية ألطف البشر وأكثرهم حصافةً، لو كان ذا شاربٍ ضخم ... بكونه ليس أكثر من مُلحَق بالشارب الضخم، أي من النوع العسكريّ، سريع الغضب الذي قد يصبح عنيفًا أحيانًا - وكذا ستتم معاملته.

twitter @baghdad_library

4

لم يفكّر دومًا بالصعوبة بهذا الإتقان. إذ في آرائه الأولى، كان مدينًا لفيلسوف كان قد اكتشفه في عمر الحادية والعشرين حين كان طالبًا في جامعة لايبزغ. في خريف العام 1865، في مكتبة للكتب المستعملة في شارع بلومنغاسه في لايبزغ، كان قد حمل بالصدفة نسخةً من كتاب العالم كإرادةٍ وتمثّل، الذي كان مؤلّفه قد مات قبل خمس سنوات في شقة في فرانكفورت على بعد 300 كيلومتر غربًا:

> وضعتُ [كتاب شوبنهاور] في يدي وكان مجهولًا تمامًا بالنسبة إليّ وبدأتُ تقليب الصفحات. لا أعلم أيّ روحٍ حارسة كانت تهمس لي: «خذ هذا الكتاب إلى المنزل». في جميع الأحوال، هذا ما حدث، مع أنّه كان مناقضًا لعادتي بعدم التعجّل بشراء كتاب أبدًا. في المنزل، رميت بجسدي عند زاوية الصوفا مع كنزي الجديد، وبدأت بالسماح لتلك العبقريّة الكئيبة الديناميكيّة بالتأثير فيّ. كان كلّ سطر يصدح بالإنكار، والنّفي، والتسليم.

غيّر العجوز حياة الشاب. وكان جوهر الحكمة الفلسفيّة، كما فسّر شوبنهاور، يكمن في ملاحظة أرسطو في كتاب الأخلاق لنيكوماخوس:

> يسعى الحكيم إلى التحرّر من الألم، لا إلى السعادة.

وقد كانت أولويّةُ جميع الساعين إلى الرضا الاعترافَ باستحالة إنجاز الأمر، وبذا سيتجنّبون المشكلات والقلق الذي نواجهه عادةً في السعي وراء هذا الإنجاز:

> [ينبغي علينا] توجيه هدفنا لا نحو ما هو بهيجٌ ومستساغٌ في الحياة، بل نحو تجنُّبِ شرورها التي لا تُحصى قدر الإمكان ... الحصّة الأسعد ستكون من نصيب الإنسان الذي أمضى حياته من دون ألم كبير، جسديّ أو عقليّ.

في المرة التالية، عندما أرسل رسالة إلى أمه الأرملة وأخته التي تبلغ التاسعة عشرة في ناومبورغ، استبدل نيتشه التقارير المعتادة بشأن نظامه الغذائيّ وتقدُّم دراسته بملخّص عن فلسفته الجديدة المتعلقة بالإنكار والتسليم:

> نعلم أنّ الحياة تتكوّن من المعاناة، وأنّنا كلّما جَهدنا أكثر في محاولة الاستمتاع بها، ستزداد عبوديّتنا لها، ولذا [ينبغي] علينا نبذُ متع الحياة والركون إلى التقشّف.

بدا هذا غريبًا بالنسبة إلى أمه، التي ردّت برسالة تشرح فيها عدم استساغتها لـ «ذاك النوع من العرض أو ذلك النوع من الرأي بقدر ما أحبُّ الرسالة الملائمة المليئة بالأخبار»، ونصحت ابنها أن يُوكل قلبه للربّ وأن يأكل جيدًا.

ولكنّ تأثير شوبنهاور لم يخمد. وبدأ نيتشه يعيش حياته باحتراس. وتصدَّر الجنس لائحةً كتبها تحت عنوان «تضليلات الفرد». خلال خدمته العسكريّة في ناومبورغ، وضع صورةً لشوبنهاور على مكتبه، وكان يصيح في اللحظات العصيبة، «شوبنهاور، النجدة!». وفي الرابعة والعشرين من عمره، عند تسلّمه كرسيّ الفيلولوجيا الكلاسيكيّة في جامعة بال، انجذب إلى الدائرة المقرّبة من رتشارد وكوزيما فاغنر من خلال حبّهم المشترك لأسطورة فرانكفورت الحكيمة التشاؤميّة.

twitter @baghdad_library

5

من ثم، بعد أكثر من عقدٍ من الولاء، في خريف العام 1876، سافر نيتشه إلى إيطاليا وعايشَ تغيُّرًا جذريًا في أفكاره. كان قد قَبِلَ دعوةً من مالفيدا فون مايزنبوغ، وهي سيّدة ثريّة في منتصف العمر شديدة الحماسة للفنّ، لقضاء عدة أشهر معها برفقة مجموعة من الأصدقاء في فيلا في سورينتو عند خليج نابولي.

«لم أره بمثل هذه الحيويّة من قبل. كان يضحك بصوتٍ عالٍ بسعادة عميقة»، قالت مالفيدا عن ردة فعل نيتشه الأولى بشأن فيلا روبيناتشي، التي كانت تقع في جادّة مليئة بأوراق الشجر عند حافة سورينتو. من غرفة المعيشة كان ثمّة إطلالة جميلة على الخليج، وجزيرة إيشيا، وجبل فيزوف، وأمام المنزل كان ثمة حديقة صغيرة من أشجار التين والبرتقال، إضافة إلى أشجار سرو وعريشة عنب تتدلّى باتجاه البحر.

انشغل الضيوف بالسباحة، وزيارة بومبييه، وفيزوف، وكابري، والمعابد اليونانيّة في بايستوم. وحين يحلّ موعد الطعام، كانوا

يتناولون أطباقًا خفيفة مطهوّة بزيت الزيتون، وكانوا يقرأون معًا في غرفة المعيشة في المساء: محاضرات ياكوب بوركهارت عن الحضارة اليونانيّة، ومونتين، ولا روشفوكو، وفوفنارغ، ولابروبير، وستاندال، وقصيدة غوته الغنائيّة عروس وكورنت ومسرحيّته الابنة الطبيعيّة، وهيرودوت، وثوسيديديس، وقوانين أفلاطون (مع أنّ نيتشه لم يكن ميّالًا لهذا الكتاب الأخير، ربما بتأثير من اعتراف مونتين بشأن نفوره منه): «المحاورة الأفلاطونيّة، ذلك النمط المغرور البغيض الصبيانيّ من الديالكتيك، لا يمكن له أن يملك تأثيرًا محفّزًا إلا إذا لم يكن المرء قد قرأ أعمال أيّ [كاتب] فرنسيّ جيّد ... أفلاطون مملّ»).

وبعدما سبح في البحر المتوسط، وتناول طعامًا مطهوًّا بزيت الزيتون بدل الزبدة، وتنفّس هواءً دافئًا وقرأ مونتين وستاندال («هذه الأشياء الصغيرة - الغذاء، المكان، المناخ، التجدّد، التسفسط الباطل بشأن الأنانيّة - تَفُوقُ كلَّ مفاهيم الأهميّة مقارنةً بأيّ شيء كان يُعتبَر مهمًا حتى اليوم»)، غيّر نيتشه تدريجيًا فلسفته المتعلقة بالألم واللذة، ومعها نظرته بشأن الصعوبة. عند مشاهدة غروب الشمس عند خليج نابولي في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 1876، كان قد انغمس في إيمان جديد غير-شوبنهاوريّ بالوجود. أحسّ أنه كان عجوزًا في بدايات حياته، فهَمَرَ الدمع عندما فكّر أنه قد أُنقذ في اللحظة الأخيرة.

6

وقد أعلن تغيّر أفكاره رسميًا في رسالة إلى كوزيما فاغنر في نهاية العام 1876: «هل ستصيبك الدهشة لو اعترفتُ بشيءٍ بدأ

twitter @baghdad_library

يتوضح تدريجيًا، ولكنّه كان قد دخل إلى وعيي بهذه الدرجة أو تلك: اختلاف مع تعاليم شوبنهاور؟ عمليًا أنا لا أوافقه في جميع الطروحات العامة».

إحدى تلك الطروحات هي، لأنّ الإنجاز وهمٌ، ينبغي على الحكماء تكريس أنفسهم لتجنّب الألم بدلًا من السعي وراء اللذة، وأن يعيشوا بهدوء، كما نصحهم شوبنهاور، «في غرفة صغيرة مضادّة للنيران» - وهي نصيحة بدت لنيتشه الآن جبانةً وغير صحيحة في آن، ومحاولةً منحرفةً للبقاء، كما كان سيصفها بازدراء بعد عدة أعوام، «متخفّيًا في الغابات كغزال خجول». يتم تحقيق الإنجاز لا عبر تجنب الألم، بل عبر تحديد دوره بكونه طبيعيًا، وخطوةً لا يمكن تجنّبها على الطريق نحو التوصّل إلى أيّة غاية جيّدة.

7

ما ساعدَ نيتشه على تغيير نظرته، عدا عن الطعام والجو، كان تفكّره بالأفراد القلة عبر التاريخ الذين بدوا أنّهم قد عرفوا إنجازات الحياة فعليًا؛ أفراد بالكاد يمكن توصيفهم - لو استخدمنا أحد أكثر المصطلحات جدليّةً في القاموس النيتشويّ - بكونهم أُوبَرْمِنْشن *Übermenschen* [جمع أُوبَرْمِنْش *Übermensch* = الإنسان الأعلى أو «السوبرمان»].

تدين السمعة السيّئة للكلمة وتهافتُها لفلسفة نيتشه الخاصة على نحو أقل بالمقارنة مع انبهار أخته إليزابيت بالاشتراكيّة القوميّة («تلك المغفَّلة الحقودة المعادية للسّاميّة»، كما كان قد وصفها

فريدريك قبل فترة طويلة من مصافحتها للفوهرر)، ومع القرار الغافل الذي اتّخذه مترجمو نيتشه الأنغلوساكسونيّون الأوائل عبر إعطاء الأُوبَرْمِنْش اسمَ بطلٍ كرتونيٍّ أسطوريّ.[1]

هتلر يرحّب بإليزابيت نيتشه في فايمار، تشرين الأول/ أكتوبر 1935

ولكن لم يكن لمصطلح أُوبرمنش الخاص بنيتشه علاقةٌ كبيرةٌ

(1) ثمّة خلطٌ في توصيف المؤلّف لعمليّة ترجمة المصطلح النيتشويّ، إذ إنّ الترجمة الإنكليزيّة الأولى للمصطلح، على يد ألكساندر تيله (1866-1912) الذي كان أوّل من ترجم هكذا تكلّم زرادشت إلى الإنكليزيّة عام 1896، كانت «ما وراء الإنسان». ولكنّ مترجم نيتشه الثاني توماس كومن (1850-1919) كان هو من أدخل مصطلح «السوبرمان» للمرة الأولى إلى اللغة الإنكليزيّة حين ترجم الكتاب نفسه عام 1909، وذلك استنادًا إلى مسرحيّة جورج برنارد شو الإنسان والسوبرمان (1903)، لا إلى الشخصيّة الكرتونيّة التي لم تظهر إلا عام 1933. ثم تلاحقت الترجمات لتصبح «السوبرمان» هي الترجمة الأكثر شيوعًا لـ «أوبَرْمِنْش» (بخاصة في الترجمات العربيّة لنيتشه) برغم عدم دقّتها؛ إذ إنّ المعنى الحرفي لـ über هو «فوق» أو «عبر» (أو «ما وراء» على نحو أقل)، بحيث تصبح الترجمة الأدقّ للمصطلح هي «الإنسان الأعلى»؛ مع ملاحظة أنّ بعض المترجمين أبقى المصطلح كما هو من دون ترجمة، أي أوبَرْمِنْش. [المترجم]

twitter @baghdad_library

بالطيّارين المتفوّقين المجوقلين أو الفاشيّين. فالإشارة الأوضح إلى هويّتهم وردت في ملاحظة عابرة في رسالة إلى أمه وأخته:

> حقيقةً، ليس ثمة من أكترث له كثيرًا بين الأحياء. فالناس الذين أحبّهم ماتوا منذ وقتٍ طويل جدًا - الأب غالياني، أو أونريه بِلْ [ستاندال]، أو مونتين، على سبيل المثال.

كان يمكن له إضافة بطل آخر، هو يوهان فولفغانغ فون غوته. وربما كان هؤلاء الأربعة المفاتيح الأبرز لما وصل إليه نيتشه بعد نضوجه بشأن فهم ما تعنيه الحياة المُنجَزة.

مونتين (1533 - 1592)

كانوا متشابهين بقدر كبير. كانوا فضوليّين، وموهوبين فنيًا، ونشطين جنسيًا. وبرغم جانبهم السوداويّ، كانوا يضحكون، بل معظمهم كان يرقص أيضًا؛ كانوا منجذبين إلى «نور الشمس

اللطيف، والهواء المنشِّط المنعش، والنباتات الجنوبيّة، ورائحة البحر، والوجبات السريعة من اللحم والفاكهة والبيض». وكان لبعضهم مزاجٌ فكاهيٌّ سوداويٌّ قريبٌ من مزاج نيتشه – ضحكة خبيثة مرحة نابعة من خلفيّة تشاؤميّة. وكانوا قد استكشفوا إمكانيّاتهم، وامتلكوا ما يسمّيها نيتشه «الحياة»، التي تعني الشجاعة، والطموح، والكرامة، وقوة الشخصيّة، والفكاهة، والاستقلاليّة (وغيابًا موازيًا للنفاق، والخضوع، والاستياء، والتزمّت).

الأب غالياني (1728 - 1787)

وكانوا منخرطين في العالم. كان مونتين عمدة بوردو لدورتين وقد جال أنحاء أوروبا على صهوة الخيل. وكان الأب غالياني النابوليّ سكرتيرًا لسفارة باريس وألّف كتبًا عن الاعتمادات الماليّة وتوزيع الحبوب (وكان فولتير قد امتدحه لجمعه فطنة موليير وذكاء أفلاطون). وكان غوته قد عمل لعقدٍ من الزمن كموظّف حكوميّ

twitter @baghdad_library

في محكمة فايمار؛ كما طرح إصلاحات في الزراعة، والصناعة، والإعانة الاجتماعيّة، واضطلع بمهمّات دبلوماسيّة، والتقى نابوليون مرتين.

غوته (1749 - 1832)

ستاندال/ هنري بِلْ (1783 - 1842)

أثناء زيارته إلى إيطاليا عام 1787، كان قد شاهد المعابد اليونانيّة في بايستوم، وصعد جبل فيزوف ثلاث مرات، مقتربًا من فوهة البركان بما يكفي لتفادي اندفاعات الحجارة والرماد.

سمّاه نيتشه «المذهل»، «آخر ألمانيّ أشعر نحوه بالإجلال»: «استثمر النشاط العمليّ ولم يفصل نفسه عن الحياة بل

twitter @baghdad_library

انغمس فيها وانخرط إلى أقصى ما في طاقته كان يرغب بكلّية الأشياء؛ وناضل ضد فصل العقل، والحسّانيّة، والشعور، والإرادة».

كان ستاندال قد رافق جيوش نابوليون حول أوروبا، وزار آثار بومبييه سبع مرات وانبهر بجسر بون دو غار حين يكون القمر بدرًا الساعة الخامسة فجرًا («بالكاد تمكَّنَ الكولوسيوم في روما من إغراقي في مثل هذا الاستغراق العميق ..».).

وكان أبطال نيتشه قد غرقوا في الحب مرارًا وتكرارًا. «تميل حركة العالم بأسرها وتتّجه نحو الجِماع»، كان مونتين قد جزم بهذا. في سن الرابعة والسبعين، في عطلة في ماريانباد، كان غوته قد أصبح متيَّمًا بأولريكه فون ليفيتسو، وهي فتاة جميلة في التاسعة عشرة كان قد دعاها لشرب الشاي والتنزّه، قبل أن يطلب يدها (وترفضه) للزواج. كان ستاندال، الذي عرف فرتر وأحبّه، شغوفًا كمؤلّف الرواية، إذ تُفصِّل يومياتُه مغامراتِه خلال عقود من حياته. في الرابعة والعشرين، حين كان مع الجيوش النابوليونيّة في ألمانيا، أغوى ابنة صاحب الحانة إلى سريره، وأشار بتباهٍ في مفكّرته إلى أنّها كانت «أول امرأة ألمانيّة ممّن عرفتهنّ تُصاب بإنهاكٍ تام بعد بلوغها الرّعشة. أغويتُها بمداعباتي فشُغفتْ بها؛ كانت شديدة الخوف».

وأخيرًا، جميع هؤلاء كانوا فنّانين («الفنّ هو المحفّز الأعظم على الحياة»، كما يقول نيتشه)، ولا بدّ من أنّهم أحسّوا برضا استثنائيّ بعد إكمالهم المقالات، وسقراط المتخيَّل، والمرثيّات الرومانيّة، وعن الحب.

8

بحسب إشارة نيتشه، ثمة بعض العناصر التي يحتاج إليها البشر على نحو طبيعيّ من أجل حياةٍ مُنجَزة. وقد أضاف تفصيلًا مهمًا؛ أنّ من المستحيل تحصيلها دون عيش فترةٍ بائسةٍ جدًا لبعض الوقت:

> ماذا لو كانت السعادة والتعاسة مرتبطتين معًا بحيث لا بدّ لكلّ من يرغب بامتلاك أكبر قدرٍ ممكنٍ من إحداهما أن يمتلك قدرًا مماثلًا من الأخرى أمامك الخيار: إما أقلّ تعاسةٍ ممكنة، وقدْرًا من الصبر ... أو أكبر تعاسةٍ ممكنة كثمنٍ لتنامي فرط اللذائذ والمسرّات اللطيفة التي نادرًا ما يتم التمتّع بها؟ لو قرّرتَ المضيّ في الخيار الأول آملًا تقليص وتخفيض مستوى الألم البشريّ، يتوجّب عليك كذلك تقليص وتخفيض مستوى قدرتها على تحقيق السعادة.

فأكثر المشاريع البشريّة تحقُّقًا تبدو غير قابلة للانفصال عن درجةٍ ما من العذاب، ومصادر مسرّاتنا العظمى تبدو قريبةً على نحو غريب من مصادر آلامنا العظمى:

> انظروا إلى حيوات أفضل الناس والشعوب إنجازًا واسألوا أنفسكم ما إذا كان بإمكان الشجرة التي كان يُفترَض بها النموّ إلى ارتفاعٍ معقول التأقلم مع الطقس السيّئ والعواصف؛ وما إذا كانت التعاسة والمقاومة الخارجيّة، وبعض ضروب الكراهية، والغيرة، والعناد، والريبة، والقسوة، والجشع، والعنف لا تنتمي إلى الظروف المناسبة التي لا يمكن من دونها لأيّ نماءٍ عظيمٍ أن يحدث تقريبًا.

twitter @baghdad_library

9

لماذا؟ لأنّه ما من أحد قادر على إنتاج عملٍ فنيٍّ عظيم من دون تجربة، أو تحقيق مكانةٍ دنيويّة مباشرةً، أو أن يكون عاشقًا عظيمًا من المحاولة الأولى؛ وفي الحدّ الفاصل بين الإخفاق الأوّليّ والنجاح اللاحق، في الهوّة بين المكانة التي نتمنّى تحقيقها يومًا ما ومكانتنا حاليًا، لا بدّ من الألم، والقلق، والحسد، والذل. إننا نعاني لأنّنا عاجزون، عفويًا، عن التحكّم بمقادير الإنجاز.

كان نيتشه يسعى جاهدًا لتصحيح الاعتقاد القائل إنّ على الإنجاز التحقّق بسهولة أو أنّه لن يتحقّق أبدًا، وهو اعتقاد ذو تأثيراتٍ هدّامة، إذ يقودنا إلى الانسحاب على نحو طفوليّ من التحدّيات التي كان يمكن تجاوزها لو كنّا مُهيَّئين لمواجهة الوحشيّة التي تستلزمها – على نحو مشروع – جميع الأشياء القيّمة تقريبًا.

قد نظنّ أنّ مقالات مونتين قد انبثقت بصيغتها الكاملة من ذهنه، وكذا يمكن اعتبار حماقة محاولاتنا الأولى لكتابة فلسفةِ حياةٍ بمثابة علاماتٍ على عجزٍ فِطريٍّ عن تحقيق هذا الواجب. وينبغي أن ننظر بدلًا من ذلك إلى الدلائل على المكابدات التأليفيّة الهائلة التي تكمن خلف التحفة النهائيّة، إلى المجموعة الضخمة من الإضافات والمراجعات التي استلزمتها المقالات.

الأحمر والأسود، وحياة هنري برولار، وعن الحب لم تكن أسهل في الكتابة. إذ بدأ ستاندال حياته الإبداعيّة بخربشة عددٍ من المسرحيّات البائسة. تمحورت إحداها حول وصول جيشٍ من المهاجرين إلى مدينة كيبرون (كانت الشخصيّات ستضمّ وليم بِتْ

وتشارلز جيمس فوكس)، وصوّرتْ أخرى صعود بونابرت إلى السُّلطة، وثالثة - بعنوانٍ موقَّت هو الرجل الذي يخشى أن يُحكَم - صوّرت انحدار عجوزٍ إلى الخرَف. كان ستاندال قد قضى أسابيع في المكتبة الوطنيّة يدوّن تعاريف قاموسيّة لمفردات مثل «نكتة»، و«سخيف» و«هزليّ» - ولكنّها لم تكن كافيةً لتغيير كتابته المسرحيّة الرديئة. استلزم الأمر عقودًا من الكدّ قبل ظهور التحف الأدبيّة.

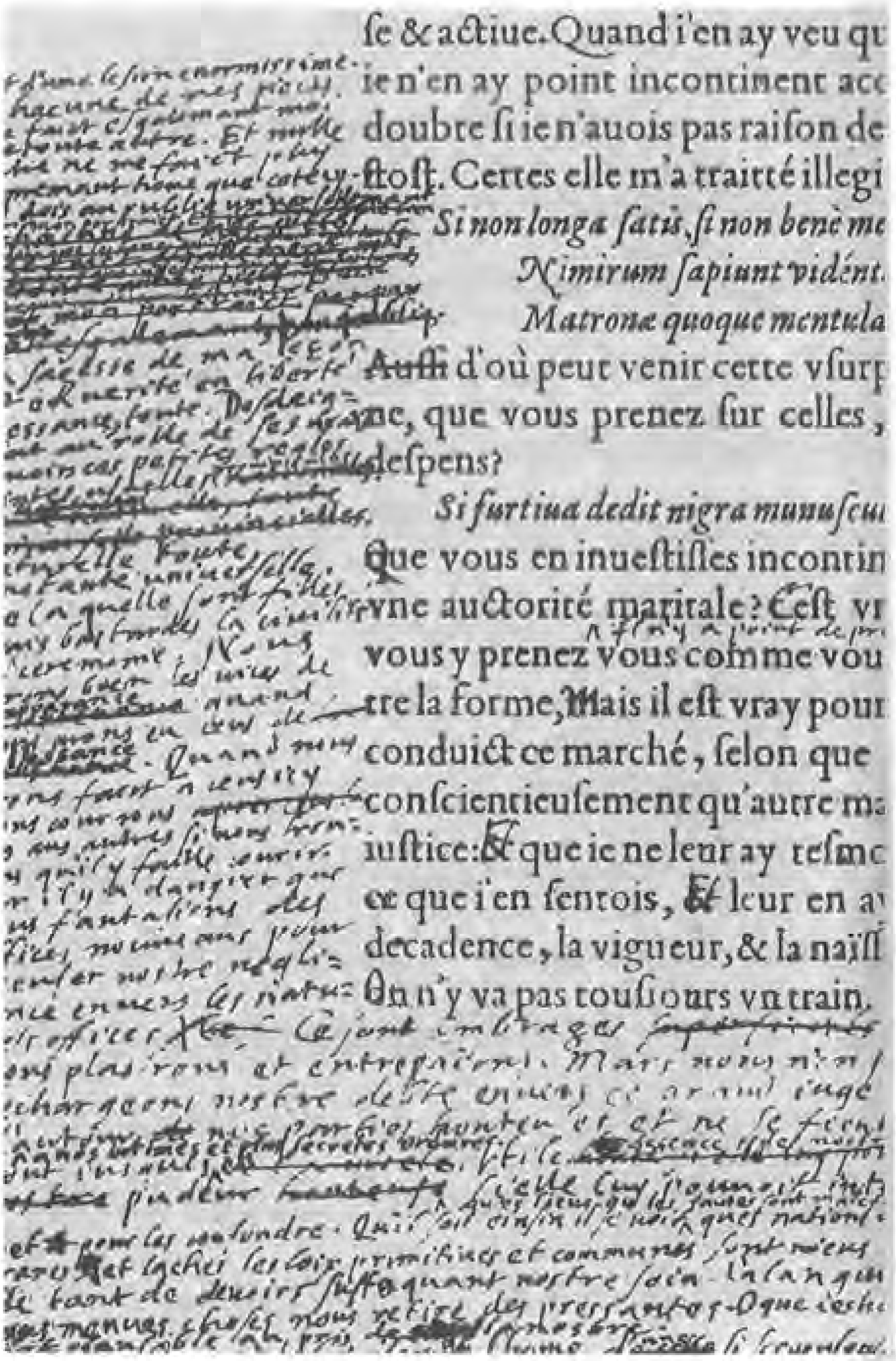
se & actiue. Quand i'en ay veu qu
ie n'en ay point incontinent acc
doubte si ie n'auois pas raison de
stost. Certes elle m'a traitté illegi
Si non longa satis, si non benè me
Nimirum sapiunt vident.
Matronæ quoque mentula
Aussi d'où peut venir cette vsurp
ne, que vous prenez sur celles,
despens?
Si furtiua dedit nigra munuscu
que vous en inuestisses incontin
vne auctorité maritale? C'est vr
vous y prenez vous comme vou
tre la forme, Mais il est vray pour
conduict ce marché, selon que
consciencieusement qu'autre m
iustice: & que ie ne leur ay tesmo
ce que i'en sentois, & leur en a
decadence, la vigueur, & la naiss
On n'y va pas tousiours vn train.

twitter @baghdad_library

معظم الأعمال الأدبيّة أقل مستوى من الأحمر والأسود، وهذا - كما أشار نيتشه - لا يعود إلى أنّ مؤلّفيها يفتقرون إلى العبقريّة، بل لأنّ لديهم فكرةً مغلوطةً عن مدى الألم المطلوب. هاكم مدى الصعوبة التي ينبغي أن يتكبّدها المرء عند محاولته كتابة رواية:

الوصفة كي تصبح روائيًا جيّدًا من السهل قولها، ولكنّ شقّ غمارها يستلزم مزايا يعتاد المرء على التقليل من شأنها حين يقول: «لا أملك موهبة كافية». كلّ ما على المرء فعله هو وضع مئة مخطط تقريبًا للروايات، من دون أن تكون أطول من صفحتين ولكن ينبغي أن تكون دقيقةً إلى درجة أن تكون كلّ كلمةٍ فيها ضروريّة؛ وينبغي على المرء تدوين ملاحظاتٍ يوميًا إلى أن يتوصّل إلى معرفة كيفيّة إعطائها الصيغة الأشدّ إثمارًا وفعاليّة؛ ولا بد أن يكون المرء جادًّا بلا كلل في جمع وتوصيف الأنماط والشخصيات البشريّة؛ وعلى المرء، قبل أيّ شيء آخر، أن يروي أمورًا للآخرين وينصت إلى آخرين يروون، مبقيًا عينيه وأذنيه مشرعةً على الأثر الذي تتركه تلك التفاصيل على الحاضرين؛ وعلى المرء أن يسافر مثل رسّام المناظر الطبيعيّة ومصمّم الأزياء ويجب على المرء، أخيرًا، تأمُّل دوافع الأفعال البشريّة، وأن لا يترفّع عن أيّ تفصيلٍ بشأنها، وأن يكون جامعًا لتلك الأشياء ليلًا نهارًا. ولا بدّ أن يتابع المرء هذا التمرين متعدّد الجوانب قرابة عشر سنوات؛ وما سيتم إبداعه في تلك الورشة حينئذٍ ... سيكون ملائمًا لإخراجه إلى العالم.

عوَّلَ الفيلسوف على مزيجٍ غريبٍ من الإيمان الشديد بالإمكانيّة البشريّة (الإنجاز مُتاحٌ لنا جميعًا، وكذا كتابة الروايات العظيمة) والصرامة الشديدة (قد نُضطر إلى قضاء عقدٍ كاملٍ بائسٍ على الكتاب الأول).

بهدف جعلنا معتادين على مشروعيّة الألم، قضى نيتشه قسطًا كبيرًا من الوقت وهو يتحدث عن الجبال.

10

من الصعب قراءة أكثر من بضع صفحات من دون أن نرتطم بإحالةٍ إلى جبال الألب:

هُوَذا الإنسان: من يُتقن كيفيّة تنفّس هواء كتاباتي سيدُرك أنّه هواء المرتفعات، هواء عنيف. على المرء أن يتحضَّر له، وإلا فثمة احتمالٌ كبيرٌ أن يصاب المرء بالبرد. الجليد قريب، والعزلة رهيبة – ولكن يا للسلام الذي تبدو عليه الأشياء تحت الضوء! يا للحريّة التي يتنفّس بها المرء! كم يحسّ المرء أنّه داخل نفسه! الفلسفة، كما فهمتها وعشتها حتى الآن، عيشٌ طوعيٌّ في الجليد والجبال الشاهقة.

أصل الأخلاق وفصلها: سنحتاج إلى نوعٍ آخر من العزم مغايرٍ لتلك التي من الأرجح أن نصادفها في هذه السنّ [كي نفهم فلسفتي] ... إذ ينبغي أن نتأقلم مع هواءٍ أشحّ في الأعلى، ومع رحلات الشتاء، ومع الجليد والجبال بكل المعاني.

إنسانٌ، مفرط في إنسانيّته: في جبال الحقيقة لن يكون تسلّقك غير ذي جدوى: إما أنّك ستتسلّق إلى ارتفاع أعلى اليوم أو ستجرّب قوّتك بحيث تكون قادرًا على التسلّق أعلى في الغد.

twitter @baghdad_library

تأملاتٌ في غير أوانها: أن تتسلّق نحو هواء الألب الجليديّ الرائق كما تسلّق فيلسوفٌ، أعلى إلى حيث يتلاشى الضباب والغموض، وحيث ينطق التكوُّن الجوهريُّ للأشياء بصوتٍ مضطربٍ عسيرٍ ولكنْ من دون أن تعجز عن إدراكه!

لقد كان - بالمعنى العمليّ والروحانيّ - جبليًّا. وبعد نيله الجنسيّة في نيسان/ أبريل 1869، يمكن اعتبار نيتشه فيلسوف سويسرا الأشهر. ومع ذلك، كان يُذعن أحيانًا لشعورٍ قلةٌ من السويسريّين لا يدركونه. «أنا حزين لكوني سويسريًا!» شكى لأمه بعد عام من نيله الجنسيّة.

بعد استقالته من منصبه في جامعة بال وهو في الخامسة والثلاثين من العمر، بدأ يقضي الشتاء على سواحل المتوسّط، بخاصة في جنوا ونيس، والصيف في جبال الألب، في قرية صغيرة تتبع مدينة سِلْس-ماريا، على ارتفاع 1800 متر فوق سطح البحر عند وادي إنغادين جنوب شرقي سويسرا، على بعد بضعة كيلومترات من قرية سان موريتس، حيث ترتطم الرياح القادمة من إيطاليا بالرياح الشماليّة الأخفّ فتُحيل السماء زرقاء بلون الزبرجد.

زار نيتشه وادي إنغادين للمرة الأولى في حزيران/ يونيو 1879، فوقع في غرام المناخ والتضاريس. «لديّ الآن أفضل وأروع هواءٍ في أوروبا لأتنفّسه. طبيعته تشابه طبيعتي»، قال لبول ريه. وكتب إلى بيتر غاست، «هذه ليست سويسرا ... بل أمرٌ مختلف، أكثر جنوبيّةً على الأقل - عليّ أن أتوجّه إلى هضاب المكسيك العالية المطلّة على المحيط الهادئ لأجد أمرًا مماثلًا لهذا (أوكساكا، مثلًا)، وسيكون الطعام هناك مداريًا. حسنًا، سأحاول إبقاء هذه السلس-ماريا

لنفسي». وفسّر لزميله القديم في المدرسة كارل فون غيرسدورف: «أحسّ بأنّ وطني الحقيقيّ وأرض نَسَبي هنا، لا في أيّ مكان آخر».

قضى نيتشه خمسة أصياف في سلس-ماريا في غرفةٍ مستأجرة في شاليه مطلّةٍ على أشجار الصنوبر والجبال. هناك كتبَ جميع الأجزاء، أو الأجزاء الأساسيّة على الأقل من العلم المرِح، وهكذا تكلّم زرادشت، وما وراء الخير والشر، وأصل الأخلاق وفصلها، وأفول الأصنام. كان يستيقظ في الخامسة صباحًا ويعمل حتى منتصف النهار، ثم يتنزّه صاعدًا القمم الضخمة التي تطوّق القرية، بيز كورفاتش، بيز لاغريف، بيز دي لا مارغنا، وهي جبال خشنة بكر تبدو وكأنّها نتأت عبر قشرة الأرض مؤخرًا بفعل ضغوطٍ تحت-أرضيّة شديدة. في المساء، وحيدًا في غرفته، يتناول عدة شرائح من لحم الخنزير، وبيضةً ورغيف خبز ويأوي إلى السرير باكرًا. («كيف يمكن لأيّ أحدٍ أن يصبح مفكّرًا إن لم يقضِ ثلث اليوم على الأقل من دون هوايات أو أناس أو كتب؟»).

اليوم، بلا شك، ثمة متحف في القرية. مقابل بضعة فرنكات، للزائر حريّة زيارة غرفة نوم الفيلسوف بعد تجهيزها، كما يقول الدليل الإيضاحي: «كما كانت تبدو زمن نيتشه، بكل بساطتها».

twitter @baghdad_library

ومع ذلك، كي نفهم لمَ أحسّ نيتشه أنّ ثمة تشابهًا بين فلسفته والجبال، قد يكون من الأفضل تجنّب الغرفة والتوجّه بدلًا من هذا إلى أحد متاجر الرياضة الكثيرة في سلس-ماريا كي نبتاع بوطًا، وحقيبة ظهر، وقارورة ماء، وقفّازين، وبوصلة، ومعولًا.

تسلُّق بيز كورفاتش، على بعد عدة كيلومترات من منزل نيتشه، سيفسّر على نحو أفضل من أيّ متحف روحَ فلسفته، ودفاعه عن الصعوبة، وأسباب هَجْرِه لخجل الغزلان الشوبنهاوريّ.

عند أسفل الجبل، سيجد المرء موقفًا كبيرًا لركن السيارات، وصفًا من صناديق إعادة التّدوير، ومستودعًا لشاحنات الخردة، ومطعمًا يقدّم سجقًا مزيّتًا وطبق الروشتي.

القمة مهيبة، على عكس السفح. ثمة إطلالات على جميع أنحاء الوادي: البحيرات الفيروزيّة سيغل، وسيلفابلانا، وسان موريتس. وإلى الجنوب، قرب الحدود مع إيطاليا، ستجد النهرين الجليديّين سيلا وروسيغ. ثمة سكون استثنائيّ في الهواء، بحيث يبدو أنّ بإمكان المرء مسّ سقف العالم. يتسبّب الارتفاع بانقطاع نَفَس المرء ولكن مع بقائه مبتهجًا على نحو غريب. من الصعب ألّا تبدأ الابتسام، وربما الضحك، من دون سبب محدَّد، ضحكة بريئة تنبع

من جوهر كينونة المرء وتعبّر عن جذَلٍ فطريّ لكونه بقي على قيد الحياة ليرى هذا الجمال.

twitter @baghdad_library

ولكن، لو عدنا إلى أخلاقيّة فلسفة الجبل الخاصة بنيتشه، ليس من السهل تسلّق 3451 مترًا فوق سطح البحر. يستلزم الأمر خمس ساعات على الأقل، ولا بد للمرء من التشبّث بالدروب الصعبة، ومحاولة التحايل على الجلاميد الصخريّة واختراق غابات الصنوبر الكثيفة، وأن ينقطع نفَسه في الهواء الشحيح، وارتداء طبقات إضافيّة من الملابس لمواجهة الرياح والسير على الثلوج الأبديّة.

11

وقدّم نيتشه مجازًا جبليًا آخر. على بعد بضع خطوات من غرفته في سلس-ماريا، ثمة دربٍ تفضي إلى وادي فكس، وهو أحد أخصب الأراضي في الإنغادين. منحدراته اللطيفة تصلح للزراعة على نحو رائع. في الصيف، ستجد قطعانًا من الأبقار الواقفة بهدوء وهي تقضم العشب شديد الخضرة الذي يكاد يضيء، وأجراسها ترنّ كلّما تحرّكت من بقعة عشب إلى أخرى.

تنساب الجداول عبر الحقول بحيث يبدو صوت المياه وكأنّها تُصبّ في كؤوس. وبالقرب من المزارع الصغيرة النظيفة الكثيرة (ترفرف الأعلام الإقليميّة والوطنيّة في كلٍّ منها) ثمة بساتين ممتازة الترتيب لزراعة الخضار حيث تُنبِتُ أتربتها الممزوجة من الطين والرمال القرنبيطَ، والشَّوندر، والجزر والخس، الذي يُغري المرء للركوع وتناول قضمات صغيرةٍ منه كالأرانب.

وتعود جودة الخسّ الرائعة هنا إلى أنّ وادي فكس جليديّ، وتربته غنيّةٌ بالمعادن على نحو استثنائيّ بحيث تبلغ أوجها حين ينحسر الغطاء الجليديّ عنها. وعلى طول الوادي، وعبر ساعات من التنزّه الهادئ بين المزارع المنظَّمة، يمكن للمرء الوصول إلى الوادي الجليديّ ذاته، المهول والمرعب. إذ يبدو كملاءة تنتظر من يشدّها ليعدّل زواياها، ولكنّ تلك الزوايا تبدو بحجم منازل كاملة مسبوكةٍ من جليدٍ حادٍّ كشفرة، بحيث تُطلق صوتًا شبيهًا بالخوار المؤلم أحيانًا كلما أعادت ترتيب نفسها تحت شمس الصيف.

twitter @baghdad_library

من الصعب الاستيعاب، حين الوقوف عند حافة الوادي الجليديّ المرعبة، كيف يمكن لهذا العملاق المتجمّد أن يلعب دورًا في إنبات الخضار والعشب شديد الخضرة على بعد كيلومتراتٍ قليلة فحسب من الوادي، وأن نتصوّر أنّ أمرًا شديد التناقض مع الحقل الأخضر كهذا الوادي الجليديّ يمكن أن يكون مسؤولًا عن خصوبة الوادي.

وقدّم نيتشه، الذي دائمًا ما كان يمشي في وادي فكس حاملًا قلم رصاص ودفترًا بغلافٍ جلديّ («وحدها الأفكار التي تأتي

خلال المشي هي التي يمكن أن تملك أيّة قيمة»)، مقارنةً مع اعتماد العناصر الإيجابيّة في الحياة البشريّة على العناصر السلبيّة، في ما يخص تحقيق المصاعب:

> حين نتأمّل تلك الفجوات عميقة التثلّم التي يصبح فيها الجليد شديد القساوة، نظنّ أنّ من شبه المستحيل أن يأتي وقتٌ يمكن فيه لوادٍ معشوشبٍ مليء بالغابات، ترويه الجداول، أن ينشر نفسه على البقعة ذاتها. وكذا هو الأمر، أيضًا، في تاريخ البشريّة: تشقّ أشدّ القوى وحشيّةً مسارًا لها، وغالبًا ما تكون مدمِّرة؛ ولكن رغم هذا، عملها هذا ضروريٌّ، كي تتمكّنَ حضارةٌ أكثر نبلًا من بناء منزلٍ لها لاحقًا. الطاقات البغيضة – التي تُسمّى الشر – هي بمثابة المهندسين المعماريّين على الطراز السيكلوبيّ، وصنّاع طريق البشريّة.

12

ولكن من المؤسف أن المصاعب البغيضة ليست كافيةً بالطبع. جميع الحيوات صعبة؛ وما يُمكّن من جعل بعضها مُنجَزًا على هذا النحو الدقيق هي الطريقة التي يتم فيها التعامل مع الآلام. كلُّ ألم هو إشارةٌ باهتةٌ إلى أنّ ثمة ما هو خاطئ، ما قد يولّد نتيجةً سيئةً أو جيِّدة، وذلك تبعًا لحصافة وقوّة ذهن من يعاني. يمكن للقلق أن يحرّض الهلع، أو تحليلًا دقيقًا لما قد انحرف. وقد يقود الإحساس بالجَوْر إلى القتل، أو إلى عملٍ رائدٍ في النظريّة الاقتصاديّة. وقد يُفضي الحسد إلى المرارة، أو إلى قرارٍ بمقارعة مُنافِسٍ وإنتاج تحفة.

twitter @baghdad_library

وكما كان محبوب نيتشه، مونتين، قد فسّر في الفصل الأخير من المقالات، يكمن فنّ العيش في استثمار مِحننا:

> لا بدّ من أن نتعلّم معاناةَ كلّ ما نعجز عن تجنّبه. تتكوّن حياتنا، مثل تناغم العالم، من نشازات علاوة على نغمات مضبوطة مختلفة، ناعمة وقاسية، حادّة ومنبسطة، هادئة وصاخبة. لو أحبَّ موسيقيٌّ بعضًا منها فقط، ما الذي يمكن له أن يغنّيه؟ ينبغي عليه معرفة كيفيّة استخدامها جميعها، ومزجها معًا. وكذا ينبغي أن نتعامل مع الجيّد والسيىء، النابعين من جوهرٍ واحدٍ في حياتنا.

وبعد قرابة 300 عام، عاد نيتشه إلى الفكرة:

> لو أنّنا كنّا حقولًا مثمرةً، على الأقل لم نكن لنترك أيّ شيءٍ يذوي من دون استثماره، وسنرى في كل حدثٍ، وشيءٍ، وإنسان سمادًا سارًّا.

كيف نصبح مثمرين إذًا؟

13

ولد في أوربينو عام 1483، أبدى رافاييل منذ سنٍّ مبكّرةٍ اهتمامًا ملحوظًا بالرسم بحيث أخذه أبوه إلى بيرّوجا ليعمل متمرِّنًا عند الرسام البارز بييترو بيروجينو. وسرعان ما كان بدأ بتنفيذ أعمال خاصة به، وعند بلوغه أواخر سنّ المراهقة كان قد رسم عدّة بورتريهات لأعضاء في بلاط أوربينو، ولوحات مذبح لكنائس في سيتا دي كاستيلو، على بعد مسيرة يوم من أوربينو عبر الجبال على طريق بيرّوجا

ولكنّ رافاييل، وهو أحد الرسّامين المفضّلين عند نيشته، كان يعلم أنّه لم يكن قد بلغ مرحلة الفنّان العظيم آنذاك، إذ شاهد أعمال فنانَيْن هما ميكيل أنجلو بيوناروتي وليوناردو دا فنشي. وكانت تلك الأعمال قد بيّنت له عجزه عن رسم أشخاصٍ متحرّكين، وبرغم ميله إلى الهندسة التصويريّة إلا أنّه لم يكن مُتقِنًا للرسم الخطّي. كان يمكن للحسد أن يصبح وحشيًا. ولكنّ رافاييل حوّله إلى سماد.

عام 1504، في سن الحادية والعشرين، غادر أوربينو إلى فلورنسا بهدف دراسة أعمال أستاذَيْه. درس رسومهم التمهيديّة في قاعة المجلس الكبير حيث كان دا فنشي قد عمل على تصوير

twitter @baghdad_library

معركة أنغياري وميكيل أنجلو على معركة كاسكينا. تشرَّب دروس اللوحات التشريحيّة لليوناردو وميكيل أنجلو واقتفى خطاهما في تشريح الجثث ورسمها. تعلّم من لوحة ليوناردو عبادة المجوس ورسومه التمهيديّة للعذراء ويسوع الطفل، وتأمّل مليًا في بورتريه غير معتاد كان قد طُلب من ليوناردو تنفيذه لأحد النبلاء، فرانشيسكو دل جيوكوندو، الذي أراد لوحةً لزوجته، وهي امرأة شابة ذات ابتسامة غامضة بعض الشيء.

وسرعان ما تبدّت نتائج جهد رافاييل. بإمكاننا مقارنة بورتريه امرأة شابة التي كان رافاييل قد رسمها قبل رحيله إلى فلورنسا مع بورتريه امرأة التي كان قد أكملها بعد عدة سنوات.

كانت مونا [ليزا] قد أعطت رافاييل الفكرة بشأن وضعيّة جلوس نصفيّة الطول حيث تشكّل الذراعان قاعدةً لتكوين هرميّ. كانت قد علّمته كيفيّة استخدام المحاور المتعاكسة من أجل الرأس، والكتف واليدين كي يمنح الحجم للجسد. وفيما بدت المرأة المرسومة في أوربينو مقيَّدةً في ملابسها على نحو غريب، حيث ذراعاها مقطوعتان على نحو غير طبيعيّ، كانت امرأة فلورنسا متحرّكةً ومرتاحة.

لم يصل رافاييل عفويًا إلى مرحلة التمكّن من مواهبه؛ كان قد أصبح عظيمًا عبر الاستجابة بذكاء لإحساسٍ من الدونيّة كان يمكن أن يدفع أناسًا أقلّ شأنًا إلى حافّة اليأس.

قدّم مسار المهنة درسًا نيتشويًا في منافع الألم المؤوَّل بحكمة:

> لا تتحدث عن المقدرة، والمواهب الفطريّة! يمكن للمرء تعداد جميع أنماط البشر العظماء الذين لم يكونوا شديدي الموهبة. لقد اكتسبوا العظَمة، وأصبحوا «عباقرة» (كما نسمّيهم) عبر مزايا لا يرغب أيّ إنسانٍ مدركٍ لها بالتحدّث عن الافتقار إليها: جميعهم يمتلك تلك الجدّية الدؤوبة للحِرَفيّ، حيث يتعلمون أولًا تكوين الأجزاء على نحو ملائم قبل التجرّؤ على خلق كلٍّ بأكمله. أتاحوا لأنفسهم الوقت لهذا، لأنهم كانوا يشعرون بقدر أكبر من اللذة عند تشكيل الأشياء الثانويّة الصغيرة على نحو ممتاز بدلًا من الاكتفاء بكونها مجرّد آثارٍ لكلٍّ باهر.

twitter @baghdad_library

رافاييل: دراسات لنيكوليني، كاوبر مادونا

نيكوليني كاوبر مادونا

كان رافاييل قادرًا - لو استخدمنا مصطلحات نيتشه - على أن يُسامي (*sublimieren*)، ويُرَوْحِن (*vergeistigen*)، ويصعّد (*aufheben*) مصاعب دربه إلى إثمار.

14

كان للفيلسوف اهتمامٌ عمليٌّ، علاوةً على اهتمامه المجازيّ، بالبستنة. بعد استقالته من جامعة بازل في سويسرا عام 1879، كان نيتشه قد تمنّى أن يصبح بستانيًّا محترفًا. أخبر والدته المتفاجئة، «تعلمين أنّني أفضلّ الطريقة البسيطة والطبيعيّة في العيش، وقد تعاظَمَ توقي لهذا. ليس ثمة علاجٌ آخر لاعتلال صحّتي. أحتاج إلى عمل حقيقيّ، يستغرق وقتًا ويستلزم تعبًا من دون إرهاقٍ عقليّ». تذكَّرَ برجًا قديمًا في ناومبورغ قرب منزل أمه، حيث كان يخطّط لاستئجاره أثناء عنايته بالحديقة التي تجاوره. بدأت حياة البستنة بحماسة في أيلول/ سبتمبر 1879 - ولكن سرعان ما بدأت المشكلات. كان بصر نيتشه الشحيح يمنعه من رؤية ما يقلّم، وكان يعاني من صعوبة حني ظهره، إضافةً إلى وجود أوراقٍ كثيرةٍ جدًا (في الخريف)، لذا بعد ثلاثة أسابيع، لم يعد ثمة خيارٌ آخر أمامه سوى الاستسلام.

على أية حال، بقيت آثار ولعه بالبستنة في فلسفته، إذ طرح في مقاطع بعينها، أنّ علينا التعامل مع مصاعبنا كما يفعل البستانيّون. عند مستوى الجذور، يمكن أن تبدو النباتات غريبةً ومنفّرة، ولكنّ الشخص الذي يمتلك المعرفة والإيمان بإمكانيّاتها سيدفعها إلى حمل أزهار وثمار - وكذلك الأمر في الحياة، عند مستوى الجذور،

twitter @baghdad_library

قد تكون ثمة مشاعر ومواقف عويصة يمكن لها أن تُنتج، برغم ذلك، عبر العناية الحريصة، أعظم الإنجازات والمسرّات.

يمكن للمرء أن يتخلّص من دوافعه الشخصيّة، كما يفعل البستانيّ، وأن يعمل، برغم أنّ قلةً يتقنون هذا، على تهذيب اندفاعات الغضب، والشفقة، والفضول، والزهوّ لتصبح شجرةً مثمرةً جميلةً على عريشة، على نحو مُنتجٍ ونافع.

ولكنّ معظمنا يُخفق في إدراك الدَّيْن الذي ندين به لاندفاعات الصعوبة تلك. إننا ميّالون للاعتقاد بأنّ القلق والحسد لا يملكان أيّ شيءٍ مشروع يمكن لهما تعليمه لنا، لذا نعمل على استئصالهما كما لو كانا أعشابًا عاطفيّةً ضارة. نؤمن، كما يقول نيتشه، أنّ «الأسمى لا يُسمَح له أن ينتج عن الأدنى، وليس مسموحًا له أن ينمو على الإطلاق... لا بدّ لكلّ أمرٍ من المرتبة الأولى أن يكون مسببًا لذاته».

ومع ذلك، وكما شدّد نيتشه، «الأشياء الخيّرة والمبجّلة مرتبطةٌ،

ومعقودةٌ ومحبوكةٌ على نحو فنّيّ بالأشياء الشريرة التي تبدو مناقضةً لها ظاهريًا». «الحب والكراهية، الامتنان والانتقام، السّماحة والغضب ... تنتميان إلى بعضها بعضًا»، وهذا لا يعني أنّ من اللازم التعبير عنها معًا، بل إنّ الإيجابيّ قد يكون نتيجةً للسلبيّ الذي تمّت رعايته بنجاح. ولذا فإنّ:

> مشاعر الكراهية، والحسد، والطمع، وشهوة الهيمنة [هي] مشاعر لازمةٌ للعيش ... ينبغي، أساسًا وجوهريًا، أن تكون موجودة في التدبير الكليّ للحياة.

استئصالُ كلِّ جذرٍ سلبيّ قد يعني، في الوقت ذاته، خنقًا للعناصر الإيجابيّة التي يمكن أن تنبع منها وصولًا إلى ساق النبتة.

لا ينبغي أن نشعر بالإحراج بسبب بلاءاتنا، إذ عبر إخفاقاتنا فحسب سينمو كلّ ما هو جميل.

15

كان إجلال نيتشه للإغريق القدماء نابعًا من تقديرهم الجليّ لهذه المسألة.

من المغري، عند تأمّل معابدهم الجليلة عند الغسق، كتلك

twitter @baghdad_library

الموجودة في بايستوم على بعد عدة كيلومترات من سورينتو – التي زارها نيتشه برفقة مالفيدا فون مايزنبوغ بداية العام 1877 – أن نتخيّل أنّ الإغريق كانوا شعبًا منضبطًا على نحو استثنائيّ بحيث كانت معابدهم بمثابةِ تجلٍّ خارجيّ لتنظيمٍ كانوا يحسّون به داخلهم وفي مجتمعهم.

كان هذا رأي الباحث العظيم في الكلاسيكيات يوهان فنكلمان (1717 – 1768)، وقد سادَ لدى أجيالٍ متعاقبةٍ من أساتذة الجامعة الألمان. ولكنّ نيتشه طرحَ أنّه بمعزل عن كونها نابعةً من الجلال، كانت الحضارة اليونانيّة الكلاسيكيّة قد نبعت أيضًا من تسامي القوى الأكثر شرًا:[1]

> كلّما كانت الأهواء التي يسمح بها عصرٌ أو شعبٌ أو فردٌ لنفسه أعظم وأشنع، لأنهم قادرون على توظيفها كوسيلة، كلّما ارتقت حضارتهم أكثر.

قد تبدو المعابد هادئة، ولكنّها كانت أزهارًا لنباتات اعتُني بها على نحو ممتاز ذات جذور ظلاميّة. كانت المهرجانات الديونيسيّة تُظهر كلًّا من الظلاميّة ومحاولة التحكّم بها وتهذيبها في آن:

> ليس ثمة أمرٌ يُدهش دارس اليونانيّين أكثر من اكتشافه أنّ اليونانيّين كانوا يقيمون أحيانًا ما يشبه المهرجان لجميع أهوائهم ونزعاتهم الطبيعيّة الشريرة، بل وكرّسوا حتى نمطًا من التنظيم الرسميّ للأحداث احتفاءً بما كان مفرط

(1) تسامي (Sublimation): تحويل طاقة ما، أو غريزة ما، إلى هدف أسمى أخلاقيًا أو ثقافيًا. [قاموس المورد لمنير البعلبكي].

البشريّة فيهم ... كانوا يعتبرون الأمر مفرط البشريّة هذا حتميًا، وبدلًا من ذمّها، فضّلوا اعتبارها نمطًا من الصواب من الدرجة الثانية عبر مناغمتها ضمن استخدامات المجتمع والدين: في الواقع، كانوا يسمّون كلَّ ما يمتلك سلطةً داخل الإنسان مقدَّسًا، وينقشون هذا على جدران جنّتهم. لم يتنصّلوا من الدافع الطبيعيّ الذي يجد تعبيراته في المزايا الشريرة بل نظّموه، وحالما اكتشفوا المعايير التوجيهيّة الكافية لتزويد هذه المياه الجامحة بأقل الوسائل ضررًا لضبط تدفّقها وجريانها، قاموا بتقييدها ضمن طقوس وأيام محدَّدة. هذا هو جذر كلّ التفكير الحر الأخلاقيّ في العصور القديمة. أجرى المرء على الشر والشكّ ... إفراغًا معتدلًا، ولم يسعَ نحو إلغائهما الكليّ.

لم يُقصِ الإغريق بلاءاتهم؛ بل هذّبوها:

تمتلك جميع الأهواء مظهرًا محددًّا عندما تكون مدمِّرةً بالكامل، حيث تجذب ضحاياها نحو الأسفل تبعًا لحجم الحماقة – ومظهرًا آخر لاحقًا، لاحقًا جدًا، يعتنقون فيه الروح، أي «يُرَوْحِنون» أنفسهم. في الأزمنة السابقة، بسبب حماقة الأهواء، شنّ الناس حربًا على الهوى بذاته: تآمروا على تدميره تدمير الأهواء والرغبات لمجرد تجنُّب حماقتها، وتبدو لنا اليوم تلك العواقب غير المتَّفق عليها لحماقة [تلك الأهواء والرغبات] مجرد صيغة حادّةٍ من الحماقة ذاتها. لم نعد معجَبين بأطباء الأسنان الذين يقتلعون الأسنان لإيقاف ألمها.

twitter @baghdad_library

يتم تحقيق الإنجاز عبر الاستجابة بحكمة إلى المصاعب التي يمكن أن تمزّق المرء إلى أشلاء. قد تميل الأرواح المُوَسْوَسة إلى قلع الضرس فورًا، أو تحطيم بيز كورفاتش إلى مستوى المنحدرات الأخفض. أما نيتشه فيحثّنا على التحمُّل.

16

وبعيدًا عن المصادفة، لا تشرب أبدًا.

عزيزتي أمي،

أكتبُ لك اليوم لأخبركِ عن إحدى أشنع الحوادث التي كنت مسؤولًا عنها يومًا، وأكثرها إيلامًا. في الحقيقة، أسأتُ التصرّف على نحو سيىء جدًا، ولا أعلم ما إذا كنتِ ستغفرين لي. أمسك قلمي بتردّد شديد وبقلبٍ مثْقَل بخاصة حين أستعيد حياتنا السعيدة معًا خلال عطل عيد الفصح التي لم يكن ثمة شيء يعكّرها. الأحد الماضي، سكرت، ولا أملك عذرًا لهذا ما عدا أنّني لم أكن أعرف المقدار الذي يمكن أن يكفيني، وشعرت بالإثارة في الظهيرة.

كذا كتبَ فريدريش ابن الثامن عشرة لأمه فرانتسيسكا بعد أربع زجاجات من البيرة في حانات آتينبورغ قرب مدرسته ربيع العام 1863. بعد عدة سنوات، في جامعتي بون ولايبزغ، شعر بالغضب تجاه زملائه الطلاب بسبب عشقهم للكحول: «غالبًا ما وجدتُ التعبيرات عن الزمالة القويّة في النادي كريهةً للغاية بالكاد يمكنني تحمُّل أفرادٍ بعينهم بسبب ماديّتهم المتعلقة بشرب البيرة».

أخويّة نيتشه الطلابيّة في جامعة بون
نيتشه في الصف الثاني، مائلًا إلى جانبه.
لاحظوا، في الصف الأسفل، برميل البيرة الخاص بالأخويّة.

بقي الموقف ثابتًا خلال حياة الفيلسوف الراشدة:

ليس للمشروبات الكحوليّة منفعة بالنسبة لي؛ كأس من النبيذ أو البيرة يكفي تمامًا لجعل حياتي «واديًا من الدموع» – ميونخ هي المكان الذي يعيش فيه نقائضي.

twitter @baghdad_library

واشتكى، «يا لحجم البيرة الموجودة في الفكر الألماني! ولعلّ السخط الأوروبيّ الحديث ناجمٌ عن حقيقة أنّ أجدادنا كانوا منغمسين في الشرب طوال العصور الوسطى كانت العصور الوسطى هي التسمّم الكحوليّ لأوروبا».

في ربيع العام 1871، خرج نيتشه في عطلة مع أخته إلى فندق أوتيل دو بارك في لوغانو. تُظهر فاتورة الفندق أنّه شرب أربع عشرة زجاجةً من الحليب في الفترة الواقعة بين 2 إلى 9 آذار/ مارس.

كان الأمر أكثر من مجرد ذائقة شخصيّة. إذ يُنصَح بشدّة لكل من يسعى إلى السعادة أن لا يَقْرَبَ المشروبات الكحوليّة على الإطلاق. أبدًا:

> لا يمكنني أن أنصح، على محمل الجد، جميع الطبائع الأكثر روحانيّة بالامتناع عن الكحول نهائيًا. الماء يكفي.

لماذا؟ لأنّ رافاييل لم يشرب للتخلّص من حسده في أوربينو عام 1504، بل توجّه إلى فلورنسا وتعلّم كيف يصبح رسامًا عظيمًا.

لأنّ ستاندال لم يشرب عام 1805 ليتخلص من يأسه بشأن الرجل الذي يخشى أن يُحكَم، بل رعى ألمه سبعة عشر عامًا ثم أصدر «عن الحب» عام 1822:

لو رفضتَ أن تخيِّم عليك المعاناة ولو لساعة واحدة، ولو حاولتَ دومًا منع وكبح جميع مواطن اليأس القادمة؛ لو اعتبرتَ المعاناة والتعاسة شرًا مكروهًا يستحق الإزالة، وتشوّهًا للوجود، إذًا من الواضح أنّك [تُكنّ في قلبك] دين الراحة. يا لقلّة ما تعرفون عن السعادة البشريّة، أيها الناس المرتاحون، إذ إنّ السعادة والتعاسة شقيقتان، بل توأمان، إما أن تكبرا معًا، أو - في حالتكم - أن تبقيا ضئيلتين معًا.

17

نفور نيتشه من الكحول يفسّر في الوقت ذاته نفوره من المدرسة البريطانيّة المهيمنة في الفلسفة الأخلاقيّة: النفعيّة، ونصيرها الأبرز، جون ستيوارت مل. كان النفعيّون قد حاججوا أنّه في عالمٍ تطوّقه الالتباسات الأخلاقيّة، فإنّ الطريقة للحُكم ما إذا كان الفعل صحيحًا أو خاطئًا كانت مقدار اللذة والألم الذي يولّده [الفعل]. وطرح مِلْ:

الأفعال صحيحةٌ بالتناسب مع نشرها للسعادة، وخاطئة مع توليدها لمعاكس السعادة. السعادة تعني اللذة الضمنيّة وغياب الألم؛ والتعاسة تعني الألم، وفقدان اللذة.

كان فكر النفعيّة، وكذلك الأمة التي نبع منها هذا الفكر، يغضبان نيتشه:

twitter @baghdad_library

السوقيّة الأوروبيّة، وابتذال الأفكار الحديثة [هو من عمل وابتكار] إنكلترا.

لا يسعى الإنسان إلى السعادة؛ وحدهم الإنكليز من يفعلون هذا.

كان يسعى إلى السعادة بالطبع؛ ولكنّه كان يؤمن ببساطة أنّها لا تتحقّق من دون ألم كما كانت تشير النفعيّة:

> جميع أشكال الفكر هذه التي تخمّن قيمة الأشياء تبعًا لـ اللذة والألم، أي تبعًا للظواهر المُلازمة والثانويّة، هي أشكال ظاهريّة للفكر وسذاجات يمكن لأيّ شخصٍ واعٍ بالقوى الخلّاقة وبضمير الفنّان أن يزدريها بسخرية.

[ذَكَرَ] ضمير الفنان لأنّ الإبداع الفنّي يقدّم مثالًا شديد الوضوح عن نشاطٍ قد يحقّق إنجازًا هائلًا، ولكنّه دائمًا يتطلّب معاناة هائلة. لو كان ستاندال قد خمّن قيمة فنّه تبعًا لـ«اللذة» و«الألم» الذي تسبّب به فورًا، لم نكن لنشهد تقدّمًا عند الرجل الذي يخشى أن يُحكَم إلى قمّة قدراته.

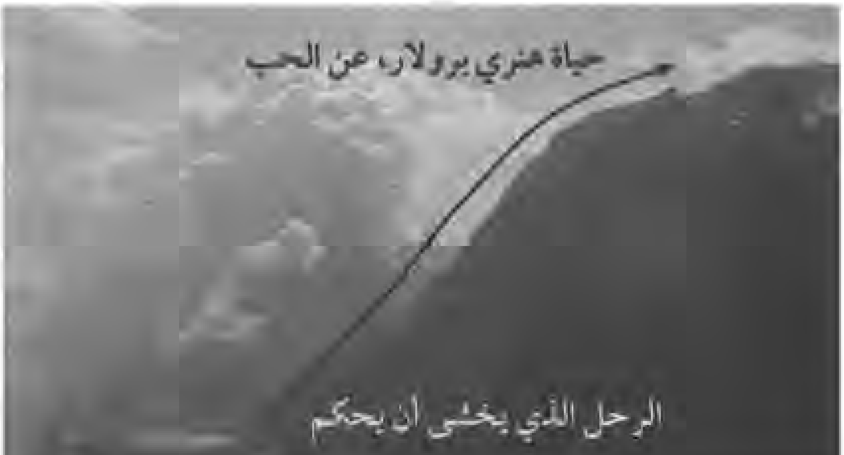

بدلًا من احتساء البيرة في المنخفضات، طلب منا نيتشه قبول ألم التسلّق. كما قدّم اقتراحًا لمخطّطي المدن:

سرّ حصاد الإثمار الأعظم والمتعة القصوى من الوجود
هو - العيش على نحو خطر!
ابنوا مدنكم على منحدرات فيزوف!

بركان فيزوف ثائرًا عام 1879، قبل ثلاث سنوات من كتابة التصريح أعلاه

ولو كان المرء لا يزال منجذبًا لاحتساء كأس، من دون أن يكون من المعجبين المتحمّسين بالمسيحيّة، أضاف نيتشه حُجّة أخرى لإقناع المرء بعدم فعل هذا. فجميع من يحبّون الشرب، كما حاجج، يملكون نظرةً مسيحيّة على نحو أساسيّ بشأن الحياة:

أنْ أؤمنَ أنّ النبيذ يسبّب البهجة، لا بد أن أكون مسيحيًا، أي أنني أؤمن بما أعتبره سخافةً تحديدًا.

18

كانت خبرته في المسيحيّة تتجاوز الكحول. ولد في قرية صغيرة في روكن قرب لايبزغ في ساكسوني. كان والده، كارل لودفيغ نيتشه، هو كاهن القرية، وأمه شديدة الإيمان كانت ابنة كاهن هو دافيد إرنست أويلر الذي كان يؤدّي خدمته الرعويّة في قرية بوبليس

twitter @baghdad_library

على بعد مسير ساعة. وقد عُمّد ابنهما أمام المجلس الكنَسيّ المحليّ في كنيسة روكن في تشرين الأول/ أكتوبر 1844.

أحبّ فريدريك أباه الذي توفي حين كان ابنه في الرابعة من عمره فحسب، واحتلّ ذاكرته طوال حياته. مرةً حين كان يمتلك مبلغا صغيرًا من المال بعد أن ربح دعوى قضائيّة ضد ناشر عام 1885، طلب تجهيز شاهدة كبيرة لقبر أبيه حيث نُقش عليها اقتباس من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس (13: 8):

المحبّةُ لا تَسْقطُ أبدًا.

يستذكر نيتشه أباه كارل لودفيغ، «كان التجسّد المثاليّ للكاهن الريفيّ. شخصًا رقيقًا طويل القامة، جميل قسمات الوجه، ودودًا، خيّرًا. مرحَّبٌ به ومحبوبٌ في كل مكان لحديثه الذكيّ علاوةً على تعاطفه الدافئ، مبجَّلٌ ومحبوبٌ من المزارعين، ينشر بركاته قولًا وفعلًا في عمله كمرشدٍ روحيّ».

ومع ذلك، لم يكن هذا الحب البَنَويّ ليكبح نيتشه من توجيه أشد التحفّظات بشأن العزاء الذي يمكن لوالده، وللمسيحيّة عمومًا، أن يقدّماه إلى المتألّمين:

> وجّهتُ إلى الكنيسة المسيحيّة أفظع تهمةٍ لم ينطق بها حتى أعتى المدّعين القانونيّين في المحاكم. بالنسبة إليّ، إنها أقصى صيغة فسادٍ يمكن التفكير بها لم تترك شيئًا من دون أن تمسّه بفسادها ... أعتبر المسيحيّة هي اللعنة الكبرى الوحيدة، الفساد المتأصّل الوحيد ...
>
> يفعل المرء حسنًا حين يرتدي قفّازيه عند قراءة العهد الجديد. هذا المقدار من القذارة يكاد يُرغم المرء على فعل هذا ... كلُّ ما فيه جُبن، كل شيءٍ خداعٌ للذات وإغلاق المرء عينيه عن نفسه ... هل لا يزال ينبغي عليّ إضافة أنّ العهد الجديد كلّه لا يضمّ إلا شخصيّةً وحيدةً مفردةً يُجبَر المرء على احترامها؟ هي بيلاطس، الحاكم الرومانيّ.
>
> ببساطةٍ شديدة:
>
> من غير اللائق أن تكون مسيحيًا اليوم.

twitter @baghdad_library

كيف يعزّينا العهد الجديد بشأن مصاعبنا؟ عبر الإشارة إلى أنّ كثيرًا منها ليست مصاعب على الإطلاق، بل هي فضائل:

لو كان المرء قلقًا بشأن الجُبن، يشير العهد الجديد:

طوبى للوُدَعاء، لأنّهم يَرِثونَ الأرض. (متّى 5. 5)

لو كان المرء قلقًا بشأن عدم امتلاك أصدقاء، يقترح العهد الجديد:

طوباكم إذا أَبْغَضَكُم النّاس، وإذا فرزوكم وعيّروكم، وأَخْرَجُوا اسمكم كشرّيرٍ من أجل ابن الإنسان. افرحوا في ذلك اليوم وتهلّلوا، فهُوَذا أجرُكم عظيمٌ في السّماء. (لوقا 6. 23-22)

لو كان المرء قلقًا بشأن عملٍ استغلاليّ، ينصح العهد الجديد:

أيّها العبيد، أطيعوا في كلّ شيءٍ سادَتَكم حَسَبَ الجسد، لا بخدمة العين كما يُرضي النّاس، بل ببساطة القلب، خائفين الربّ. وكلُّ ما فعلتم، فاعملوا من القلب، كما للربِّ ليس للنّاس، عالِمين أنّكم من الربِّ ستأخُذون جزاءَ الميراث، لأنّكم تخدمون الربّ المسيح. (كولوسي 3. 24-22).

لو كان المرء قلقًا بشأن عدم امتلاك مال، يُخبرنا العهد الجديد:

مُرورُ جملٍ من ثَقْبِ إبرةٍ أَيْسَرُ من أن يدخل غنيٌّ إلى ملكوت الله. (مرقس 10. 25)

قد يكون ثمة تباينات بين كلماتٍ كهذه وشرب الكحول، ولكنّ نيتشه شدّد على تكافؤٍ جوهريّ. كلٌّ من المسيحيّة والكحول يمتلك

السلطة لإقناعنا أنّ ما اعتبرناه من قبل نقصًا في أنفسنا أو العالم، لا يستلزم الانتباه إليه؛ كلاهما يُضعفان عزمنا على رعاية مشكلاتنا؛ كلاهما يُنكران علينا فرصة الإنجاز:

المخدّران الأكبران في أوروبا: الكحول والمسيحيّة.

انبثقت المسيحيّة، بحسب نيتشه، من أذهان العبيد الجبناء في الإمبراطوريّة الرومانيّة الذين كانوا يفتقرون إلى شجاعة تسلّق قمم الجبال، ولذا أنشأوا لأنفسهم فلسفةً تدّعي أنّ أساساتهم مُبهجة. كان المسيحيّون قد تمنّوا التمتّع بالمقادير الحقيقيّة للإنجاز (مكانة في العالم، جنس، براعة فكريّة، إبداع) ولكنّهم لم يمتلكوا الشجاعة لتحمّل المصاعب التي تستلزمها هذه الخيرات. ولذا ابتكروا عقيدةً منافقة تشجب ما رغبوا به، مع كونهم شديدي الضعف على القتال من أجله، فيما كانوا يمتدحون ما لم يرغبوا به ولكنْ تصادَفَ أن امتلكوه. أصبح العجز «طِيْبَةً»، والانحطاط «تواضعًا»، والخضوع لمن تكره «طاعةً»، وبحسب عبارة نيتشه، تحوَّل «العجز عن الانتقام» إلى «تسامح». كان يتم تعمية كل شعورٍ بالضعف باسمٍ تبريريّ، وتم تشكيله بحيث يبدو «إنجازًا طوعيًا، وأمرًا مرغوبًا، مختارًا، ومأثرةً، ومُنجَزًا». مدمنين حيال «دين الراحة»، كان المسيحيّون، في منظومة القيم الخاصة بهم، قد أعطوا الصّدارة لما كان سهلًا، لا لما كان مرغوبًا، وبذا فرّغوا الحياة من إمكانيّاتها.

20

امتلاك وجهة نظرٍ «مسيحيّة» بشأن المصاعب ليس محصورًا بأعضاء الكنيسة المسيحيّة؛ إذ هو، بالنسبة إلى نيتشه، إمكانيّة فلسفيّة

twitter @baghdad_library

مستمرّة. نصبح جميعنا مسيحيّين حين نجاهر بعدم الاكتراث بشأن ما نتشهّاه سرًا دون أن نمتلكه؛ نقول بمرح إنّنا لسنا بحاجةٍ إلى الحب أو المكانة في العالم، المال أو النجاح، الإبداع أو الصحّة - فيما زوايا أفواهنا تقطر مرارةً؛ ونشنّ حروبًا صامتةً ضد ما أنكرناه علنًا، مطلقين النار من فوق المتراس، متقنّصين من بين الأشجار. كيف يفضّل نيتشه أن نقارب نكساتنا؟ أن نتابع إيماننا بما نتوق إليه، حتّى حين لا نمتلكه، وربما لن نمتلكه. بمعنى آخر، أن نقاوم إغواء تشويه خيراتٍ بعينها واعتبارها شرورًا لأنّها برهنت على صعوبة تأمينها - وهو نموذج من السلوك تقدّم لنا حياة نيتشه شديدة المأساويّة المثال الأبرز عنه ربما.

21

كان أبيقور من بين فلاسفته القدماء المفضّلين منذ سنّ مبكّرة؛ كان يعتبره «مُسكِّن الأرواح في العصور القديمة المتأخرة»، و«أحد أعظم البشر، مبتكر أسلوبٍ بطوليّ-رعويّ من التفلسف». ما مالَ إليه فعلًا كانت فكرة أبيقور القائلة إنّ السعادة تتضمّن الحياة بين أصدقاء. ولكنّه نادرًا ما عرف الرضا مع المجتمع: «قَدَرُنا أن نكون نسّاكًا فكريّين، ويصدف أن نتبادل الحديث أحيانًا مع شخص يشبه عقليّتنا». وكان قد ألّف، وهو في سن الثلاثين، «ترنيمة عن العزلة»، ولكنّه لم يمتلك جَلَدًا ليكملها.

ولم يكن البحث عن زوجةٍ أقل بؤسًا، إذ كانت المشكلة عائدةً، جزئيًا، إلى مظهر نيتشه - شاربه الفظ الكبير على نحو استثنائيّ - وإلى خجله الذي كان يشبه الطريقة الصارمة الخرقاء لكولونيل متقاعد. في ربيع العام 1876، في رحلة إلى جنيف، وقع نيتشه في

حب فتاة في الثالثة والعشرين من العمر، شقراء بعينين خضراوين، ماتيلده ترامبيداخ. أثناء محادثة عن شعر هنري لونغفيلو، قال نيتشه إنّه لم يقع أبدًا على نسخة ألمانيّة من قصيدة لونغفيلو «نُثارة الخشب». قالت ماتيلده إنّ لديها واحدةً في بيتها وعرضت نَسْخَها له. متشجّعًا، دعاها نيتشه كي يرافقها في نزهة. جلبت مالكة منزلها كمرافقة. بعد عدة أيام، عرض عليها أن يعزف البيانو لها، ثم كانت الجملة التالية التي سمعتها من أستاذ الفيلولوجيا الكلاسيكيّة في جامعة بازل الذي يبلغ الحادية والثلاثين من العمر، عرض زواج. «ألا تعتقدين أنّ كلًّا منا سيكون أفضل وأكثر تحرّرًا لو كنّا معًا مما لو كان كلٌّ منا سيفعله منفردًا - وكذا بخصوص نُثارة الخشب؟ هل تجرؤين على القدوم معي في جميع دروب الحياة والتفكير؟» سألها الكولونيل المرح، ولكنّ ماتيلده لم تجرؤ.

ثم تتابعت سلسلةٌ من حالات الرفض المشابهة. وفي ضوء اكتئابه وصحّته العليلة، قرّر رتشارد فاغنر أنّ ثمة علاجين ممكنين: «عليك إما أن تتزوّج أو تكتب أوبرا». ولكن عجز نيتشه عن كتابة أوبرا، بل وكان يفتقر فعليًا إلى موهبة إبداع نغمةٍ لائقةٍ واحدة. (في تموز/ يوليو 1872، أرسل إلى المايسترو هانس فون بولو ثنائيّةً على البيانو كان قد ألّفها، طالبًا منه تقييمًا صريحًا. فأجاب فون بولو، «إنها أكبر إسرافٍ غريبٍ، وأشدّ مجموعة نغمات غير موسيقيّة تثير الغضب مكتوبةٍ على أوراق موسيقيّة رآها منذ زمن طويل»، وتساءل ما إذا كان نيتشه يمازحه. «لقد صنّفتَ موسيقاك بكونها «مرعبة» - إنها كذلك حقًا»).

ولكنّ فاغنر زاد إصراره. «بحق السماوات، تزوّج امرأة ثريّة!»

twitter @baghdad_library

غمغم، ثم تواصل مع طبيب نيتشه، أوتو آيزر، حيث خمّن أنّ سبب صحة الفيلسوف العليلة هو الاستمناء المفرط. ولكنّها سخرية لم تخطر على بال فاغنر، إذ إنّ المرأة الثريّة الوحيدة التي كان نيتشه يحبّها حقًا كانت زوجته هو، كوزيما. لسنوات، كان [نيتشه] قد أخفى مشاعره نحوها بحرص تحت غطاء الصداقة المقرّبة. ولم تُكتشف الحقيقة إلا عندما فقد عقله. «أنا أحبك يا أريادني»، كتب لها نيتشه، حيث وقّع باسم ديونيسوس، في بطاقة معايدة أرسلها إلى كوزيما من تورينو أول كانون الثاني/ يناير 1889.

ومع ذلك، كان نيتشه قد اتّفق أحيانًا مع الأطروحة الفاغنريّة بشأن أهميّة الزواج. في رسالة إلى صديقه المتزوج فرانتس أوفربِكْ، اشتكى: «شكرًا لزوجتك، الأمور بالنسبة لك أفضل بمئة مرة مقارنةً بي. لديكما عشٌّ مشترك. أما أنا فلا أملك، في أفضل الأحوال، إلا كهفًا أما التواصل الذي يحدث أحيانًا مع الناس فيبدو أشبه بعطلة، وخلاصٍ من ´نفسي`».

عام 1882، أمل مجددًا أنه قد وجد زوجةً مناسبة، لو أندرياس-

سالومي، وهي حبّه الأكبر والأشدّ إيلامًا. كانت في الحادية والعشرين، جميلة، وذكية، ومتغزّلة، ومسحورة بفلسفته. كان نيتشه عاجزًا عن الدفاع. «لم أعد أرغب بالبقاء وحيدًا أبدًا، بل أن أتعلم كيف أصبح إنسانًا مجددًا. آه، هنا بالذات يلزمني كلّ شيء كي أتعلمه!» قال لها. قضيا أسبوعين معًا في غابة تاوتنبورغ، أما في لوسيرنه، فقد انضمّا إلى صديقهما المشترك بول رييه حيث التُقطت لهما صورة بوضعيّة غريبة.

ولكن كانت لو مهتمةً بنيتشه كفيلسوف أكثر منه كزوج. قذفه هذا الرفض إلى اكتئاب عنيف طويل جديد. أخبر أوفربك: «افتقاري إلى الثقة الآن هائل. كلّ ما أسمعه يدفعني إلى الظنّ أنّ الناس تزدريني». وأحسّ بمرارةٍ خاصة تجاه أمه وأخته اللتين تطفّلتا على علاقته مع لو، فقطع علاقته بهما الآن تمامًا، ما عَمَّقَ عزلته. («لا أحب أمي، ومن المؤلم لي أن أسمع صوت أختي. لطالما كنتُ أحسّ بالمرض حين أكون معهما».)

كان ثمة مصاعب مهنيّة أيضًا. لم يبع أيٌّ من كتبه أكثر من 2000 نسخة خلال حياته العاقلة؛ ومعظمها باع عدة مئات فحسب. براتبٍ تقاعديٍّ متواضعٍ، وبعض الأسهم التي ورثها من عمّته، بالكاد كانَ بإمكان المؤلّفِ شراء ملابس جديدة، لينتهي به الوضع وهو يبدو، بحسب توصيفه، «مكشوطًا كخروف جبليّ». كان يحجز أرخص الغرف في الفنادق، وغالبًا ما كان يتأخر في دفع إيجاراته، ولم يعد قادرًا على دفع تكلفة التدفئة أو حتى طبق لحم الخنزير والسجق الذي كان يعشقه.

وكذا كانت صحّته مضطربة. منذ سنوات دراسته الابتدائيّة، كان يعاني من مجموعة علل: صداع، عسر هضم، إقياء، دوار، شبه عمى،

twitter @baghdad_library

أرق، وكانت كثيرٌ منها أعراضًا للسفلس الذي بدا من شبه المؤكَّد أنّه أصيب به في ماخور كولونيا في شباط/ فبراير 1865 (بالرغم من أنّ نيتشه ادّعى أنّه خرج دون أن يلمس شيئًا باستثناء البيانو). في رسالة إلى مالفيدا فون مايزنبوغ، كُتبت بعد ثلاث سنوات من رحلته إلى سورينتو، قال لها: «في ما يتعلّق بالعذاب ونكران الذات، يمكن لحياتي خلال هذه السنوات السابقة أن تماثل حياة أيّ ناسكٍ من أيّ عصر ..». وأخبر طبيبه، «ألمٌ مستمرٌ، إحساسٌ أني نصف مشلول، حالةٌ أقرب إلى دوار البحر، أجد صعوبةً في التحدث خلالها – يستمر هذا الإحساس عدة ساعات يوميًا. للتنويع، أُصاب أحيانًا بنوبات مفاجئة (أرغمتني آخرها على الإقياء ثلاثة أيام بلياليها؛ أتوق إلى الموت). أعجز عن القراءة! نادرًا ما يمكنني الكتّابة! عاجزٌ عن التواصل مع أصدقائي! عاجزٌ عن سماع الموسيقا!».

أخيرًا، بداية كانون الثاني/ يناير 1889، انهار نيتشه في ميدان بياتزا كارلو أليبرتو في تورينو، واحتضن حصانًا، وحُمل إلى مقرّ إقامته حيث فكّر بإطلاق الرصاص على القيصر، وخطّط لشنّ حربٍ على معادِيْ الساميّة، وبدا واثقًا أنه – بحسب كل ساعة – ديونيسوس، يسوع، الرب، نابوليون، ملك إيطاليا، بوذا، الإسكندر المقدونيّ، [يوليوس] قيصر، فولتير، ألكسندر هرتزن، رتشارد فاغنر، قبل أن يُنقَل في قطار إلى مصحّ في ألمانيا لتعتني به أمه العجوز وأخته حتى وفاته بعد أحد عشر عامًا، حيث بلغ الخامسة والخمسين.

22

ومع ذلك، برغم الوحدة المروّعة، وعدم الشهرة، والفقر، والصحة العليلة، لم يُظهر نيتشه السلوك الذي اتّهم المسيحيّة به؛

لم يذمّ الصداقة، أو يهاجم سموّ المكانة، أو الثروة، أو السعادة. بقي الأب غالياني وغوته أبطالًا. ومع أنّ مالتيلده لم ترغب بأكثر من محادثةٍ عن الشعر، استمر بالتّصديق أنّ «العلاج الأكيد للمرض الذكوريّ بشأن ازدراء الذات هو أنّ تحبّه امرأة ذكيّة». وبرغم مرضه، وافتقاره إلى براعة مونتين أو ستاندال في امتطاء الجياد. بقي مرتبطًا بفكرة حياةٍ نشيطة: «باكرًا في الصباح، عند ولادة النهار، في أوج نشاط وفجر قوّة المرء، يعمد إلى قراءة كتاب - أسمّي هذا فسادًا!». جاهَدَ كي يصبح سعيدًا، ولكنْ حين أخفقَ لم يرتدّ على ما تاق إليه يومًا. بقي ملتزمًا لما بقيت في عينيه السّمة الأهم للإنسان النبيل: أن يكون شخصًا «لا يجحد أبدًا».

23

بعد سبع ساعات من المشي، معظمها كان تحت المطر، وصلتُ قمّة بيز كورفاتش في حالةٍ من الإرهاق الشديد، متسلّقًا أعلى من السُّحب التي تحفّ وديان إنغادين في الأسفل. في حقيبة الظهر، حملتُ زجاجة ماء، وشطيرة جبنة إيمنتال، ومغلّفًا من فندق إيدلفايس في سلس-ماريا حيث كنتُ قد كتبتُ هذا الصباح اقتباسًا من فيلسوف الجبل، إذ كنت نويتُ مواجهة إيطاليا وقراءته للرياح والصخور على ارتفاع 3400 مترًا.

كأبيه الكاهن، كان نيتشه ملتزمًا بواجب التعزية. كأبيه، كان قد تمنى أن يوفّر لنا دروبًا إلى الإنجاز. ولكن على عكس الكهنة، وأطبّاء الأسنان الذين يقتلعون الأسنان المتألّمة، والبستانيّين الذين يدمّرون النباتات ذات الجذور المنفّرة، كان يعتبر المصاعب شروطًا

twitter @baghdad_library

لازمةً وجوهريّةً للإنجاز، وبذا أدرك أنّ العزاءات العذبة، في نهاية المطاف، قاسيةٌ على نحو أكبر من كونها مفيدة:

> برزت أشنع أمراض الإنسان من الطريقة التي كان [البشر] يواجهون بها أمراضهم. ما كان يبدو علاجًا، تسبَّبَ، على المدى الطويل، بحدوث أمرٍ أسوأ من ما كان يُفترَض به أن يُزيله. الوسائل التي تعملُ مباشرةً، بحيث تخدّر وتُسْكِر، أي العزاءات المزعومة، كانت تُعتبَر بجهلٍ علاجاتٍ فعليّة. لم يتم التقاط الحقيقة أنّ هذه المسكّنات اللحظيّة غالبًا ما كان يتوجّب دفع الثمن بشأنها عبر تعميق سوء الشكوى الأساسيّة بشدّة.

لا يكون كلُّ ما يُشعِرنا بالتحسُّن جيدًا لنا بالضرورة. كما لا يكون كلُّ ما يؤذينا سيّئًا.

أن نعتبر حالات اليأس أنها معارضةٌ عمومًا، وأنّها أمرٌ يجب إزالته، لهو [الحماقة الكبرى]، إذ تكون عمومًا كارثةً حقيقيّةً في عواقبها ... بشكلٍ يماثل تقريبًا حماقةَ الرغبة بإزالة الطقس السيىء.

twitter @baghdad_library

المراجع

العزاء بشأن مخالفة الآراء السّائدة

بمعزلٍ عن ذكر أريستوفانيس والاقتباسات من فايدو أفلاطون، أُخذ توصيف سقراط من محاورات أفلاطون الأولى والوسطى (التي تُسمّى محاورات سقراط):

أبولوجي، شارميدس، كريتو، يوثيديموس، يوثيفرو، غورغياس، هيبياس الكبرى، هيبياس الصغرى، إيون، لاخيس، ليسيس، مينيكسينوس، مينو، بروتاغوراس. وكتاب الجمهوريّة I.

أُخذت الاقتباسات من:

The Last Days of Socrates, Plato, translated by Hugh Tredennick, Penguin, 1987

Early Socratic Dialogues, Plato, translated by Iain Lane, Penguin, 1987

Protagoras and Meno, Plato, translated by W. K. C. Guthrie, Penguin, 1987

Gorgias, Plato, translated by Robin Waterfield, OUP, 1994.

العزاء بشأن الافتقار إلى المال

أُخذت الاقتباسات من:

The Essential Epicurus, Epicurus, translated by Eugene O'Connor, Prometheus Books, 1993

The Epicurean Inscription, Diogenes of Oinoanda, translated by Martin Ferguson Smith, Bibliopolis, 1993

On the Nature of the Universe, Lucretius, translated by R. E. Latham, revised by John Godwin, Penguin, 1994

العزاء بشأن الإحباط

أُخذت الاقتباسات من:

The Annals of Imperial Rome, Tacitus, translated by Michael Grant, Penguin, 1996

The Twelve Caesars, Suetonius, translated by Robert Graves, Penguin, 1991

Dialogues and Letters, Seneca, translated by C. D. N. Costa, Penguin, 1997

Letters from a Stoic, Seneca, translated by Robin Campbell, Penguin, 1969

Moral Essays, volume 1, Seneca, translated by John W. Basore, Loeb-Harvard, 1994

Moral Essays, volume 11, Seneca, translated by John W. Basore, Loeb-Harvard, 1996

twitter @baghdad_library

Moral and Political Essays, Seneca, translated by John M. Cooper and J. F. Procopé, CUP, 1995

Naturales Quaestiones 1 & 11, Seneca, translated by T. H. Corcoran, Loeb-Harvard, 1972

العزاء بشأن الضعف:

أُخذت الاقتباسات من:

The Complete Essays, Michel de Montaigne, translated by M. A. Screech, Penguin, 1991

العزاء بشأن انكسارات القلب

أُخذت الاقتباسات من:

Parerga and Paralipomena, volumes I and II, Arthur Schopenhauer, translated by E. F. Payne, OUP, 1972

The World as Will and Representation, volumes I and II, Arthur Schopenhauer, translated by E. F. J. Payne, Dover Publications,

1966

Manuscript Remains (4 volumes), Arthur Schopenhauer, edited by A. Hübscher, Berg, 1988

Gesammelte Briefe, Arthur Schopenhauer, edited by A. Hübscher, Bonn, 1978

Gespräche, Arthur Schopenhauer, edited by A. Hübscher, Stuttgart, 1971

Schopenhauer und die wilden Jahre der Philosophie, Rüdiger Safranski, Rowohlt, 1990

العزاء بشأن المصاعب

أُخذت الاقتباسات من:

Daybreak, Friedrich Nietzsche, translated by R. J. Hollingdale, CUP, 1997

Ecce Homo, Friedrich Nietzsche, translated by R. J. Hollingdale, Penguin, 1979

Beyond Good and Evil, Friedrich Nietzsche, translated by R. J. Hollingdale, Penguin, 1973

Human, All Too Human, Friedrich Nietzsche, translated by R. J. Hollingdale, CUP, 1996

Wanderer and His Shadow, Friedrich Nietzsche, translated by R. J. Hollingdale, CUP, 1996

Untimely Meditations, Friedrich Nietzsche, translated by R. J. Hollingdale, CUP, 1997

The Anti-Christ, Friedrich Nietzsche, translated by R. J. Hollingdale and collected in Twilight of the Idols and the Anti-Christ, Penguin, 1990

The Will to Power, Friedrich Nietzsche, translated by Walter Kaufmann & R. J. Hollingdale, Vintage, 1968

The Gay Science, Friedrich Nietzsche, translated by Walter Kaufmann, Vintage, 1974

twitter @baghdad_library

Twilight of the Idols, Friedrich Nietzsche, translated by Duncan Large, OUP, 1998

On the Genealogy of Morality, Friedrich Nietzsche, translated by Carol Diethe, CUP, 1996

Sämtliche Briefe: Kritische Studienausgabe, Friedrich Nietzsche, 8 volumes, DTV and de Gruyter, 1975–84

twitter @baghdad_library

إقرارٌ بالفضل

أنا شديد الامتنان للأشخص التالية أسماؤهم بشأن مداخلاتهم على فصول هذا الكتاب:

د. روبن ووترفيلد (عن سقراط)، البروفيسور ديفيد سيدلي (عن أبيقور)، البروفيسور مارتن فيرغسون سميث (عن أبيقور)، البروفيسور ك. د. ن. كوستا (عن سينيكا)، البروفيسور المبجَّل مايكل سكريتش (عن مونتين)، رغْ هولنغديل (عن شوبنهاور)، د. دنكن لارج (عن نيتشه). كما أدين بشدّة للأشخاص التالية أسماؤهم بشأن ملاحظاتهم: جون آرمسترونغ، هارييت براون، ميشيل هتشيسن، نوغا أريخا وميريام غروس. كما أود شكر: سايمون بروسر، ليزلي شو، هيلين فريجر، مايكل لينتن، جولييت أنان، غرين كيلي، آنا كوبرين، كارولاين دوناي، أنابيل هاردمن، ميريام بيركلي، كلوي كانسلور، ليسابيل ماكدونالد، كيم ويذرسبون، دان فرانك.

آلان دو بوتون (1969)

كاتب ومقدّم برامج تلفزيونيّة سويسريّ مقيم في بريطانيا. تتمحور كتبه وبرامجه حول مواضيع متعدّدة، مع تركيزٍ على صلة الفلسفة بالحياة اليوميّة. دخلت كتبه جميعها لائحة الكتب الأكثر رواجًا، ابتداءً بكتابه الأول مقالات في الحبّ (1993) الذي بيع منه أكثر من مليوني نسخة، ثم تتابعت كتبه لتصل 14 كتابًا، من بينها كيف يمكن لبروست أن يغيّر حياتك (1997)، هندسة السعادة (2006)، الفنّ كعلاج (2013)، الأخبار: دليل مستخدم (2014). وقدَّمَ هذا الكتاب عزاءات الفلسفة (2000) ضمن برنامج تلفزيونيّ حقّق حضورًا كبيرًا بعنوان الفلسفة: دليلٌ إلى السعادة.

المترجم، يزن الحاج (1985).

كاتب ومترجم سوريّ. أصدر مجموعةً قصصيّة، وترجم عددًا من الكتب عن الإنكليزيّة، صدر منها عن دار التنوير: الفلسفة في الحاضر (آلان باديو وسلافوي جيجك: 2013)، الحرّية: خمس مقالات عن الحريّة (إيزايا برلين، 2015)، سمكريّ خيّاط جنديّ جاسوس (جون لو كاريه، 2015).

twitter @baghdad_library

الفهرس

I . العزاء بشأن مخالفة الآراء السّائدة 5
II . العزاء بشأن الافتقار إلى المال 55
السعادة، لائحة ممتلكات...................................57
السعادة، لائحة ممتلكات أبيقوريّة 70
السعادة، لائحة ممتلكات...................................88
III . العزاء بشأن الإحباط 91
قاموس سينيكيّ في الإحباط.................................... 100
IV . العزاء بشأن العجز.. 139
عن العجز الجنسيّ 151
عن العجز الثقافيّ 163
عن العجز الفكري 187
V . العزاء بشأن انكسارات القلب.............................. 211
قصّة حبٍّ معاصرة، مع ملاحظات شوبنهاوريّة.................... 227
VI . العزاء بشأن المصاعب 253
المراجع... 309
إقرارٌ بالفضل... 315

مقدمة رفيعة لعالم الفلسفة «نيوزويك»

كان يمكن أن يكون عنوان هذا الكتاب: الفلسفة كعلاج نفسي. فهذا الكتاب اللافت سيُشعرنا على نحو رائع بالتحسُّن بطريقةٍ جيّدةٍ، بمعيارَين متساويَيْن من الذكاء والحكمة.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

عندما سألوا سقراط من أين جاء، لم يقل «من أثينا»، بل «من العالم». (مونتين)

لا ينبغي أن نشعر بالإحراج بسبب بلاءاتنا، إذ عبر إخفاقاتنا فحسب سينمو كلّ ما هو جميل... (نيتشه)

ما يُسبّب التعاسة... هو السعي وراء السعادة بافتراض أكيد أنّنا سنجدها في الحياة... سيكتسب الشبابُ الكثيرَ لو تمكّنوا من تخليص أذهانهم من الفكرة الخاطئة بأنّ لدى العالم صفقةً عظيمةً سيعرضها علينا. (شوبنهاور)

بوتون، أخذ الفلسفة إلى هدفها الأبسط والأهم: مساعدتنا في عيش حيواتنا. (جريدة الإندبندنت)

متعة في قراءتها.. الكتابة الجميلة مثل الفلسفة الجميلة دائما تعزّي.. (تايمز)

قلّما تجد مناقشات حول كبار الفلاسفة بهذه المتعة «كتاب عبقري وخيالي» (همفري كاربنتر)

بارع ومدروس ومسلٍّ، كتاب أنيق يجعل الفلسفة ممتعة وذات صلة بحيواتنا. (ليتيراري ريفيو)

بطريقة بارعة، يقدّم دو بوتون أفكار الفلاسفة لمساعدة القرّاء في مشاكلهم. (بابليشرز ويكلي)

من مؤلّف كتاب كيف يمكن لبروست أن يغيّر حياتك، هذا عملٌ مبهجٌ يُثْبتُ أنّ الفلسفة يمكن أن تكون مصدرًا أسمى للمساعدة على التفكير في المشكلات الأكثر تسبّبًا للألم. ويكشف آلان دو بوتون الحكمة العمليّة في كتابات بعضٍ من أعظم المفكّرين في كلّ العصور، لتكون النّتيجة كتابًا غير متوقّع في العزاء والبهجة في آن.

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ISBN 978-977-6483-54-5
9 789776 483545
التنوير

twitter @ baghdad_library